مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الجَبَروت والجبَّار

تأملات في السُلطة، والدِين، والشؤون الدولية

مادلين أولبرايت

مقدمة بقلم الرئيس بيل كلينتون

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
THE MIGHTY & THE ALMIGHTY
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
HarperCollinsPublishers
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم

الجبروتُ والجبّار

تأمّلات في السلطة، والدين، والشؤون الدولية

مادلين أولبرايت
بالاشتراك مع بيل ودوورد

ترجمة
عمر الأيوبي

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

المحتويات

القسم الأول

الله والحرية والبلد

القسم الثاني

الصليب والهلال والنجمة

القسم الثالث

تأملات أخيرة

تقديم الطبعة الإنكليزية

في كانـــون الأول/ديـــسمبر 2005، انضممت إلى المشيّعين في كنيسة سانت مارغريت التاريخية، الكنيسة الرسمية الملحقة بالبرلمان. وكانت المناسبة قدّاساً لراحة نفس روبن كوك، وزير الخارجية البريطاني في فترة شغلي منصب وزيرة الخارجية. فقـــبل أربعـــة أشهر انهار في أثناء تسلّق المرتفعات الإسكتلندية مع زوجته غاينور. وقبل ذلك بسنتين استقال من الحكومة البريطانية لأنه يعارض غزو العراق.

لم يكن روبن كوك يظهر الإيمان بالله (سبحانه وتعالى)، لكنه لم يكن ليعترض علـــى تأبيـــنه في كنيـــسة، فقد كان كما يقال ملحداً برسبيتارياً (مَشْيَخيّاً). وفي القـــدّاس، قرأ طوني بلير قسماً من إنجيل لوقا. وتلت غاينور مقطعاً من سفر ميخا يتنـــبّأ باليوم – المنتظر – عندما تجتمع الأمم "فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل". وأطلق غوردون براون على كوك لقب "البرلماني العظيم". وقدّمت بعض الذكـــريات، ومنها مشاركتي أنا وكوك في مجموعة "الوزراء السابقين" من أوروبا وكـــندا والـــولايات المـــتحدة. واحتشد في مقاعد الكنيسة جمع يزيد على 850 شخـــصاً، يمـــثّلون بلداناً من كل أنحاء المعمورة. طُرحت الاختلافات التي تسود النقاشـــات العامـــة جانباً لبعض الوقت فحسب، إذ إن الأسئلة المبدئية نفسها التي دفعت روبن كوك إلى الابتعاد عن قيادة حزبه هي التي أدّت إلى حدوث انقسامات أكبر في أوروبا وأميركا، وبين إدارة بوش ومنتقديها الكثر في كل أنحاء العالم.

ففي جانب، هناك من يرى أن غزو العراق ردّ ضروري على 11 أيلول/سبتمبر، وهو حدث أحدث صدمة كبيرة غيّرت قواعد الحرب وبرّر استثناء القانون على نطاق واســـع، وأجاز لأميركا الدفاع عن نفسها متى وأين وكيفما رأى قادتها ذلك ملائماً. وفي الجانب الآخر، هناك من يرى (وأنا منهم) الإرهاب الدولي خطراً عالمياً يتم إلحاق الهـــزيمة به على الوجه الأفضل بالتعاون القوي بين الأصدقاء القدامى والالتزام الثابت بمعايير حقوق الإنسان والقانون التي استقرّ عليها الرأي منذ مدّة طويلة. وثمة دور يقوم به العسكريون في هذا الكفاح، لكن ساحة القتال الحاسمة هي ساحة الأفكار.

المقدّمة

بقلم وليام ج. كلينتون
الرئيس الثاني والأربعون للولايات المتحدة

عندما كانت مادلين أولبرايت تشغل منصب وزيرة الخارجية، عرف العالم ما كنت أعرفه بالفعل: أنها لا تخاف من تناول القضايا الصعبة أو التحدّث عما يجول في ذهنها. وفي كتاب "الجبروتُ والجبَّار"، تكتب بصراحة غير معهودة وفهم جيد لدور أميركا الدولي، والدين، والأخلاق، وحالة العالم الجارية المنقسمة والقلقة. و لم يكـتب أي وزير خارجية شيئاً مماثلاً لذلك على ما أعلم. إنه كتاب غير متوقّع، وُضع ضدّ نصيحة الأصدقاء الذين يخشون من عدم إمكانية بحث هذه الموضوعات دون الإساءة لأحدهم. ومن خلال خبرتي لا سبيل إلى تجنب الإساءة لأحدهم إلا بالتوقّف وعدم الحركة. ومادلين أولبرايت تجسّد الحركة إلى الأمام.

بعـد نقاشـنا الأولي بشأن هذا المشروع، اتصلت بمادلين من أجل مزيد من الـبحث، دون أن أعلـم بمكان وجودها في ذلك الوقت. وتبين أنها في غدانسك، ببولونيا، إحياءً للذكرى الخامسة والعشرين للتضامن، وهي الحركة الديمقراطية التي أنهـت الحرب الباردة وجلبت الحرية إلى أوروبا الوسطى والشرقية. عندما اتصلت بمـادلين، كانت تقف وسط حشد يضمّ الرئيس التشيكي السابق فاكلاف هافل، والرئيسين الحاليين لأوكرانيا وبولونيا. وقد مرّرت الهاتف إليهم وأتيحت لي فرصة غـير منتظـرة ولكن سارّة للتواصل مع بعض الأصدقاء القدامى. في غضون ذلك وضعت مادلين إكليلاً من الزهر على نصب تذكاري لحركة التضامن وشاركت في قـدّاس في الهـواء الطلق استمرّ ثلاث ساعات احتفالاً بالحرية. لقد اتصلت بها في لحظـة وفي مكـان احـتلّ فيهما ذكر الله والحرية مكان الصدارة. ويتصل أحد موضـوعات هذا الكتاب، وأحد مصادر الخلاف المستمر في الحياة العامة، بالعلاقة بين هذين الاثنين.

كتب والت ويتمان، "إن جوهر الديمقراطية هو العنصر الديني. كل الأديان، قديمها وحديثها، موجودة هناك". وأعتقد أننا نصادف جميعاً أشخاصاً يقبلون جملة ويتمان الأولى فيما يتجاهلون الثانية، ما يُفرغ الاثنتين من معناهما. الدين والديمقراطية في أحسن تقدير يحترمان المساواة بين البشر وقيمة كل منهم: فكلّنا خلقنا على صورة الخالق، ومنحنا حقوقاً لا يمكن التصرّف بها. وهذان المبدآن متآلفان، وهما توحيديّان وإشراكيان (وشاملان). ولا تبرز المشاكل إلا عندما نحاول أن نقدّم تفسيرنا على ما قاله ويتمان، ونحاول أن نبرهن أن فهمنا للكون أفضل من فهم الآخرين له. لكن الإيمان بمعتقد ديني يعني الإيمان بوجود حقيقة مطلقة. ولا يمتّ إلى ذلك بصلة التأكيد على أن البشر الذين يفتقرون إلى الكمال يمكنهم امتلاك تلك الحقيقة بأكملها، أو أن لدينا إيديولوجية سياسية صحيحة تماماً وتتيح لنا معاقبة من لا يدينون بديننا أو إكراههم أو إساءة معاملتهم.

أنشأ دستور الولايات المتحدة شيئاً جديداً حقّاً: نظام حكم لا يُعهد فيه بالثقة العليا إلى المسؤولين الكبار المحاصرين بنظام مبتكر من الزواجر والضوابط، وإنما إلى الشعب بمجموعه. ومن القيود التي وضعها الآباء المؤسسون على هذه الحكومة عدم تقرير دين رسمي للدولة، أو حرمان حق أي امرئ من العبادة بحرية. لقد أدرك المؤسسون من خلال التاريخ أن تركّز السلطة السياسية والدينية في جهة واحدة يمكن أن يكون ساماً.

إننا نعلم بالطبع أن باستطاعة من يسعون إلى تعزيز سلطتهم على حساب الآخرين استغلال قوة الإيمان. ففي البلقان، تحدّث سلوبودان ميلوسوفيتش كثيراً عن الدفاع عن أوروبا المسيحية، لكن كان غرضه الحقيقي استخدام الدين والانقسامات العميقة لإحكام قبضته على السلطة. وقدّم أسامة بن لادن نفسه كمدافع عن الإسلام، لكن استعداده لقتل الأبرياء، بمن فيهم المسلمون الآخرون، لا يشكل تفسيراً صحيحاً للقرآن ويناقض تعاليم ذلك الدين. الدين في الأيدي غير المناسبة يصبح أداة تُستخدم لاستبعاد مجموعة من البشر عن مجموعة أخرى لا استناداً إلى معرفة روحية عميقة، وإنما لأن ذلك يساعد من يقوم بالاستبعاد.

هل يعني ذلك أن على صناع السياسات محاولة النأي بالدين عن الحياة العامة؟ الجواب على ذلك، كما تناقش مادلين أولبرايت، لا مدوّية. فلا ينبغي لنا ألا نقوم بذلك فحسب، بل إننا لن نُفلح إذا حاولنا. فالمعتقدات الدينية، إذا كانت راسخة، لا يمكـــن ارتداؤها وخلعها كما نرتدي ونخلع الثياب. إننا نحملها معنا أنى ذهبنا، المشككون والملحدون جنباً إلى جنب مع المتديّنين. وعلى الرئيس أو وزير الخارجية اتخـــاذ القرارات وفقاً لمعتقداته الدينية ولتأثير هذه القرارات على الأشخاص الذين يتـــبعون أديانـــاً أخـــرى. غير أن تقييم ذلك التأثير ليس سهلاً، كما تشير مادلين أولبرايت.

في أثناء زيارتي إلى الهند في سنة 2000، قرّر بعض المتشدّدين الهندوس التنفيس عن غضبهم بقتل ثمانية وثلاثين شخصاً من السيخ بدم بارد. لو لم أقم بتلك الزيارة لـــربما بقـــي هؤلاء الضحايا على قيد الحياة. ولو لم أقم بتلك الزيارة خوفاً مما قد يـــنفّذه المتطـــرّفون الدينيون، لما تمكّنت من أداء واجبي كرئيس للولايات المتحدة. فطبـــيعة أميركـــا تقضي بأن يعرّف العديد من الأشخاص أنفسهم - أو جزءاً من أنفـــسهم - تجاهها، معها أو ضدّها. وذلك جزء من الواقع الذي يتعين على قادة الولايات المتحدة العمل فيه.

عـــندما يحاول الأئمة المتطرّفون قلب تفكير الشبّان المخالفين أو المستائين، وليسوا كلّهم من الفقراء أو غير المتعلّمين، بعرض الجنة مقابل استعداد المؤمنين لقـــتل المدنـــيين بتفجير أنفسهم، كيف نردّ على ذلك؟ يمكننا محاولة قتلهم أو القبض عليهم، لكننا لن نستطيع النيل منهم أجمعين. ويمكننا محاولة إقناعهم بنبذ العنف، لكن إذا لم يكن لمقولاتنا أساس في تجربتهم، لا يمكن أن ننجح تماماً. إن فرصـــتنا الأفضل هي العمل بالتعاون مع من يحاول في العالم الإسلامي الوصول إلى العقـــول نفـــسها التي يخاطبها المتطرّفون بالدعوة إلى إسلام كامل لا إسلام مشوّه ومجتزأ.

إنـــني أؤمـــن حقّـــاً بإمكانية تحقيق ذلك، لا عن طريق تخفيف المعتقدات الروحانية، وإنما بسبر أغوارها. فنقاط الاتفاق بين الديانات الإبراهيمية الثلاث أكثر من نقاط الاختلاف. فكلّها تدعو إلى العبادة والخير والتواضع والمحبّة. ولم

يُكشف النقاب عن أي منها تماماً. ويكمن التحدّي الذي يواجه قادتنا في استخدام المشترك فيما بيننا كأساس لإلحاق الهزيمة بالعناصر المتطرّفة وتجفيف منابع دعم الإرهاب. ومتى أقرّ الناس بإنسانيتهم المشتركة، يصبح من الصعب عليهم إضفاء الصفات الشيطانية على الآخر وتدمير بعضهم بعضاً. وإيجاد تسوية قائمة على المبادئ مع واحد "منا" أسهل بكثير من التوصّل إليها مع واحد "منهم". وتستطيع معتقداتنا الدينية مساعدتنا في محو الخطّ الفاصل القديم فيما بيننا. ليس هناك عمل أجدى من ذلك، لكنه عمل لم نكد نبدأ به – بعد مضي أربعة أعوام ونصف على 9/11 – كما توضح مادلين أولبرايت في هذا الكتاب.

الفصل الأول

الجبروتُ والجبَّار

كنت قد شهدتُ خطابات احتفالات تنصيب رؤساء سابقين، لكن الخطاب الأول الـــذي أعيه حقّاً هو خطاب جون كنيدي في سنة 1961. كان أخي جون، وهو طالب في المدرسة المتوسطة آنذاك، يعزف على الترومبيت في فرقة شرطة دنفر وكان قد دُعي إلى واشنطن للمشاركة في موكب حفل التنصيب. ويبدو أن الجميع يذكـــرون الـثلج الـــذي كان يغطّي الأرض وكيف أعاق وهج الشمس روبرت فروســـت عن قراءة القصيدة التي كان قد وضعها لهذه المناسبة. وطلب منا الرئيس الجديد، الذي كان حاسر الرأس في ذلك الجوّ القارس والبخار يتصاعد من أنفاسه، ألاّ "نطلـــب شيئاً". كان خطاباً عن "تسليم المشعل" إلى جيل جديد. لقد شاهدته على التلفزيون، كما شاهدت كل خطابات احتفالات التنصيب حتى سنة 1993. ففي ذلك الوقت، وكذلك بعد أربع سنين، شاهدت الرئيس كلينتون يلقي خطابيه مـــن شـــرفة مبنى الكونغرس الأميركي. وأظهرت الكلمات الممتزجة مع الحشود ومشهد نصب واشنطن الإحساس بالتاريخ والفخر بالولايات المتحدة التي صنعت الكثير لتشكيل رؤيتي للعالم.

• • •

يقـــدّم خطاب حفل التنصيب للرئيس الأميركي فرصة لا نظير لها للتحدّث مباشرة إلى 6 مليارات إنسان، بمن فيهم نحو 300 مليون مواطن أميركي. ويستطيع القائد الأعلى (وربما القائدة ذات يوم)، بتحديد غاية بلده، أن يصنع التاريخ ويحفر لنفسه مكاناً خاصاً فيه. وفي 20 كانون الثاني/يناير 2005، خاطب الرئيس جورج دبلـــيو بوش أميركا والعالم، بحضور جمهور محتشد أمام مبنى الكونغرس. وتبين من الكلمـــات الأولى أنه وكتّاب الخطاب حدّدوا أهدافاً عالية. فقد أعلن أن "سياسة الولايات المتحدة هي السعي إلى تحقيق الديمقراطية ودعم نموّ الحركات والمؤسسات

الديمقــراطية في كــل أمــة وثقافة، وأن الهدف النهائي هو وضع حدّ للطغيان في العــالم". وتابع يقول، "شهدت العدالة مدّاً وجزراً على مرّ التاريخ، لكن للتاريخ اتجاهــاً بيناً أيضاً خطّته الحرية وخالق الحرية". واختتم الرئيس خطابه بأن "أميركا، في هــذا القرن الوليد، تنادي بالحرية في كل أنحاء العالم ولكل سكانه". وربما كان بوسعه أن يضيف بأن، في التوراة، كان الربّ خصّ موسى بهذه المهمة، بالكلمات نفسها.

هــذا الخطــاب ميز جورج دبليو بوش، وأثنى عليه المعجبون به بأنه ملهم، ورفضه منتقدوه باعتباره تمجيداً للذات. وهو انسجم مع فترة حكم الرئيس الأولى الــتي ردّ خلالهــا على أشدّ الضربات التي تعرّض لها التراب الوطني الأميركي في الــتاريخ، وقاد أميركا إلى حربين، وأثار مشاعر الليبراليين والمحافظين على السواء، وأبعــد أميركــا عــن حلفائها الأوروبيين القدامى، وزاد من سوء العلاقات مع المجتمعات العربية والإسلامية، ونقل صورة عن النوايا الأميركية التي وجدها الملايين مفرحة، ورأى العديد أنها غير حكيمة.

وفي داخل الولايات المتحدة، هناك من يرى أن الرئيس كمتطرّف يدير سياسة خارجــية يقــول عــنها أحد المعلّقين إنها، "أكثر من استباقية، إنها متطاولة دينياً؛ وليــست أحادية فحسب، وإنما مسيحانية خطرة؛ وليست متعجرفة فحسب، وإنما تقف عند حدود الوثنية والكفر". ويرى مؤيّدو الرئيس على عكس ذلك أن قيادته مــتلائمة بشكل مثاليّ، بل بطوليّ، مع المخاطر التي تحدق بهذه الحقبة وأنها تجاري أفضل التقاليد الأميركية.

انطباعاتي الغريزية الأولى، لا سيما عندما يجهر الرئيس بحسنات الديمقراطية، هي التهلــيل والتصفيق. فلدي إيمان راسخ بأن الديمقراطية هي من أفضل ابتكارات الجنس البــشري: إنهــا شكل الحكومة الذي يتفوّق على ما عداه ومصدر قوي من مصادر الأمــل. ولــدي إيمان راسخ أيضاً بالحاجة الماسّة إلى القيادة الأميركية. ولَمَ لا أكون كــذلك. فعندما كنت فتاة صغيرة، عبر الجنود الأميركيون المحيط للمساعدة في إنقاذ أوروبــا من خطر أدولف هتلر. وعندما بلغت سني المراهقة، رحّب الشعب الأميركي بعــائلتي بعــدما تسلّم الشيوعيون السلطة في بلدي الأصلي تشيكوسلوفاكيا. وخلافاً

لمعظم أبناء جيلي ممن ولدوا في أوروبا الوسطى، أتيحت لي فرصة النموّ في بلد ديمقراطي، وتلك ميزة سأشعر بفضلها على الدوام. وأنا آخذ الكلمات الترحيبية الموجودة عند قاعدة تمثال الحرية على محمل الجدّ، وطالما فكّرت بأن أميركا ملهمة للشعوب في كل مكان - وبخاصة إلى الذين حُرموا من الحرية في أرضهم.

لكن على الرغم من أن خطاب الرئيس بوش يبدو جذّاباً في بعض الأحيان، فإنني أعرف بأن الدعوة إلى الحرية أبسط بكثير من بناء ديمقراطية حقيقية. فالحرية السياسية ليست حبّة سحرية يبتلعها الناس في المساء ويستيقظون في الصباح وقد حُلّت مشاكلهم، ولا يمكن فرضها من الخارج أيضاً. "الحرية هي هبة الله إلى كل أبناء العالم"، كما يقول الرئيس. وقال لبوب ودوورد، "في الواقع أنا الشخص الذي كتب هذا السطر، أو قاله. لم أكتبه بل قلته فقط في أحد خطاباتي، وصار جزءاً من الرطانة المعهودة. وأنا أؤمن بذلك. وأؤمن بأن من واجبنا تحرير الشعوب. وكنت آمل ألا نضطر إلى القيام بذلك بوسائل عسكرية، لكنْ لدينا واجب".

هذه مشاعر ترفع الروح المعنوية بدون شك، لكن ما الذي تعنيه بالضبط؟ الرئيس يقول إن الحرية منحة للجميع، لكن هل يعني بأن الله اصطفى أميركا لتسليم هذه المنحة؟ إن مجرّد إثارة هذا السؤال تفتح المجال أمام أسئلة أخرى. هل تؤمن الولايات المتحدة بأن لديها علاقة خاصة مع الله؟ هل لديها رسالة أوحى بها الله إليها تقضي بتعزيز الحرية؟ ما الدور الذي يجب أن تلعبه المعتقدات الدينية، إذا كان لها دور ما، في قرارات المسؤولين عن السياسة الخارجية الأميركية؟ لكن ربما يجدر بنا أن نبدأ بالسؤال لماذا نفكّر في هذه الأسئلة وثمة فصل بين الدين والدولة في الدستور الأميركي؟ ألم نتوصّل منذ زمن طويل إلى أن من الخطأ، في جميع الأحوال، الخلط بين الدين والسياسة الخارجية؟ لقد فكّرت على نحو ذلك دون شك.

على الرغم من أن تراثي يهودي - كما علمت في مرحلة متأخّرة من حياتي[1] - فإنني تربّيت كمسيحية كاثوليكية، وكنت أصلّي إلى مريم العذراء بانتظام، وأحلم بأن

---

(1) ثمة بحث كامل لاكتشاف تراثي اليهودي، بما في ذلك صدمة معرفة أن ثلاثة من أجدادي وعدداً آخر من أفراد عائلتي توفوا في المحرقة، في: *Madam Secretary: A memoir*, Mirmax, New York, 2003, 23.

أكـــون كاهـــنة (حتى الفتاة الكاثوليكية يمكنها أن تحلم). وفيما كنت أنمو، صيغت أخلاقياتي بما تعلّمته في الكنيسة بالقدوة وما تعلّمته من والديّ. وغُرس في نفسي الجدّ في العمل وبذل أفضل ما عندي طوال الوقت، واحترام حقوق الآخرين. وعندما كنت طالـــبة في السنة الجامعية الثانية بكلية ولزلي، كان عليَّ دراسة الكتاب المقدس كتاريخ وتعلّم قصّة إسرائيل القديمة مثلما أتعلّم تاريخ اليونان وروما[1].

كنت شغوفة بشؤون العالم بالدرجة الأولى باعتباري مهاجرة وابنة دبلوماسي تـــشيكوسلوفاكي سابق. لكنني لم أكن أنظر إلى القضايا الكبرى في ذلك اليوم من مـــنظور الـــدين – ســـواء أكان ديني أم دين الغير. ولم أكن واثقة تماماً من عمق معرفتي الدينية لأعتقد أنني في موقف يسمح لي بأن أعظ من أعرف بشأن ما الذي يجب أن يؤمنوا به. ولم أكن أعتبر الإيمان الروحي موضوعاً يُتحدّث عنه في العلن. وكـــان ذلك أمراً نموذجيّاً بالنسبة لجيلي الذي شبّ عن الطوق. وأنا واثقة من أن هناك أنحاء من أميركا ذات مواقف مختلفة، لكن العالم مايكل نوفاك أصاب عندما أكّـــد في أوائـــل الستينيات من القرن الماضي قائلاً، "في الواقع، 'الله' هي الكلمة الوحيدة [التي لا يمكن استخدامها] في حوار جادّ دون إثارة انـــزعاج أحدهم".

كانـــت الحداثة النجم الذي يهتدي به معظمنا في تلك السنين، وكان الكثير يعتـــبرها مـــرادفاً للعلمـــنة. وكانت العجائب التي نحتفل بها تقنية أكثر من كونها توراتـــية: ســـباق الفضاء، الاختراقات في الطبّ، وظهور القدرة النووية، ومجيء التلفـــزة الملـــوّنة، وفجـــر عصر الحاسوب. وفي الولايات المتحدة، أضفى الفيلم والمـــسرحية Inherit the Wind (وراثة الريح) الإثارة التمثيلية على انتصار العلم (نظـــرية التطوّر) على نظرية الخلق (التفسير الحرفي لسفر التكوين)[2]. وعندما كنا

---

(1) ولزلـــي كلـــية للبـــنات. وشعار الكلية "ألا تقدّم إلينا الرعاية وإنما أن نقدّمها". وكنت أنا وزملائي في الصفّ نسخر من الشعار بأنّه يعني "ألا نكون كهنة، وإنما زوجات للكهنة".

(2) لـــم يحدث "انتصار العلم" دفعة واحدة وربما لا يكون دائماً. فلم يصبح تدريس نظرية التطوّر قانونياً في كل أنحاء الولايات المتحدة إلا في سنة 1968. وثمة ضغوط حديثة تمارسها بعض الجماعـــات الدينية لتعليم "التصميم الذكي كبديل لنظرية التطوّر. وتقوم فكرة التصميم الذكي، كما أفهمها، على أن تعقيد الحياة يثبت أن العالم خلقته قوة فائقة كلية المعرفة. لا أعتبر نفسي خبيـــرة في كل ما يجب تدريسه في الصفوف الدراسية، لكنني أعتقد بوجود تمييز واضح بين المفاهيم المستمدّة من الطريقة العلمية وغير المستمدّة منها.

نفكّر في موسى، تقفز إلى أذهاننا صورة تشارلتون هستون بالألوان (تكنيكولور). لقد بقيت القيم الدينية، لكن كانت الإثارة تأتي من توقّع ما قد يأتي به الباحثون لاحقاً. ولم نكن نحن الأميركيين وحيدين في انشغالاتنا البراغماتية. ففي الخارج، كان المدّ السياسي للاشتراكية والوطنية، حيث حرّر الأفارقة والآسيويون أنفسهم من المشرفين الاستعماريين عليهم وبدأوا مهمة بناء بلدانهم التي تدير نفسها بنفسها.

في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي أصبحت أستاذة في جامعة جورجتاون. وكان اختصاصي السياسة الخارجية التي نظّر فيها المشاهير مثل هانس مورغنثاو وجورج كينان ودين أتشنسون بمصطلحات علمانية حصرية تقريباً. فقد رأوا أنه يمكن تحديد الأفراد والمجموعات بحسب الأمم التي ينتمون إليها. فللبلدان حكومات. والحكومات عملت على حماية مصالح شعوبها. وتكوّنت الدبلوماسية من التوفيق بين المصالح المختلفة، على الأقل إلى درجة عدم اندلاع الحروب وانفجار العالم. وقورنت السياسة الخارجية عموماً بلعبة الشطرنج: إنها لعبة عقلية يعرف فيها الجانبان القواعد. وهي منافسة يحكمها المنطق، ويتحدّث اللاعبون فيها على طريقة المحامين لا الوعّاظ. وفي أثناء سني بلوغي، اكتسب القادة الغربيون ميزة سياسية بالسخرية من "الشيوعيين الذين لا ربّ لهم"؛ وخلافاً لذلك لا أذكر أي دبلوماسي أميركي بارز (حتى جيمي كارتر المسيحي المولود من جديد) يتحدّث بعمق عن دور الدين في تشكيل العالم. فالدين لم يكن يحترم الحدود الوطنية، وهو كان فوق إدراك العقل، واستثار أعمق المشاعر، وكان يعتبر تاريخياً سبباً في الكثير من إراقة الدماء. وعُلّم الدبلوماسيون في حقبتي عدم استثارة المشاكل، ولم يبدُ أن ثمة موضوعاً أكثر غدراً بطبيعته من الدين.

ذلك هو الفهم الذي كان يهديني عندما عملت في إدارة الرئيس كلينتون كسفيرة في الأمم المتحدة ووزيرة للخارجية. وكان لدى زملائي الشعور نفسه. وعندما توقّع صموئيل هنتنغتون، الأستاذ في جامعة هارفرد في العام 1993، أن تشهد الحقبة التي تلي الحرب الباردة صداماً دينياً بين الحضارات، بذلنا ما بوسعنا لننأى بأنفسنا عن هذه النظرية. وكنا نتطلّع إلى مستقبل تقترب فيه الأمم والأقاليم

بعضها من بعض فيما تتوثّق عرى الروابط الديمقراطية، لا إلى عالم ينقسم على طول خطوط الصدع التاريخية بين الثقافات والمعتقدات.

وعندما اندلع القتال في البلقان، حثثنا كل جانب على التركيز على حقوق الأفراد لا على امتيازات الجماعات. وفي سنة 1998، في أعقاب قصف الإرهابيين السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا، نشرنا ملصقات نطلب فيها الحصول على معلومات ونعرض جائزة؛ كانت هذه الملصقات تحمل العنوان، "هذا لا يتعلّق بالدين ولا بالسياسة. إنه ببساطة ووضوح يتعلّق بالقتل". وفي أثناء الجهد الماراتوني الذي بذلته الإدارة لإيجاد أساس للسلام في الشرق الأوسط، كنت أنا والرئيس كلينتون ندرك تماماً الأهمية الدينية للأماكن المقدّسة في القدس. مع ذلك كنا نأمل في استنباط صيغة قانونية ذكية لتهدئة المشاعر التي تولّدت في الماضي. وقد طلبنا من كلا الجانبين أن يكونا واقعيين وتوقّعنا منهما ذلك، وأن يتوصّلا إلى أفضل اتفاق ممكن.

فنحن في النهاية كنا نعيش في العصور الحديثة. وكانت قد انتهت الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت التي أزهقت حياة ثلث سكان أوروبا المسيحية في سنة 1648 بسلام وستفاليا Westphalia. وكان قد توقّف القتال على نطاق واسع بين المسيحيين والمسلمين في سنة 1863، عندما أوقف تقدّم الأتراك العثمانيين عند بوّابات فيينا. ووجدت من غير المعقول، مع اقتراب القرن الواحد والعشرين، أن يتواصل النزاع بين الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا الشمالية، وأن يستمرّ التقاتل بين الهندوس والمسلمين في جنوب آسيا؛ وكنت أعتقد اعتقاداً جازماً أن هذه العداوات صدى للأزمنة الماضية الأقلّ تنوّراً، وليست علامات على معارك ستأتي.

قد أدركت منذ هجمات 11 أيلول/سبتمبر أنني قد أكون أنا العالقة في زمن ماضٍ. وعلى غرار متخصّصين آخرين في السياسة الخارجية، كان عليَّ أن أعدّل العدسة التي أنظر من خلالها إلى العالم، لأفهم ما بدا أنه واقع جديد، لكنه ظاهر بالفعل منذ بعض الوقت. لقد كانت التسعينيات من القرن الماضي عقد العولمة والمكاسب التقانية (التقنية) الرائعة، حيث غيّرت ثورة المعلومات نمط حياتنا وحوّلت مكان العمل، وعزّزت تطوّر مفردات جديدة تماماً. لكن كانت هناك قوة أخرى تفعل فعلها. فقد ازدهرت الحركات الدينية في كل مكان تقريباً.

وفي العديـــد من المناطق في أميركا الوسطى والجنوبية، يتحدّى البروتستانت الإنجيليـــيون هيمـــنة الكنيسة الكاثوليكية التي ترجع إلى قرون عديدة. وفي الصين، تكـــافح السلطات المثقلة بإيديولوجية متقادمة للحؤول دون تحوّل الحركات الدينية والروحية المنتشرة بسرعة إلى تهديد سياسي. وتخضع الهوية الهندية كمجتمع علماني إلى تحدّ من القوميين الهندوس. وفي كل أنحاء الاتحاد السوفياتي السابق، دبّ النشاط في المؤســـسات الدينـــية الـــتي قد تعرّضت لقمع طويل. وتسعى الأحزاب الدينية الأرثوذكـــسية في إسرائيل إلى تحقيق مزيد من التأثير على القوانين والمجتمع. ويحلّ القومـــية العـــربية العلمانية التي اعتُقد فيما مضى أنها تجسّد المستقبل، حلّ الإسلام المنبعث الذي يتجاوز الأراضي العربية إلى إيران وباكستان ووسط وجنوب شرقي آسيا وأنحاء من إفريقيا. وتغير المسيحية أيضاً على آسيا وإفريقيا، حيث يوجد عشر من أكبر إحدى عشرة رعية في كوريا الجنوبية، وتوجد الأخرى في نيجيريا. ويغيّر انـــبعاث النـــشاط المسيحي أيضاً كيفية تفكيرنا في السياسة والثقافة في الولايات المـــتحدة. وخلافـــاً لملاحظة مايكل نوفاك قبل أربعة عقود، يتحدّث الناس الآن (ويتناقشون) عن الله طوال الوقت. بل حتى في أوروبا، التي تبدو لولا ذلك مستثناة مـــن الاتجاه نحو النموّ الديني، يرتفع عدد المسلمين الملتزمين بسرعة، وثمة بابا جديد - يُدعـــى بـــنديكت نورســـيا، شفيع القارة - مصمّم على إعادة دعوة سكانها المسيحيين إلى المسيحية.

مـــا الـــذي يـــستنتجه المرء من هذه الظاهرة؟ ما الذي يعنيه بالنسبة للذين يصمّمون السياسة الخارجية الأميركية وينفّذونها؟ وكيف يمكننا بأحسن الطرق أن نديـــر الأحداث في عالم يضمّ العديد من الأديان، وتتناقض فيه نظم المعتقدات في نقـــاط رئيسية تناقضاً تامّاً بعضها مع بعض؟ كيف نتعامل مع التهديد الذي يمثّله المتطرّفون الذين يحاولون، باسم الربّ، فرض إرادتهم على الآخرين؟ إننا نعرف أن طبـــيعة هـــذا الاختبار ترجع إلى الأزمنة الوثنية، وبالتالي فإنها ليست جديدة؛ أما الجديـــد فهـــو مقدار الدمار الذي يمكن أن يُلحقه العنف. وهذا هو المكان الذي أحـــدثت فـــيه التكنولوجـــيا فرقاً. فالحرب الدينية التي تخاض بالسيوف والدروع والمنجنيقات وكبوش الحصار شيء، والحرب التي تخاض بالمتفجّرات الشديدة ضدّ

أهداف مدنية شيء آخر تماماً. كما أن احتمال قيام الإرهابيين بتفجير قنبلة نووية خدمة للخالق القدير يشكل كابوساً قد يتحقّق في يوم من الأيام.

عندما غادرت الحكومة في سنة 2001، عدت إلى التدريس الجامعي، عشقي القديم. وفي جامعة جورجتاون، أعلّم مقرّراً واحداً في الفصل يتقلّب بين طلبة الدراسات العليا والطلبة غير المتخرّجين. وفي بداية كل مقرّر، أوضح لطلابي أن الغاية الرئيسية للسياسة الخارجية هي إقناع البلدان الأخرى بأن تفعل ما نريد. ولهذه الغاية، يوجد لدى الرئيس أو وزير الخارجية أدوات تتراوح بين القوة العسكرية الصريحة والعمل التفاوضي الشاقّ جيئة وذهاباً والاستخدام البسيط للمحاجّة المنطقية. ويتكوّن فن سياسة الحكم من إيجاد المزيج الذي يعطي أفضل النتائج. ويتطلّب ذلك بدوره فهماً واضحاً لأكثر ما يهمّ من نحاول التأثير عليهم. ويترجم ذلك بالنسبة لرجال الأعمال إلى "معرفة الزبون". ويعني في الشؤون العالمية، التعلّم عن البلدان والثقافات الخارجية، ولا يمكن القيام بذلك فيما تلفّ المشاعر الدينية العالم بدون أخذ المعتقدات والدوافع الدينية في الحسبان.

في الصفوف التي أعلّم، وفي نقاشاتي مع الأصدقاء والزملاء، أتوسّل بشكل متزايد الأفكار المتعلقة بتأثير الدين على الأحداث الحالية. في البداية يتفاجأ معظم الأشخاص، كما لو أنهم غير واثقين مما يفكّرون فيه، وبعد ذلك يتكلّمون بحرية. ولا يقود طلبي إلى مجموعة واحدة من النقاشات، وإنما إلى العديد. إنه بمثابة اختبار رورشاك[1]، يكشف الكثير عن شواغل (انشغال فكر) الذين يجيبون ومخاوفهم.

يميل طلابي إلى مساواة الدين بالأخلاق، ومن ثم يؤطّرون ردودهم بمصطلحات أخلاقية. إنهم يريدون أن يعرفوا لماذا لا يُفعل المزيد لمكافحة الفقر والمرض، ومنع الإبادة الجماعية، ومساعدة البلدان النامية على المنافسة في الاقتصاد العالمي. وفي أعقاب 11 أيلول/سبتمبر، كان العديد منهم متلهّفين للانضمام إلى الجيش أو وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه)، ويشعرون بدافع قوي للتطوّع، لكن الشعور لم يدُم طويلاً في معظم الحالات. أحدثت الحرب في العراق

(1) اختبار لإظهار مستوى الذكاء ونوع الشخصية والحالة العقلية، إلخ. سمّي نسبة إلى الطبيب السويسريّ هيرمان رورشاك 1884 - 1922. المترجم.

التباســاً بشأن حكمة السياسة الأميركية، وهل الهدف الأميركي هو قيادة العالم أو محاولــة الهيمــنة عليه. فالطلبة الأجانب الذين أعلّمهم مجموعة مشحونة بالمشاعر وبالتالي يعرضون مجموعة مختلطة من الآراء. فلا غرو أن يكونوا شديدي الانقسام حيال أسئلة تتعلّق بالخطأ والصواب في الشرق الأوسط.

يركّز أصدقائي الخبراء في السياسة الخارجية - وهم مجموعة أكبر سناً إلى حدّ مــا - على التهديد الذي يشكله المتطرّفون الدينيون، بما في ذلك احتمال حصول الإرهابــيين على أسلحة القتل الجماعي. وهم يشعرون أيضاً بخطورة فجوة الفهم القائمة التي انفتحت بين المجتمعات الإسلامية على الأغلب والغرب.

يــشارك القــادة العــرب الــذين تحدّثت معهم في هذا الخوف. كما أنهم منــزعجون من انتشار ما يعتبرونه تعميمات خاطئة ومضرّة بشأن الإسلام.

ويــشعر العلمــاء الدينيون الذين استشرتهم بانفعال شديد تجاه حاجة القادة الــسياسيين إلى تعليم أنفسهم عن ضروب الأديان وإلى رؤية الدين كوسيلة محتملة للمصالحة أكثر من كونه مصدراً للنــزاع.

ويــشعر الناشطون السياسيون، وليس الديمقراطيون فحسب، بالغضب بشأن تــأثير الــيمين الــديني علــى البيت الأبيض والكونغرس، وذلك موضوع يقلق الدبلوماسيين الأجانب.

تــوجد جــذور ردود أفعالي في هوياتي المختلفة، كفتاة من تشيكوسلوفاكيا، وأميركية فخورة جداً ببلدها المتبنى، ووزيرة سابقة للخارجية. لقد كان بطلي في طور الشباب توماس غاريغ ماساريك، مؤسس تشيكوسلوفاكيا الحديثة في سنة 1918. فقد أثّــر ماســاريك كثيراً في تفكير والدي وفيّ - من خلاله. فخلافاً لكثير من المتديّنين الذين يجدون الإنسانية بديلاً للإيمان بالله، وجد ماساريك أن الاثنين مرتبطان. فالإيمان الديني بالنسبة إليه عنى إظهار الاحترام لكل شخص والرغبة في مساعدة الآخرين. و لم يكن ماساريك يعتقد أن من الضروري الإيمان بالله لكي يكون المرء أخلاقياً، لكنه رأى أن المعتقد الديني، عند فهمه بشكل صحيح، يفعل الكثير للحضّ على السلوك الصحيح وتقويــته. ولديّ آراء مماثلة. ومما يفسد الدين تحويله إلى مصدر للنــزاع والكراهية، كما أن ذلك يحدث مشاكل حادّة لأميركا والعالم.

لقد حولني نشوئي في الولايات المتحدة إلى متفائلة راسخة التفاؤل، على الرغم من أنني شهدت الكثير من الاضطرابات في سني حداثتي. وكشابة أخذت الموضوعة الملازمة لي – بدون سخرية – من التعديل الذي أجراه ليونارد بيرنستاين على "كانديد": "كل شيء من أجل الأفضل في هذا العالم الأفضل من كل العوالم الممكنة". وخلال سني عملي في الحكومة، حافظت على مظهري المتفائل. وكنا في إدارة كلينتون نتحدّث كثيراً عن القرن الواحد والعشرين وينتابني شعور مميز بالثقة بأن بوسع أميركا، مع البلدان الأخرى، إيجاد حلّ لمعظم المشاكل. ولا يزال لديّ هذا الشعور، لكنني قلقة من ارتكابنا بعض الأخطاء الخطيرة التي يمكن اجتنابها.

ثمة أيام الآن يصعب فيها التقاط جريدة يومية. وأعتقد أن الحكومة الأميركية أفسدت تماماً ردّها على الإرهاب الدولي، وألحقت الضرر بسمعة أميركا، وأحلّت الشعارات محلّ الاستراتيجية في الترويج للحرية. لكنني أقرّ بملء إرادتي بصعوبة المشاكل التي تواجهها إدارة بوش وتعقيدها. وطالما قلت إن من لم يتقلّد أرفع المناصب في الحكومة لا يدرك مقدار صعوبة القيام بأعباء هذه المناصب، وإن من يستقاعد منها يميل إلى النسيان بسرعة. وعلى المنتقدين أن يكونوا منصفين وأن يقدّموا الأفكار البناءة. هذه هي غاية هذا الكتاب. يتناول القسم الأول الموقف الأميركي في العالم والدور الذي يلعبه الدين والأخلاق في صياغة السياسة الخارجية الأميركية، الآن وفي الماضي على السواء. ويركّز القسم الثاني على العلاقات المضطربة بين المجتمعات الإسلامية والغرب. ويعرض القسم الثالث أفكاري بشأن أفضل السبل لتلاقي السياسة الخارجية الأميركية والدين. وتماشياً مع طبيعتي، فإن غرض الفصول في الدرجة الأولى هو صنع السياسة العملية – أي القيام بما يعمل بالشكل الأفضل. وتماشياً مع طبيعة الدين، يهيمن عليها في بعض الأحيان مطلبٌ موازٍ – القيام بما هو صحيح. وغايتي النهائية هي تحديد نقطة التقاء الاثنين كما يجب بالنسبة لصناع سياسة أمة سعت، منذ أيامها الأولى، لأن يحكم عليها من خلال عظمتها ومُثلها على السواء.

الفصل الثاني

عيون الناس جميعاً شاخصة إلينا

بعـــد ستّ سنوات من وصول عائلتي إلى هذا البلد، درست أول مقرّر كامل عـــن التاريخ الأميركي كطالبة في السنة الثانوية الثانية. في ذلك الوقت الذي يتميز بالبساطة، كنا نتعلّم أنا وزملاء صفّي رؤية إيجابية أكثر اتساقاً عن ماضي أميركا مما يـــتعلّمه الطـــلاب الآن: قـــصّة رجال ونساء محبّين للحرية يتغلّبون على العقبات ويكافـــأون بالتوصّـــل إلى نهاية سعيدة لكل أزمة. كانت بالنسبة إليّ قصّة مدهشة أضـــفى علـــيها المكـــان الذي أعيش فيه - كولورادو - مزيداً من الواقعية. ففي الغرب، كانت الولايات أكبر من العديد من البلدان الأوروبية، والجبال مرتفعة جداً بحيث تعجّبنا كيف تمكّن المستوطنون الأوائل من عبورها. استهواني التاريخ، وكان مـــن أسباب رغبتي الشديدة بأن أقبلَ كأميركية. عندما أنظر إلى الوراء، لا أذكر تخـــصيص ســـاعات كثيرة لدراسة الدين في الولايات المتحدة، لكننا بدأنا بالطبع بقـــصّة أوائل القادمين من أوروبا، الأشخاص الشجعان الذين قاموا برحلة طويلة تكتـــنفها المـــصاعب بحثاً عن مكان يمارسون فيه معتقدهم بحرية، دون تدخّل من الحكومة.

• • •

كـــتب جـــون وِنثـــروب، حاكم مستعمرة خليج ماساشوستس، في سجل يومـــياته على متن السفينة في العام 1630 أن المجتمع الذي كان يوشك أن يؤسسه مع زملائه البيوريتانيين سيكون "مدينة على تلّة تشخص إليها عيون الناس أجمعين"[1].

---

(1) عبارة وِنثروب مستمدّة من إنجيل متى 14:5: "أنتم نور العالم. لا تخفى مدينة على جبل". وقـــد أخـــذ هـــذا المقطع من عظة "نموذج المحبّة المسيحية" التي ألقاها وِنثروب على متن السفينة قبل مغادرة البيوريتانيين إنكلترا. وعندما وصل إلى ماساتشوستس، اعتبر أنه معتدل إلى حدّ ما. فقد عارض مثلاً اقتراحات بعض البيوريتانيين بأن ترتدي نساؤهم الحجاب.

وكان البيوريتانيون يعتقدون بأن الله، إذا شاء، فستصبح المستعمرة الجديدة نموذجاً لكيفية الحياة حياة دينية. فقدموا إلى العالم الجديد ليهربوا من حكم الله على الكنائس الفاسدة في أوروبا، ويجدوا ملاذاً من الفقر والاكتظاظ السكاني في إنكلترا، وإطاعة أوامر الخالق بنشر تعاليم المسيح.

كان مجتمعهم مستنداً إلى فهم معين لإرادة الله، ومعتمداً على رضا الله، ومتلهّفاً للاستمتاع بخيرات الأرض، لكنه حريص على عدم التعلّق كثيراً بمتاع الدنيا. ولحماية عفّتهم، استبعدوا من مجتمعهم من لا يتوافق تفكيرهم مع أفكارهم المتشدّدة.

وعند حدوث الثورة الأميركية، كان المتحدّرون المباشرون من البيوريتانيين أقلية صغيرة. وكان البروتستانت الهولنديون قد استقرّوا في نيويورك. وكان قد أنشأ وليم بن مجتمع الأصدقاء (فرندز) في بنسلفانيا. وكان قد أنشأ الكاثوليك مريلند وأطاح هم البروتستانت في نهاية المطاف - في انعكاس بعيد للحرب الأهلية في إنكلترا. وكانت فرجينيا بقيادة المزارعين الضليعين في النظريّات الأوروبية الأحدث عن الطبيعة الشاملة لحقوق الإنسان - وتلك مفارقة بالنظر إلى أنهم كانوا يمتلكون عبيداً. وكان يقطن أميركا، وقد أصبحت نقطة جذب للمهاجرين، أتباع العديد من المعتقدات والمذاهب. ولأن المؤسسين أدركوا ما فعله النزاع الديني في أوروبا ورأوا أصداءه في تاريخهم الاستعماري، فقد اعتنقوا مفهوم الحرية الدينية. فنصّ الدستور الأميركي في فقرته السادسة على "عدم ضرورة أي اختبار ديني كشرط تقييدي لأي منصب أو أي مؤسسة عامة في الولايات المتحدة". ووصل قانون حقوق الإنسان إلى حدّ حظر التأسيس رسمياً لدين ما أو أي حرمان لحقّ العبادة. وفي هذا المشروع، لا تستطيع أي من الدولة أو الكنيسة السيطرة أو إلحاق الضرر بالأخرى.

لم أفكّر كثيراً في الفلسفة الدينية للمؤسسين إلى أن بدأت بإجراء الأبحاث المخصّصة لهذا الكتاب، فقد كنت أعتبرهم منظّرين سياسيين بالدرجة الأولى - لا روحيين. غير أنهم فكّروا عميقاً بشأن الدين. فالرؤساء الأوائل، على سبيل المثال، كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بالخالق، لكنهم غير متشبّثين بالنقاط الدقيقة للمعتقد

الكنسي. وقد أقرّ جورج واشنطن في خطاب تسلّمه الرئاسة الأول بنعمة الله بقوله إن كـل خطوة خطتها أميركا "كانت محفوفة بدلالة رمزية على الرعاية الإلهية". وتعّهـد بتقديم الشكر على هذه النعمة بضمان "أن يكون أساس سياستنا الوطنية قائماً على المبادئ الصافية للأخلاق الشخصية التي لا تتبدّل". والأهمّ من ذلك أنه وضـع مثالاً للإدارات اللاحقة من خلال التأييد الشديد للتسامح الديني. وتنصّل واشـنطن من أي اهتمام بما إذا كان الناس "محمّديين أو يهوداً أو مسيحيين من أي طائفة، أو ملحدين". وكان همّه الوحيد أن يكون لديهم الحقّ بممارسة حرية العبادة والتعبير والفكر. وفي سنة 1790، في رسالة إلى الرعية اليهودية في نيوبورت، كتب واشـنطن مطمئـناً، "إن الحكومة الأميركية لا تقدّم للتعصّب أي إذن (مرسوم)، وللاضطهاد أي مساعدة".

كـان مؤسـسو أميركا يعون أنهم يبنون شيئاً جديداً وغير عادي - نظام حكـم قـائم علـى حقوق الأفراد وواجباتهم. وذلك هو المفهوم الذي أثّر في الـتفكير الـسياسي في العالم. رأى الأميركيون أنفسهم أنهم يؤسسون مجتمعاً متفوّقاً في التنظيم والأخلاق على الأرستوقرطيات المضمحلّة في أوروبا. وقارنوا أنفـسهم بـدون تحفّـظ بالإسرائيليين القدامى كشعب اختارته العناية الإلهية للمشاركة في وضع خطة إلهية. فاقترح بنجامين فرانكلين أن يصوّر الخاتم العظيم لهـذا الـبلد الفتيّ الإسرائيليين وهم يعبرون مياه البحر الأحمر المقسمة وموسى رافعـاً عـصاه، فـيما جنود فرعون على وشك أن يغرقوا[1]. واقترح توماس جيفرسـون أن يظهـر الخاتم أبناء إسرائيل في التيه، "تقودهم غمامة في النهار ولـسان من لهب في المساء". لقد كان من الطبيعي بالنسبة للأميركيين في ذلك الـوقت ربط حرّيتهم بالحرية التي حصل عليها موسى، وأرضهم الجديدة الخيرة بـالأرض الموعـودة لليهود، والتزامهم بأن "الناس جميعاً ولدوا سواسية" بخلق الإنسان على صورة إله إبراهيم.

(1) كـان فرانكلين نصيراً مميزاً للتسامح الديني. فقد جمع الأموال في فيلادلفيا لإنشاء قلعة عامة متاحة أمام أي واعظ لأي دين انتمى. وقال، "لو أن مفتي إسطنبول أراد أن يرسل إلينا مبشراً بدين محمّد، لوجد منبراً في خدمته".

في العقـــود الأولى من الاستقلال الوطني، تنامى بسرعة اعتقاد الأميركيين بأن بلادهـــم حظـــيت بـــنعمة خاصة من الله. فعلى الرغم من التراجعات الاقتصادية الدوريـــة وقـــيام البريطانيين بنهب البيت الأبيض في سنة 1812، كانت الولايات المـــتحدة تـــضجّ بالنشاط والحركة وتكاد تتفجّر من فرط الحيوية. فشراء لويزيانا، وحملة لويس وكلارك، وضمّ تكساس واكتشاف الذهب في كاليفورنيا، كل ذلك دفع الأميركيين دون هوادة نحو الغرب. وفي أثناء تقدّمهم، كانوا يبنون مؤسسات ديمقـــراطية يعـــتقد أنها تابعة لجمهورية نموذجية. وأصبح شعار الأمة الاعتماد على الـــنفس، وحرية المبادرة، وتساوي الفرص. ربما كانت روح التخوم قاسية، لكنها نـــشأت أيـــضاً بفعـــل الحيوية والتفاؤل. وكتب ألكس دي توكفيل، بعد رصد الأميركـــيين في أثـــناء العمل والعبادة واللهو في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، "أن أميركـــا أرض العجائـــب، كـــل شيء فيها في حركة دائمة، وكل تغيّر ينمّ عن التحسّن... ولا يبدو أن هناك حدّاً طبيعياً تقف عنده جهود الإنسان، وما لم ينجزه الإنـــسان إنما هو ما لم يحاول القيام به". ورأى جورج بانكروفت، المؤرّخ المعاصر لتوكفـــيل والأكـــبر منه سناً، أن التعبير عن الإرادة العامة التي أتاحتها الديمقراطية الأميركـــية ينـــسجم انسجاماً فطريّاً مع غاية الله. إن "تذليل الحدود" يعني توسيع المجـــال الذي تصل إليه الحضارة. وكانت الحركة نحو الغرب، كما قال الصحافي جون أوسوليفان، مقدّرة لتحقيق "المصير الواضح" لأميركا[1].

لم يفسّر الجميع الإرادة الإلهية بالطريقة نفسها بطبيعة الحال. فقد حذّر بعض الـــزعماء الدينيين الأميركيين الأصليين أتباعهم من عدم توقّع أي مكافأة في الحياة الآخـــرة مـــا لم يرفضوا العادات اللاأخلاقية للبيض ويعودوا إلى الطرق التقليدية. وذلـــك يعني نبذ الكحول والأسلحة، والاعتماد على القوس والنشّاب، والمحافظة على معتقدات أسلافهم الروحية. وكان من بين التقليديين رد جاكت، أحد زعماء

(1) وفقاً لسوليفان (في "دموكراسي ريفيو"، تموز/يوليو 1845)، فإن ما يبرّر مطالبة أميركا بأوريغـــون في ذلك الوقت هو "حقّنا القدريّ الواضح بالانتشار وامتلاك كل أنحاء القارة التـــي منحتـــنا إياهـــا العناية الإلهية من أجل التجربة العظيمة للحكومة الذاتية الليبرالية والفيدرالية التي ائتمنا عليها".

قبيلة سنيكا الذين اشتكوا من قيام الإرساليّات المسيحية بالتبشير في أوساط الهنود: "يا أخي، أنت تقول إن هناك طريقة واحدة فقط لعبادة الروح الكبرى وخدمتها. إذا كـان هناك دين واحد، فلماذا يختلف البيض بشأنه كثيراً؟ ... نحن لدينا دين أيضاً... وهو يعلّمنا أن نكون شاكرين لكل النعم التي تتلقّاها، وأن نحبّ بعضنا بعضاً ونتوحّد. إننا لا نتشاجر البتّة بشأن الدين. يا أخي، إننا لا نريد أن ندمّر دينك أو نأخذه منك. إننا لا نريد سوى أن ننعم بديننا".

أدّت المعاملـة المخزية للأميركيين الأصليين إلى البحث عن الروح في أوساط المفكّرين، لكـن الرقّ هو الذي مزّق البلاد. فقد توسّل دعاة إلغاء الرقّ ومالكو الأرقّـاء على السواء اسم الله في المحاجّة لصالح قضيّتهم. فقال الجنوبيون إن الإنجيل يجيز الرقّ، وأصرّ معارضوهم على أن الرقّ بغيض ومستنكر. وفي مجلس الشيوخ، شُـرع في معالجـة المجادلـة من قِبل جون كالهون، وهو مزارع مالك للعبيد من كارولينا الجنوبية، وتشارلز سمنر من ماساشوستس، وكانت ولاية ليبرالية ولا تزال. فبدلاً من التوفيق بين الرقّ وإعلان الاستقلال، تجرّأ كالهون على شجب المبدأ الذي قامت عليه أميركا. فقد شدّد على أن الناس لم يخلقوا جميعاً. فوفقاً للتوراة (الكتاب المقـدس)، لم يُخلـق سوى اثنين، رجل وامرأة، وقضي بأن يكون أحدهما تابعاً للآخر. وجاء الآخرون جميعاً إلى العالم عن طريق التوالد... وهم ليسوا أحراراً أو متسـاوين بـأي حـال من الأحوال". أما سمنر فقد اعتلى منبر مجلس الشيوخ في أيـار/مايـو 1856 ليلقي خطاباً استمرّ يومين كاملين. وأعلن، مشيراً إلى المشرّع المؤيّد للرقّ:

> ما أقلّ ما يعرف ذلك السناتور عن نفسه أو عن قوة قضية [دعاة إلغاء الرقّ] التي يهاجمهـا. إن هـو إلا رجل فانٍ، يواجه مبدأ لا يفنى. وبقوّته المحدودة يصارع اللامتناهـي، ولا بـدّ من أن يسقط. إنه يواجه كتائب أقوى من أي كتيبة يقودها رجـل فانٍ – مشاعر القلب الإنساني الفطرية التي لا تمحى ولا تقهر. إنه يواجه الطبيعة بكل قواها الماكرة، إنه يواجه الله. وليحاول أن يخضع هذه القوى!

وخـلال عقـود التوسّـع والحـرب والازدهار الاقتصادي والإخفاقات الصاخبة، انبثق الاقتناع بأن الله ينير مسار أميركا ومصيرها. وبقي هذا الاعتقاد

منتشراً فيما اقترب القرن العشرون وتجاوزت قدرة البلد وطموحاته الحدود الأميركية المستقرّة الآن إلى الأماكن البعيدة في المحيط الهادئ. وفي سنة 1898، أبلغ وليام مكنيلي مجموعة من رجال الدين الميثوديين في معرض شرح فتوحات إدارته في الفيليبين:

الحقيقة هي أنني لم أكن أريد الفيليبين، وعندما قدموا إلينا، كهبة من الآلهة، لم أكن أعرف ما الذي أفعله بهم... كنت أذرع أرض البيت الأبيض كل ليلة حتى منتصف الليل؛ ولا يعيبني أن أبلغكم أيها السادة أنني ركعت على ركبتي ودعوت الله القدير أن ينير دربي ويهديني سواء السبيل... وذات ليلة اهتديت إليها... لم يتبقّ لدينا سوى أن نأخذهم جميعاً، وأن نعلّم الفيليبينيين، ونرفع معنويّاتهم ونحضّرهم وننصّرهم.

ربما كان التاريخ مختلفاً جداً لو لم نكن نميل إلى الاستماع إلى الله بوضوح شديد عندما يبلغنا بالضبط بما نريد أن نسمعه. لقد أحبّ مكنيلي أن يفهم توسّع القدرة الأميركية كجزء من خطة إلهية، لكن على الرغم من أن الحرب على إسبانيا كانت ناجحة وسريعة، فقد تبين أن إحكام السيطرة على الفيليبين صعب وبطيء. فكثير من الفيليبينيين، حتى الذين "نصّرتهم" إسبانيا المسيحية منذ مدّة طويلة، لم يستقبلوا محرّريهم فاتحين أذرعهم وإنما شاهرين أسلحة فتّاكة. فقد احتدم التمرّد على الاحتلال الأميركي لمدّة أربع سنوات، ما شكل دهشة كبيرة للأميركيين. وقالت إحدى الصحف الأميركية البارزة في افتتاحيّتها، "يبدو مستغرباً أن يعارض الفيليبينيون – أو كثير منهم – سيادتنا بمرارة. يجب أن يعرفوا أن من المرجّح أن يكون ذلك تحسّناً كبيراً على الأوضاع السابقة... مع ذلك فإنهم يقاتلوننا. إن الوضع محزن من وجهات النظر كافة". وقد زاد عدد الذين سقطوا قتلى من سكان الجزر عندما توقّفت المقاومة على 100.000.

هل كان ذلك إمبريالية؟ لا بحسب المسؤولين عن السياسة. ففي أثناء حملة تيودور روزفلت ليصبح نائب الرئيس مكنيلي، أبلغ روزفلت جمهوراً من الحاضرين في يوتا، "لم أقابل إمبريالياً واحداً في البلد حتى الآن". وعرض أحد أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين البارزين، هنري كابوت لودج هذا التفسير:

"لا أعتقد أنه يوجد شيء اسمه 'إمبريالية'، لكنني أميل بوضوح إلى الرأي القائل بوجـــود شيء اسمه 'توسّع'، وأن على الولايات المتحدة أن تسيطر على بعض البلدان التابعة البعيدة".

امتزج الدافع الإرسالي، أياً كان اسمه، بمزيد من الاعتبارات الدنيوية. عند مـــنقلب القـــرن العشرين، اشتُهر السِناتور الشاب ألبرت جيريمايا بفرِدج، من إنديانا، بسبب خطبة "زحف العَلَم" التي كرّرها في المناسبات العامة وعلى منبر مجلس الشيوخ. فقد قال مهلّلاً، " الفيليبين لنا إلى الأبد، وخلفها مباشرة توجد أســـواق الصين غير المحدودة. لن ننسحب منها... ولن نتخلّى عن أي فرصة في الـــشرق. ولن نتنازل عن دورنا في الرسالة التي عهد بها الله إلى عِرقنا بتحضير العـــالم". لم يكن بفرِدج Beveridge يفتقر إلى الطموح الذي يريده لبلده، أياً يكـــن مـــا يمكن قوله سوى ذلك، حيث قال، "إن معظم الحروب في المستقبل ســـتكون نـــزاعات على التجارة. لذا فإن القوة التي تسيطر على المحيط الهادئ هـــي القـــوة الـــتي ستحكم العالم. وبوجودنا في الفيليبين، فإن تلك القوة هي الجمهورية الأميركية وستبقى إلى الأبد".

كانـــت مثل هذه المواقف معهودة في ذلك الزمن ويجب ألا تفاجئنا. فقد كـــان في الـــنهاية عصر الاستكشاف والحيازة والحماسة. كان البريطانيون قد تحمّلـــوا ما أشار إليه كِبلنغ Kipling بأنه "المسؤولية الملقاة على البيض" لنشر المـــسيحية والتعليم في شبه القارة الهندية وإفريقيا. وشرع الفرنسيون في مهمة تحـــضير لنـــشر فـــوائد ثقافـــتهم في أوساط الأفارقة والعرب. وكان للإسبان والبلجيكـــيين والـــبرتغاليين والهولـــنديين ممتلكات فيما وراء البحار. وعندما اســـتولت الـــولايات المـــتحدة على الفيليبين، فإنها أعلنت في الواقع دخولها في صفوف قوى العالم.

على الرغم من ترحيب معظم الأميركيين بمكانتهم الجديدة، فإن بعضهم اعتبر ذلك نفاقاً قائماً على سوء قراءة الكتاب المقدّس وسوء فهم المُثُل الأميركية.

وهكـــذا لاحـــظ المـــؤرّخ تشارلز فرانسيس آدمز، ابن حفيد الرئيس الثاني، بازدراء:

رجال الدين يتمسكون بفكرة الواجب، ونحن لدينا رسالة، إنها دعوة مميزة من الإله القدير. إنهم يريدون الخروج [ليصدّروا] نِعَم الحرية وتعاليم المسيح التي تــنعم بها هذه الأمة العظيمة إلى الأعراق الدنيا، التي تنتظرنا لكي نخلّصها – لكن علينا ألا ننسى أن نأخذ معنا الكثير من البنادق لنبعد عن قطيعنا الأعراق العلــيا الأخرى، كل الذئاب التي ترتدي ثياب الحملان. فهي تلتهم القطيع أما نحــن فلا. لا – تلك الأفكار تشاؤمية؛ يجب أن يكون لديك ثقة أكبر بالشعب الأميركي! مثل هذا الرياء يثير اشمئزازي.

تــشكلت الــروابط المناهضة للإمبريالية في العديد من المدن الأميركية، لكن اســتمرّ ازدهار الإحساس بالرسالة الأميركية، ومردّ ذلك جزئياً أنه تجسّد في مزيد مــن الــسفن الحربية والتجارية. فتزايدت أعداد الأميركيين المتديّنين الذين وجدوا دافعاً إلى تشارك معتقدهم مع شعوب الأراضي النائية. وفي أوائل القرن العشرين، أنشئت عشرات الآلاف من الإرساليّات التبشيرية الأميركية في البلدان الأجنبية. إنها جــاءت من كل طائفة مسيحية، وضمّت في صفوفها تمثيلاً كبيراً لحركة بدأت في الــولايات المتحدة، كنيسة عيسى المسيح لقدّيسي اليوم الآخر، وهي معروفة باسم المورمونيين. وحملت الإرساليّات معها الأخبار الطيبة عن تعاليم المسيح وتأثير القيم والــثقافة الأميركــية على إحلال الديمقراطية. وكان المبشّرون من أوائل الخبراء في العادات الأجنبية وأوّل من تعلّم اللغات الأجنبية. ورفعت رسائلهم إلى الوطن من اهــتمامات إخوانهم في الأبرشيّات ببلدان لم يكن يفكّر فيها سابقاً سوى قليل من الأميركــيين. فــلأول مرّة يبدأ أناس من أماكن مثل نيويورك ونبراسكا وكارولينا الــشمالية بالــضغط على واشنطن للاعتراف بحقوق الإنسان (حماية المتحوّلين إلى المسيحية)، وتأييد ارتفاع معايير الأخلاق التجارية (منع استغلال العمّال)، واتباع سياسة خارجية أخلاقية (للاحتجاج على تجارة الأفيون الصينية).

يقوم فصل الدين عن الدولة على ثلاثة لاءات: عدم إجراء اختبارات دينية لشغل الوظائــف العامــة، وعدم وجود دين محدّد للدولة، وعدم تقييد الحرية الدينية. هذه المبادئ ضرورية لديمقراطية أميركا ولهويتها كدولة. دعنا نأمل أنها لن تُخرق أبداً. لكن عــند التعبير عن تلك الرغبة، علينا الاعتراف بأن مثل هذا الفصل لا يتطلّب إبعاد الله

عـــن الحـــياة المدنية أو العملة أو النقود المعدنية أو الأغاني الوطنية أو الخطاب العام في الـــولايات المـــتحدة و لم يؤدِّ إلى ذلك. وينعكس هذا الواقع على عمق الجذور الدينية الأميركية والقاعدة العامة للسياسة الأميركية: يمكن فصل الدين عن الدولة، لكنه يرتبط ارتـــباطاً وثيقاً بكيفية الحكم على القادة. وكما كتب ميكافيلّي في سنة 1505، "يجب علـــى الأمير... أن يبدو متحلّياً بالرحمة والإيمان والاستقامة والإنسانية والدين. وليس هناك شيء ضروري أكثر من أن يبدو متحلّياً بهذه الصفة الأخيرة"[1].

وجد كل رئيس، من جورج واشنطن إلى الرئيس الحالي، أن من المناسب ذكر الله في ســـياق ما في خطاب حفل التنصيب. وعبّر معظمهم عن الشكر على النعم التي وهبت بها أميركا. ورأى كثير منهم أن الله سيواصل تأييده الولايات المتحدة ما دامـــت سياســـاتها أخلاقية وعادلة. وقاد العديد منهم الأمة في الصلاة في أوقات الأزمـــات الوطنـــية. ووجد بعضهم سبباً لبحث طبيعة إيمانهم الديني في المناسبات العامة. فقد ذكر الرئيس كُولِدج مسيحية أميركا كإثبات على نواياها الحسنة ("إن الفـــيالق التي ترسلها تحمل الصليب لا السيف سلاحاً") وأعلن أن تنصير الإنسانية هـــو الغاية الوطنية لبلده ("إن الدولة العليا التي تسعى [أميركا] إلى الحصول على تأييد كل البشر لها ليست ذات أصل إنساني وإنما إلهيّ").

إن الأفراد، لا الأمم، هي التي صنعت على صورة الخالق، لكن الصورة الذاتية لأميركا طالما تأثّرت بالشعور – ضعيف أحياناً وقوي في أحيان أخرى – بأنها أداة الـــسماء. وكما نبّه الرئيس رونالد ريغان، "إذا طرحتم الإيمان بمستقبل أفضل، لا يمكـــنكم تفسير أميركا – إننا شعب آمن بوجود أرض موعودة، وإننا شعب آمن بأن الله اصطفانا لإنشاء عالم أعظم".

لم يحـــدد ريغـــان كيفية إنشاء هذا العالم، ولكن الجواب الذي أعطاه معظم القادة الأميركيين هو "الحرية".

في التعالـــيم المسيحية تقارن ملكوت السماوات بحبّة خردل وخميرة: الأشياء الصغيرة التي تنمو. وقد أظهر مؤيّدو التعاليم الأميركية إيماناً مماثلاً بالمُثل الديمقراطية.

---

(1) يقـــول شيئاً عن حالة الكنيسة المسيحية في زمن ميكافيلّي حيث كان الكاتب يقدّم النصح إلى الأمير سيزار بورجيا الذي كان والده البابا الإسكندر السادس.

فقبل وفاة جيفرسون بوقت قصير، كتب بأن النظام الديمقراطي سيعمّ في كل أنحاء المعمورة "عاجلاً في بعض الأنحاء، وآجلاً في بعضها الآخر، ولكن في كلّ الأنحاء في نهاية المطاف". في البداية كان الأميركيون واثقين بأن حسنات الديمقراطية واضحة بشكل كاف بحيث يتبنى الآخرون هذا النظام دون حاجة إلى دفع من الولايات المتحدة. وطوال القرن التاسع عشر، كان البلد متردّداً على أي حال في توريط نفسه بعمق في شؤون الآخرين. فكان قد حذّر جورج واشنطن من الدخول في أحلاف دائمة، وكان قد أعلن جون كوينسي آدامز أن على أميركا أن تتمنى الحرية في كل مكان، وألا تدافع سوى عن حريّتها. غير أن القرن العشرين جاء بمجموعة جديدة من الظروف والضرورات. فقد حل الفحم أولاً ثم النفط محلّ الريح كمصدر للطاقة، وأصبح عبور الأطلسي أمراً معتاداً، ثم جاءت الطائرات. وأصبح العالم صغيراً فيما توسّعت المصالح الأميركية. فبالإضافة إلى الفيليبين، بدأت الولايات المتحدة تتدخّل على مقربة من الوطن لحماية مصالحها الاقتصادية، ورعاية الحكم الصالح في المكسيك وكوبا وهاييتي ونيكاراغوا وجمهورية الدومينيكان. ووجدت أميركا نفسها غير قادرة أيضاً – على الرغم من الجهود المضنية – على حماية أمنها بالتزام الحياد في النزاعات الأوروبية. وعندما واجهت ضرورة انتزاع الأميركيين من بيوتهم والزجّ بهم في أتون حرب على بعد آلاف الأميال عبر البحر، كان من الطبيعي بالنسبة للقادة الأميركيين أن يعرّفوا المخاطر بأوضح المصطلحات.

قال وودرو ولسون في رسالة الحرب في سنة 1917، "سنحارب من أجل الديمقراطية، من أجل الذين يخضعون للسلطة ليكون لهم صوت في حكوماتهم، من أجل حقوق الأمم الصغيرة وحرّياتها، من أجل السيادة العامة للحقّ لدى مجموعة من الشعوب الحرّة التي تحلّ السلام والسلامة في كل الأمم وتجعل العالم نفسه حرّاً في النهاية". وفي أعقاب الحرب، امتدح الجنود الأميركيين لإحرازهم النصر: "لقد كان هؤلاء الرجال مقاتلين في سبيل قضية عليا. لم يذهبوا إلى الحرب لإثبات قوة الولايات المتحدة. بل مضوا إليها ليثبتوا قوة العدل والحقّ، وقبلهم العالم بأسره كمقاتلين في سبيل قضية، وقد أدّى إنجازهم العظيم إلى إيمان العالم بأميركا كما لم يؤمن بأي أمة أخرى منظمة في العالم الحديث".

ربمــا تبدو مثل هذه المزاعم عبارات جوفاء صادرة من بعيد، لكن كان لها وقع الحقــيقة لــدى العديد من شعوب الأمم الصغيرة في ذلك الوقت. وفيما كان القادة الأوروبــيون مــتلهّفين لتقسيم مغانم الحرب في الشرق الأوسط وسواه، كان ولسون يناصر الديمقراطية وحقّ كل أمة في تولّي مصيرها بنفسها. وقد ولدت تشيكوسلوفاكيا نتــيجة نفــوذه إلى حدّ كبير، وصمّمت مؤسساتها على غرار المؤسسات الأميركية. وعــندما كــنت صغيرة، تعلّمت أن أنظر إلى ولسون على أنه بطل يعكس مُثُل بلد مخــتلف عن غيره من البلدان، أمة ذات قدرة هائلة ومع ذلك تؤمن بأن العالم يجب أن يحكمه القانون لا السيف. كان ولسون عنيداً ومفتقراً إلى الحنكة السياسية، لكنه فعل الكــثير لــصقل سمعة أميركا كمنارة للحرية والعدالة. وأصبح من المعتاد السخرية من خطّته المثالية لإنشاء عصبة الأمم، لكن تبين أن تحذيره – بأن حرباً عالمية ثانية ستكون محتومة إذا لم تنضمّ أميركا إلى العصبة – ينمّ عن بصيرة ثاقبة.

أظهــرت الحــرب العالمية الثانية، التي خيضت على جبهتين، متبوعة بالحرب الباردة ضدّ الشيوعية، أن أميركا هي النصير الأبرز للديمقراطية. وتجسّد هذا الدور بشكل لا يُنسى في تعهّد جون كنيدي أثناء تنصيبه "بدفع كل الأثمان، وتجشّم كل الأعــباء، ومواجهة كل الصعاب، ودعم أي صديق، والتصدّي لأي عدوّ، لضمان بقاء الحرية ونجاحها". وأقرّت القصيدة التي أعدّها روبرت فروست ولم يتمكّن من قراءتها برسالة أميركا:

نشاهد كيف تحتشد الأعراق بعزم وجدّ
في سعيها لتحقيق السيادة على البلاد.
نعتقد أننا أوصياء عليهم إلى حدّ ما
في الوقت الحالي وبموافقتهم
لكي نعلّمهم معنى الديمقراطية.
هل قلنا "النظام الجديد للعصور"؟
إذا لم يبدُ شديد التنظيم اليوم،
فذلك عائد إلى التباس تسبّبنا به منذ البداية
ويجب أن يشاركوا فيه بإقدام.

هـــناك بالطبع من يرى أن أي حديث عن رسالة أميركية لصالح الأخلاق أو الديمقراطية هراء خطير. ويفهم فيما وراء البحار أن ثمة مزاعم عالية لدى الولايات المـــتحدة. لكـــن لا يوجد إجماع على أن أفعالها تقوم على حسابات جديرة أكثر بالاحترام من حسابات الأمم الأخرى. فزعماء كل البلدان يفاخرون، وذلك جزء من توصيف وظائفهم. ويقول المشككون إن الفارق بالنسبة للأميركيين هو ميلهم إلى الإيمـــان بخطابهم. وفي هذه الرؤية المعارضة، لا تشكل أميركا أي استثناء لأي شـــيء، بـــل هي مجرّد أمة أخرى بين كثير من الأمم – على الرغم من أنها أكبر وأقـــوى. ربمـــا يدّعي الأميركيون أو يريدون أن يعتقدوا خلاف ذلك، لكن بلدنا يـــستجيب للمخاطر والفرص بالطريقة نفسها والدرجة نفسها من المصلحة الذاتية العملية التي يستفيد بها الآخرون. إن غاية السياسة الخارجية لأي حكومة هي حماية الرفاه الاقتصادي والأمن المادي لمواطنيها، وما ميل قادتنا إلى تمويه مصالحهم الضيّقة بخطاب عن القيم العامة إلا انعكاس لرغبتهم في الظهور بمظهر أفضل مما هم عليه، وإدامة الخرافة بأن أميركا مميزة. وعلى مقربة من الوطن، حذّر جورج كينان من أن ميل الأميركيين إلى رؤية أنفسهم "كمركز للتنوير السياسي وكمعلّمين لقسم كبير مما تبقّى من العالم غير حكيم وتبجّح وغير مرغوب فيه".

إنني أميل إلى استسخاف من يرون أن أميركا ليست بلداً استثنائياً. ويمكنني أن أشير إلى إعلان الاستقلال، والدستور، وإعلان حقوق المواطنين، وخطبة غتيسبرغ[1]، ودور الـــولايات المـــتحدة في الحربين العالميتين، ومثال أميركا كديمقراطية متعدّدة الأعـــراق والإثنـــيات وأطرح السؤال التالي: هل هناك بلد مماثل؟ هناك قليل من الـــبلدان المماثلة حجماً، وبعضها حرّة مثلها، ولكثير منها صفات تثير الإعجاب، لكـــن ليس لأحدها التأثير الإيجابي الإجمالي نفسه على تاريخ العالم ولا يرتبط أي منها بوضوح بإتاحة الفرص والحرية.

هل يعني ذلك أنني ممن يؤمنون بأن الولايات المتحدة تحمل رسالة نشر الحرية في كل أنحاء العالم؟ لا. فأنا لا أشعر بالارتياح لهذه الفكرة، كما لو أن هدف بلدنا

(1) خطـــبة ألقاها الرئيس أبراهام لنكولن في احتفال افتتاح المقبرة الوطنية في ميدان معركة غتيسبرغ التي وقعت في الحرب الأهلية في تشرين الثاني/نوفمبر 1963. المترجم.

تمليـــه قوة خارجية ما – الله أو العناية الإلهية أو الطبيعة أو التاريخ. غير أنني أؤمن مــبدأ توقّــع الكـــثير ممـــن أوتي الكثير. فالولايات المتحدة بلد ذو موارد وفيرة، ومنجـــزات مشهودة، وقدرات فريدة. وعليها تقع مسؤولية القيادة، لكن علينا في أثـــناء أداء هذا الواجب أن نضع نصب أعيننا بأن الحرية، بمعنى الإرادة الحرّة على الأقـــلّ، هبة من الله لا منة منا. كما أنها محايدة أخلاقياً، إذ يمكن استخدامها لأي غاية سواء أكانت صالحة أم طالحة. الديمقراطية، بالمقابل، صنيعة الإنسان، وغايتها الحرص على توجيه الحرية في اتجاه احترام حقوق الجميع. وعلى الولايات المتحدة، باعتبارها أكبر قوة ديمقراطية، مساعدة الآخرين الذين يرغبون في إنشاء مؤسسات حرّة وتقويتها. لكن علينا أن نتذكّر فيما نقوم بذلك أن تعزيز الديمقراطية سياسة، لا رســـالة، وأنه يجب اختبار السياسات على محكّ الدبلوماسية، والسياسة العملية، واحتـــرام المعايير الدولية. ولن يُجدي قضيّتنا نفعاً إذا كنا واثقين جداً من أننا على صـــواب بحيث نغفل عن ميلنا، كبشر، إلى ارتكاب الأخطاء. ومع أن أميركا بلد استثنائي، فإنه لا يمكننا المطالبة بمنحنا بعض الاستثناءات. فنحن لسنا فوق القانون، ولـــيس لديـــنا دافـــع إلهيّ لنشر الديمقراطية، مثلما ليس لدينا رسالة وطنية بنشر المسيحية. باختصار، لدينا الحقّ في أن نسأل الله أن يبارك أميركا – دون إلحاح أو ن التسليم بذلك.

الفصل الثالث

النوايا الحسنة تضلّ الطريق:
فيتنام والشاه

التحقت بالجامعة في الخمسينيات من القرن الماضي، وهو وقت يقع (كما أقول لطلابي الآن) بين اكتشاف النار وابتكار أجهزة بلاك بري (BlackBerry) المحمولة باليد[1]، ووقت الوضوح الأخلاقي بالنسبة لمعظم الأميركيين. ولما كان والدي يؤلّف كتباً عن مخاطر الشيوعية، لم أجد كبير عناء في الفصل بين الأخيار والأشرار في العالم. وعندما أكّد نائب الرئيس نيكسون بأننا "إلى جانب الله"، لم يثر سوى قليل من الاعتراضات العامة. وبعد مرور بضعة أسابيع على تخرّجي، اشتبك نيكسون مع رئيس الوزراء السوفياتي الجعجاع، نيكيتا خروتشوف، في ما أسمي "نقاش المطبخ" في معرض للأدوات المنزلية الحديثة في موسكو. فقد اعتبر نائب الرئيس أن النظام الأميركي متفوّق بالإشارة إلى الأدوات المنزلية الأميركية العالية الجودة. وتوافق هذا الانقسام التكنولوجي في سنة 1961 مع برهان مادي على انقسام أخلاقي بإقامة جدار برلين (أو "جدار الحماية من الفاشية" كما كان يحلو لسلطات ألمانيا الشرقية أن تدعوه). فخلافاً للشيوعيين، لم يكن لدى العالم الحرّ حاجة إلى إقامة حواجز تحول دون هروب شعبه. وبدا واضحاً أن الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، يكسب معركة الأفكار.

ثم جاءت فيتنام.

تعكّر ما بدا واضحاً جداً بسبب التورّط الأميركي في الحرب في جنوب شرقي آسيا، وهي حرب امتدّت من أوائل الستينيات من القرن الماضي إلى ربيع

---

(1) جهاز لاسلكي طوّر في سنة 1999 يقدّم خدمات البريد الإلكتروني والهاتف المحمول والرسائل النصية وإرسال الفاكسات عن طريق الإنترنت وتصفح الوب وغيرها من خدمات المعلومات. المترجم.

1973. وكانت نــزاعاً لا يمكن أن تحرز فيه شجاعة الجنود الأميركيين انتصاراً أياً كـــان مقـــدارها. وتبين أن احتواء الشيوعية معقّد في منطقة استغلّ زعماؤها ذوو الموهبة القيادية (الكاريزما)، مثل هو شي منه في فيتنام، المواقف الوطنية والمناهضة للإمبريالية. فقد أدّت الثقة والتفاؤل، وهما الصفتان اللتان ساهمتا مساهمة كبيرة في عظمـــة أميركـــا، إلى توجـيه اســـتراتيجيّتها توجيهاً خاطئاً. ولم يستطع القادة الأميركـــيون غير المعتادين على الهزيمة أن يفهموا كيف تمكّن هذا البلد الصغير من تحمّـــل القـــوة التي سلّطت عليها. وأساءوا قراءة الثقافة المحلية، فمنحوا ثقتهم إلى وكـــلاء فاسدين وغير شعبيين، واعتمدوا استراتيجية عسكرية تقوم على التصعيد التدريجـــي الـــذي عمّق تورّط بلدنا دون أن يُحدث ذلك تغييراً حاسماً في ميدان المعركة. وفي ساحة الرأي العام العالمي، أصبحت القوة الأميركية عائقاً، حيث أظهرت الـــروايات المثيرة عن مذبحة ماي لاي وفرار الأطفال الفيتناميين مذعورين من النابالم الولايات المتحدة بمظهر المتنمّر على الضعفاء أكثر من مظهر نصير الحرية.

مـــن المـــدهش كـــيف تتـــشابه الانتقادات التي سُمعت في حقبة فيتنام مع الانـــتقادات التي أطلقت حديثاً بشأن نوع مختلف من الحرب، أي الغزو الأميركي للعـــراق. ففـــي سنة 1965، اشتكى هانـــز مورغنثاو، وكنت قد درست كتاباته الكلاسيكية عن التاريخ والسياسة الخارجية في ولزلي، قائلاً، "في حين أن السياسة الخارجية والعسكرية تستند إلى الاستخبارات عادة – أي التقييم الموضوعي للوقائع – فـــإن العملية معكوسة هنا: فقد تقرّر اتباع سياسة جديدة، وعلى الاستخبارات أن تقـــدّم الوقائـــع التي تبرّرها". وفي يال، حذّر جون كيري وهو في سن الثانية والعشرين زملاءه الخرّيجين من "الخطر الكبير لتولّي أدوار الشرطي، والمدّعي العام، والقاضـــي، وهيئة المحلّفين، في وقت واحد، ثم تبرير طريقنا نحو أعماق ورطة التزام لا تفهمه الأمم الأخرى ولا تسانده". وأوجز عضو الكونغرس الذي يحظى باحترام واسع، موريس أودال من أريزونا، رأي الكثيرين عندما أعلن بصراحة أن فيتنام هي "الحرب الخاطئة في المكان الخاطئ والتوقيت الخاطئ".

لا شك في أن النـــزاع قسّم أميركا. وعلى الرغم من زعم ريتشارد نيكسون أن "الأغلبـــية الـــصامتة" مـــن المواطنين الأميركيين يدعمون الحرب، فإن الملايين

عارضوها، على أسس أخلاقية في الغالب. وكان هناك قادة دينيون بارزون - مثل ويليام سلون كوفين من يال والحاخام أبراهام جوشوا هشل من كلية اللاهوت اليهودي - من بين من جهروا بالمعارضة. وأدان مارتن لوثر كنغ جونيور الحرب بسبب تبديد الموارد اللازمة لمكافحة الفقر، والطلب من الأميركيين الأفارقة تحمّل حصّة غير عادلة من المخاطر، وتقويض مبدأ اللاعنف، وقتل الفيتناميين الأبرياء. وتحدّث كنغ أيضاً عن الضرر اللاحق بالموقف الأميركي في أوروبا وسواها: "كل يوم يمضي على الحرب يزداد فيه الحقد في نفوس الفيتناميين ونفوس الذين يتحلّون بالغريزة الإنسانية. فالأميركيون يجبرون حتى الأصدقاء على أن يصبحوا أعداءهم. إن صورة أميركا لن تعود ثانية صورة الثورة والحرية والديمقراطية، وإنما صورة العنف والهيمنة العسكرية".

وجد معارضو الحرب شريكاً لهم في الحركة من أجل الحقوق المدنية للأميركيين الأفارقة. وتعزّزت القضيتان بحماسة من منابر الكنائس وفي الجامعات والشوارع. وسرعان ما نشأت حركات أخرى منهما: حملات للدفاع عن المرأة، وحماية البيئة، ومحاربة الجوع في العالم، ووقف بيع الأسلحة إلى الأنظمة القمعية، وتزايد احترام حقوق الإنسان. وشكل هذا النشاط مطالبة بأن تتمسك الأمة بمُثُلها أكثر مما شكل تبرّؤاً من الإيمان بأن أميركا بلد استثنائي. ورأى المحتجّون أن القادة الذين يعتمدون كثيراً على القوة، ويمارسون معايير مزدوجة فيما يتعلّق بحقوق الإنسان، ولا يبالون كثيراً برأي العالم، يفسدون الروح الأميركية الحقيقية. وشعر المنتقدون بأحقية موقفهم عندما انكشف النسيج الأخلاقي المهلهل لإدارة نيكسون، مما أدّى إلى استقالات غير مسبوقة لنائب الرئيس أولاً، ثم نيكسون نفسه. وهلّل المحتجّون أيضاً عندما كشف المحقّقون في الكونغرس تواطؤ السي آي إيه في مساندة الحكومات الاستبدادية وتنفيذ الاغتيالات السياسية.

لم تقلّل التجربة المأساوية في فيتنام من التزام أميركا بقتال الشيوعية، لكنها أثارت أسئلة عن أفضل السبل للانخراط في المعركة. وأحدثت أيضاً طلباً على قيادة أكثر نزاهة. وعندما أعلن جيمي كارتر، حاكم ولاية جورجيا غير المعروف كثيراً، عن حملته للرئاسة في انتخابات سنة 1976، تعهّد ألا يكذب على الشعب

الأميركي وأن يقدّم له حكومة صالحة تعبّر عنه. كانت تلك الرسالة الصحيحة في ذلك الوقت وانتُخب كارتر. سُررت لأن الرئيس الجديد اختار زبيغنيو بريجنسكي مستشاراً للأمن القومي، وهو منظّر بارز في الشؤون العالمية وكان أستاذي في جامعة كولومبيا، حيث تابعت دراستي العليا. وعلى الرغم من أن كولومبيا كانت مركزاً للاحتجاجات المناهضة للحرب، فإن بريجنسكي لم ينضمّ إليها وأنا أيضاً. اتفقنا على أن الحرب أسيئت إدارتها، لكننا لم نكن نوافق على الموقف المعتاد الذي عبّر عنه بعض قادة المحتجّين تجاه مخاطر الشيوعية. كان لدينا إيمان راسخ بأهداف أميركا في الحرب الباردة ونعتقد أن من الممكن تطوير نهج أفضل لتحقيقها. وعندما عرض عليَّ بريجنسكي منصباً في مكتبه، انضممت إلى الإدارة التي ستحاول إيجاد التوازن الصحيح بين مطلبين أخلاقيين: محاربة الشيوعية بفعّالية وإظهار الدعم المتّسق للمبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان.

ورثنا نقاشاً كان يجيش بهدوء طول الحرب الباردة بشأن كيفية مواجهة الشيوعية بأكثر السبل حكمة. رأى أحد جانبي النقاش أن من المبرّر أن تستخدم أميركا أي وسيلة تقريباً لإحباط التهديد الذي تشكله الكتلة السوفياتية. إذا كانت هذه الوسائل تعني مساعدة الأنظمة الدكتاتورية المناهضة للشيوعية، فليكن ذلك؛ فذلك أفضل من الناحية الأخلاقية من السماح للثوريين الشيوعيين بالاستيلاء على السلطة، وخنق الحرية، وعدم ترك أي أمل بالإصلاح في نهاية المطاف. وشدّد الجانب الآخر في النقاش على أن دعم المبادئ الإنسانية أفضل السبل لكي تلحق أميركا الهزيمة بالشيوعية. ووفقاً لهذا الرأي، على أميركا ألا تخشى من أن تقف بحزم إلى جانب الشعوب المكافحة لتحسين حياتها. وسعت إدارة كارتر إلى الجمع بين حسنات كل من المقولتين. وتطلّب ذلك التوافق مع بعض الخلافات الداخلية. لم يكن يوجد لدى بريجنسكي أوهام بشأن صراعنا مع الاتحاد السوفياتي. ولم يكن يثق بالكرملين، وشعر بأن علينا أن نكون صارمين في أفعالنا وسياساتنا. وكان كارتر مثاليّ النزعة، فأراد أن تقدّم أميركا صورة غير ملوّثة أخلاقياً أمام العالم. لكن كان الاثنان يتّفقان على أن بوسعنا أن نحرز نجاحاً أكبر في مواجهة الشيوعية إذا جعلنا احترام حقوق الإنسان مبدأ جوهرياً في سياستنا الخارجية

بعد أربعة أشهر من تقلّد الرئيس كارتر منصبه، أوضح في خطاب ألقاه بحفل تخرّج في نوتردام نهجنا الجديد. ومع أنه رفض "الأمثلة السائرة (المأثورة) الأخلاقية التبسيطية"، فإنه قال إن أميركا تؤمن إيماناً شديداً بالوسائل الديمقراطية بحيث لن يغريها استخدام تكتيكات غير سليمة في الداخل أو الخارج:

إننا واثقون من مستقبلنا، لذا تخلّصنا الآن من الخوف المفرط من الشيوعية الذي دفعنا ذات يوم إلى قبول أي دكتاتور ينضمّ إلينا بسبب ذلك الخوف. لقد أبدينا استعداداً طوال سنين عديدة لاعتماد المبادئ والتكتيكات المعيبة والخاطئة التي يتبعها أخصامنا، وتخلّينا أحياناً عن قيمنا مقابل قيمهم. فحاربنا النار بالنار، دون أن نفكّر بأن من الأفضل إطفاء النار بالماء. وفشل هذا النهج، وكانت فيتنام أفضل مثال على فقره الفكري والأخلاقي. لكننا من خلال الفشل وجدنا طريقنا للعودة ثانية إلى مبادئنا وقيمنا، واستعدنا ثقتنا التي فقدناها.

استقبلت المجموعات التي نشأت في أثناء حرب فيتنام للدعوة لحقوق الإنسان والسلام خطاب الرئيس بالترحاب باعتباره إنجازاً. وسُرّت أيضاً عندما عين لأول مرّة مساعد لوزير الخارجية لحقوق الإنسان. وتبعاً لتكليف الكونغرس، بدأت الإدارة في إعداد تقارير سنوية تدوّن ممارسات حقوق الإنسان في البلدان التي تتلقّى مساعدات من الولايات المتحدة. ووضعت قيود جديدة على التدريب العسكري ومبيعات الأسلحة إلى الحكومات الصديقة ولكن الاستبدادية في بلدان مثل الفيليبين والأرجنتين والسلفادور وغواتيمالا ونيكاراغوا. لكن أفلت دكتاتور واحد من كل العقوبات: شاه إيران.

كان محمّد رضا بهلوي المتأنق حليفاً لأميركا منذ سنة 1953، وهي السنة التي هندست فيه السي آي إيه انقلاباً ونصّبته شاهاً لإيران مكان رئيس وزراء منتخب لكنه معادٍ للغرب. وبعدما تسلّم العرش، أثبت الشاه نفسه كحاكم مستبدّ قاسٍ ومتحمّسٍ للتحديث. وأكسبته "ثورته البيضاء" استحسان الغرب لإصلاح التعليم وبناء الطرق وتحسين الرعاية الصحية وتوسيع الفرص أمام النساء. وكانت قد وافقت إدارة نيكسون على بيع إيران أي سلاح غير نوويّ تريد حكومتها شراءه، متوقّعة في المقابل أن يكون النظام حصناً للاستقرار المناهض للشيوعية.

كـــان الشاه اختباراً مبكّراً بالنسبة للرئيس كارتر. فالسياسة الخارجية القائمة علـــى حقوق الإنسان فحسب ستتجنب مثل هذا الدكتاتور الذي تمرّست شرطته الـــسرية في التعذيب. لكن الإدارة احتضنته بدلاً من ذلك. فقد اعتُبرت إيران ذات الاحتـــياطات الوفيرة من النفط والموقع الاستراتيجي على طول الشواطئ الشمالية للخليج أثمن من المخاطرة بها. وشكلت حالة اتفق فيها الرئيس وبريجنسكي على أن تـــسمح الـــولايات المتحدة لجانبها الواقعي بالتغلّب على غرائزها المثالية. فنحن في النهاية ضالعون في لعبة ذات مجموع صفريّ تنطوي على أعلى المخاطر. فقد كانت واشنطن وموسكو تجلسان إحداهما مقابل الأخرى وبينهما رقعة الشطرنج العالمية. وكـــان العـــالم في ذلك الوقت منقسماً إلى قسمين، أو هكذا ظننا. ولزم القوّتان العظميان بعض الوقت لكي تدركا أن ثمة رجلاً ملتحياً يرتدي عباءة طويلة يجلس إلى جانبهما ويقوم بالفعل بخطوات خاصة به.

لم يلـــتفت أحد عندما طُرد في الستينيات من القرن الماضي رجل دين إيراني غـــير معروف، آية الله الخميني، خارج بلده لأنه احتجّ على "انحطاط" نظام الشاه. ولم يلاحـــظ سوى قلّة من الأشخاص عندما بدأ آية الله اتصالاته بالشعب الإيراني باســـتخدام أشرطة الكاسيت المهرّبة من فرنسا. ولم يعبّر عن كثير من القلق عندما قتلت قوات أمن الشاه نجل الخميني في تشرين الثاني/نوفمبر 1977. وفي العام التالي، بعـــدما أعلن الشاه الأحكام العرفية، أطلقت قواته النار على حشد من المتظاهرين العـــزّل فقـــتلت 900 شـــخص. تنبّهت الولايات المتحدة في النهاية إلى ما يجري فطمأنـــت الشاه إلى استمرار دعمها له، وحثّته في الوقت نفسه، دون نجاح، على اعتماد الإصلاحات التي يمكن أن تسترضي خصومه وتعيد الهدوء.

بعـــد ســـنوات، تمكّنت في صفوفي من ذكر الأحداث التالية كمثال على ما يحدث عندما تكون حكومتنا منقسمة. فقد كان لصانعي القرار الرئيسيين في البيت الأبـــيض ومجلـــس الأمن القومي ووزارة الخارجية والسفارة الأميركية في طهران مـــصادر معلومات مختلفة، وإدراك مختلف لما يجري، وأفكار مختلفة بشأن ما يجب فعلـــه. فظـــلّ الـــسفير مقتنعاً حتى النهاية تقريباً بإمكانية احتفاظ الشاه بالسلطة. وكانت وزارة الخارجية في واشنطن منشغلة في إيجاد طريقة لاخراج الشاه وتنصيب

الـــتلاف من المعتدلين في مكانه. واعتقد بريجنسكي أن على الشاه استخدام القوة العـــسكرية، عند الضرورة، لإخماد الاحتجاجات. وفي غضون ذلك، لم يكن لدى وكالـــة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه) ما تساهم به سوى القليل. ففي أحد الاجـــتماعات الحاسمة، سُئل ستانسفيلد تيرنر، مدير الوكالة في ذلك الوقت، عن تقيـــيمه للإيرانيين المحتجّين على الشاه. فردّ بأنه لا يملك أي تقييم: لقد حظر الشاه على السي آي إيه التحدّث إلى أي من خصوم النظام. ونتيجة لذلك، لم يقدّم أي عـــرض رسمـــي إلى الخميني برعاية الولايات المتحدة، وصدّت المساعي التي بذلها مساعدو الخميني للاتصال بالمسؤولين الأميركيين. لذا كان المتمرّدون مجهولين تماماً بالنـــسبة لأعلى المستويات في الحكومة الأميركية - مجموعة من الرجعيين المتديّنين التي لفّ الغموض أعضاءها ونواياها.

فاجأتـــنا الـــثورة في إيران لأننا لم نرَ شيئاً مماثلاً لها من قبل. كان يُعتقد أن الإســـلام، كقوة سياسية، في طور الانحسار لا المدّ. وافتُرض أن الجميع في المنطقة منـــشغل في المشاكل العملية للاقتصاد والتحديث. هل يمكن أن تقع ثورة في إيران تـــستند إلى ردّة فعل عنيفة ضدّ أميركا والغرب؟ من يمكن أن يدعم مثل هذا الأمر سوى حفنة من المتعصّبين؟

فشل خبراؤنا في استيعاب عمق العداء للشاه أو الأتباع المخلصين الذين يمكن أن يحشدهم رجال الدين، حتى وسط تفشّي المادية في نهاية القرن العشرين. وفاقم صناع السياسة خطأهم بافتراضهم أن الثوّار سيقنعون بالتخلّص من الشاه وتنصيب حكـــومة ديمقراطية. وسرعان ما عرفنا أن الثورة الإيرانية لم تكن مجرّد انقلاب، أو "تغـــييراً للـــنظام" أو حتى حرباً أهلية، وإنما زلزالاً سياسياً حقيقياً مماثلاً للثورتين الفرنـــسية والروسية. وبعد مغادرة الشاه كانون الثاني/يناير 1979، استولى آية الله الخمـــيني على السلطة وانهارت الهياكل الأمنية القديمة. فتبادل السجّانون والسجناء الأدوار. ونشأت رؤية جديدة للعالم بمثابة الحقيقة الرسمية، ومن المدهش أنه لم تكن لـــتلك الحقـــيقة أي صلة بالشيوعية أو الديمقراطية. لقد كانت حقيقة لا تكترث للاحتـــياجات الاقتصادية للمجتمع والحقوق السياسية للفرد، بل حقيقة تستند إلى تفسير ضيّق وغير مرن للإرادة الإلهية.

لم تكن الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة التي تقلّل من أهمية الدين في ذلـك الـوقت. فقـد رأى قادة الاتحاد السوفياتي انقطاع العلاقات بين واشنطن وطهـران بمـثابة فرصة استراتيجية. ولأنهم يشعرون بالقلق منذ زمن القياصرة من الـشعوب المشاكـسة على طول حدودهم الجنوبية، فقد وجدوا الآن فرصة لغزو أفغانـستان (وهو ما فعلوه في كانون الأول/ديسمبر 1979) دون أن يبدوا قلقاً من أن تقـدّم إيـران قاعـدة يمكـن أن تردّ منها أميركا. وعلى الرغم من أن القادة الـسوفيات لم يواجهـوا مـشكلة كبيرة في إقامة حكومة تابعة، فإنهم لم يتوقّعوا الغـضب الذي سيحدثه غزوهم في أوساط المسلمين لا في أفغانستان فحسب وإنما في كل أنحاء جنوب آسيا وشبه الجزيرة العربية أيضاً. ووفرّ هذا العداء بدوره فرصة اسـتراتيجية للـولايات المتحدة. فبعد أن أصبحت إيران مكاناً محظوراً، التفتنا إلى باكـستان، جارة أفغانستان الأخرى. وباتباع منطق العداوات في كل مكان (عدوّ عـدوّي صديقي)، أوصلنا كميات كبيرة من المساعدة عبر باكستان إلى المقاتلين المـسلمين العازمين على شن الحرب على السوفيات الكفرة. وشعر بريجنسكي أن من الضروري أن يدفع الروس ثمناً عالياً للغزو، حيث رأى فيه تجاوزاً لخطّ خطير في طـريقة إدارة الحرب الباردة. وفي أثناء زيارة قام بها للمنطقة الحدودية الباكستانية، أعلن أمام المقاتلين المسلمين المحتشدين هناك، "أن الله معكم". استغرق الأمر عقداً مـن الـزمن، لكن الأفغان، إلى جانب حلفائهم، أخرجوا الغزاة في نهاية المطاف واسـتردّوا بلـدهم. وخلافـاً لإيران، بدا الكفاح في أفغانستان نصراً غير محدود للـولايات المتحدة. لم نكن نعرف بالطبع في ذلك الوقت أن العديد من المسلمين المتـشدّدين الذين قاتلوا بفعّالية كبيرة ضدّ عدوّنا المشترك سيعيدون توجيه غضبهم نحونا ذات يوم.

تقدّم تجربتا الولايات المتحدة في فيتنام وإيران في السبعينيات من القرن الماضي دروساً يجدر بالأميركيين تذكّرها اليوم. الأول أننا نميل إلى التفكير بأننا أرفع شأناً ممـا يعـتقده الآخرون. لقد تمكّنا مع الوقت من فهم لماذا قاتلت أعداد كبيرة من الفيتناميين التواجد الأميركي في بلدهم. لكننا عندما شغّلنا تلفزتنا في سنتي 1979 و 1980 وشـاهدنا حـشود الإيرانيين تنادي، "الموت لأميركا"، واجهنا مقداراً من

الكـــراهية لم نستطع أن نستوعبه. فإيران ليست جنوب شرقي آسيا في النهاية. و لم نرســـل جنوداً إليها، كما لم نقصفها بالقنابل. كنا نعتقد أننا ندافع عن الحرية، أننا الأخيار الذين لم نرِد الأذى البتة لهذا البلد البعيد. بدا تفجّر الغضب الإيراني المستعر غير عقلاني، ولا بدّ من أن ذلك جنون. كيف يمكن لشعب عاقل أن يشير إلى العمّ سام بأنه "الشيطان الأكبر"؟

يقـــود هـــذا السؤال بصورة مباشرة إلى الدرس الثاني: الدين مهم. فالنسبة للمسلمين في إيران، الولايات المتحدة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدكتاتور ابتعد أيضاً عن القـــيم الإسلامية. وبالتالي توجّهت الثورة الدينية ضدّ الشاه وأميركا على السواء. ولأنـــنا بخسنا تقدير أهمية التراث والعقيدة بالنسبة للمسلمين الإيرانيين، فقد صنعنا أعـــداء دون أن نقـــصد ذلك. بل إن حرب فيتنام، وهي أساساً كفاح من أجل الإيديولوجـــية الـــسياسية والوطنية، كانت تضمّ مكوّناً دينياً. فمنذ البداية انهارت قضية معاداة الشيوعية لأن الحكومة في سايغون قمعت البوذية، وهي أكبر مؤسسة غـــير شيوعية في البلد. وعندما مُنع المصلّون من عرض الرايات الدينية في الاحتفال بمـــيلاد بـــوذا، ثاروا فأطلق الجنود النار عليهم، وأدّى ردّ الفعل إلى إثارة مزيد من أعمال الشغب. أحرق العديد من الرهبان الذين يرتدون العباءات الصفراء أنفسهم أمام مصوّري وكالات الأنباء الدولية، ما ساعد في تحويل الرأي العام المحلي والعالمي ضـــدّ الـــسياسة الأميركية. فأعلن الرئيس بيام الذي كنا ندعم حكومته الأحكام العـــرفية وبـــدأ باعـــتقال الزعماء الدينيين. واستكملت شقيقة زوجة بيام الكارثة بإشـــارتها علناً إلى القرابين بأنها "حفل شواء". وهذه ليست الطريقة لكسب قلوب الشعب الفيتنامي وعقوله.

في ســـنة 1977، كـــتب العالِم في الشرق الأوسط، برنارد لويس، "لم يعد الغربيون، مع بعض الاستثناءات، يمنحون الدين مكاناً مركزيّاً في مخاوفهم، وبالتالي لم يكونوا مستعدّين للإقرار بأن أحداً سواهم يمكنه ذلك. فمن غير المقبول بالنسبة للعقـــل التقدّمي الحديث أن يتقاتل الناس ويموتوا من أجل اختلافات محض دينية". وكـــان ذلك درساً تعلّمته إدارة كارتر بمشقّة وعناء. ففي أعقاب الثورة الإيرانية، أمر الرئيس بسلسلة من التقارير الموجزة التي قدّمها خبراء وعلماء في البيت الأبيض

عـــن تعاليم الإسلام وسياسته. وتكثّف الجهد بعد اقتحام سفارتنا في طهران وأخذ الدبلوماســـيين الأميركيين رهائن. غير أن هذه التقارير الموجزة لم تحدث فرقاً كبيراً لأن شـــعبية الإدارة في ذلـــك الـــوقت كانـــت قد تدنّت كثيراً بحيث هُزمت في الانتخابات.

الـــدرس الـــثالث هو أن الأشخاص الأذكياء والحسني النية يمكن أن يقوموا بافتراضـــات يتبين أنها خاطئة. فقد بدأ التورّط الأميركي في فيتنام بنوايا نبيلة وقليل مـــن عـــدم الثقة بالنفس، إذ إن أميركا ستنقذ الفيتناميين الجنوبيين الشاكرين من العـــبودية والشيوعية. وعندما أصبحت الحرب مستنقعاً، تنامى الشعور بأن المسار الأخلاقـــي هو الانسحاب. وعندما حدث، احتفل الناشطون. لكن معظمهم تجهّم عـــندما أُطاح النظام الذي فرض حكماً شموليّاً في فيتنام الجنوبية والنظام الذي أنشأ حقـــول القتل بقيادة بول بوت في كمبوديا بالحكومتين الفاسدتين المواليتين للغرب في الأولى والثانـــية علـــى التوالي. لقد كانت أميركا في فيتنام كابوساً لعدّ الجثث، ومهمات البحث والتدمير، والنابالم، والتوقّعات التي لا نهاية لها بالانتصار الذي لم يـــتحقّق. وكانـــت أميركا الخارجة من فيتنام كابوساً لمليون شخص يعيشون في القوارب وجبلاً من الجماجم.

تكـــشّف سيناريو مماثل في إيران. لقد كان الشاه قائداً قاسياً وغير آمن فقمع خصومه بوحشية. وعندما بدأت قبضته على السلطة بالتراخي، اتّهم الناشطون في حقـــوق الإنـــسان إدارة كارتر بالنفاق لاستمرارها في دعمه. وكثير منهم فرحوا عـــندما أطيح به، لكن ممارسات الحكومات التي خلفته في إيران كانت أسوأ بكثير مـــن ممارســـات الـــشاه فـــيما يتعلّق بحقوق الإنسان، إذا نظرنا إليها من منظور موضـــوعي. ففي السنوات الأولى فقط، أعدم آلاف الأشخاص بسبب الانشقاق الـــسياسي و"الجرائم الأخلاقية". وصل "حرّاس الثورة" محل شرطة الشاه السرية، فكانوا أشدّ منها قسوة. ولم يجد مئات الآلاف من الإيرانيين، بمن فيهم معارضون قدامـــى للشاه، خياراً سوى اللحاق به إلى المنفى. واليوم، بعد مرور أكثر من ربع قرن على الثورة، لا تزال السلطة في إيران في أيدي مجموعة صغيرة من رجال الدين غير المنتخبين.

اعـــتقد جيمـــي كارتر، بقدر ما اعتقد أي رئيس قبله أو بعده، أن الأخلاق يجب أن تشغل مركز السياسة الخارجية الأميركية. وجعلني التزامه بحقوق الإنسان فخـــورة بالخدمة في إدارته. كما أن هذا الالتزام ساهم مساهمة جبّارة في مصداقية القيادة الأميركية وفي امتداد الديمقراطية إلى أميركا اللاتينية وآسيا وإفريقيا وأوروبا الوســطى في نهاية المطاف. وجعلت قناعات الرئيس مسألة القيم الديمقراطية جزءاً مـــن كل مداولات السياسة الخارجية، على الرغم من أن القرارات النهائية أعطت أحياناً ثقلاً أكبر لعوامل أخرى، كما هي الحال في إيران. فقد أظهرت تجربتنا هناك مقـــدار التعقـــيد الذي يمكن أن تكون عليه القرارات الخاصة بالسياسة الخارجية. فللحفـــاظ على الموقف المتشدّد من أحد مصادر الشرّ (شيوعية الاتحاد السوفياتي) وقفنا إلى جانب مصدر آخر (الشاه المستبدّ)، ومن ثم ساعدنا في تمهيد الطريق أمام مصدر ثالث (آية الله الخميني).

علـــى الرغم من أنني لم أكن من صانعي القرار الكبار في ذلك الوقت، فإنني أذكـــر الإحساس بالإحباط الذي شعرنا به جميعاً عندما تبين أن افتراضاتنا كانت خاطـــئة، وضاقت خياراتنا، وخرج الوضع عن السيطرة. قال بعض النقّاد إنه كان علينـــا أن نضع قيم الديمقراطية في المقام الأول ونتخلّى عن الشاه في وقت مبكّر. ورأى آخرون أنه كان ينبغي لنا أن نضع المصالح الأمنية أوّلاً وندعم الشاه، بالقوة العسكرية عند الضرورة. لكن من السهل عند النظر إلى الوراء تحديد الأخطاء سواء أكانـــت ناتجـــة عـــن السهو أم مقصودة. ومن الصعب الرؤية بوضوح قبل اتخاذ القـــرارات، عـــندما تبقى النتيجة محلّ شك ويكون على الفاعلين أن يكشفوا ما بأيـــديهم. في تلك الظروف، نحتاج إلى الهداية والنصح، لكن لمن أو ما الذي نلجأ إليه للحصول عليها؟

الفصل الرابع

مسألة الضمير

لم تـــشكل معارضة مارتن لوثر كنغ جونيور حرب فيتنام إلا جزءاً ثانويّاً من مـــسيرة حياته العملية وتراثه. فقد كان ثابتاً في التزامه العدل واللاعنف، وطالب بإعـــادة دراسة شاملة للأساس الأخلاقي للمجتمع الأميركي وسياساته في الداخل والخـــارج. وفي عـــدد لا يحـــصى من لقاءاته العامة في الكنائس المكتظّة وقاعات الاجتماعات كان صوته المجلل يطرح التحدّي:

> الجـــبن يسأل - هل هو آمن؟ والمصلحة الذاتية تسأل - هل هو حكيم؟ والغرور يسأل - هل هو شعبي؟ لكن الضمير يسأل - هل هو صحيح؟ وسيأتي يوم يكون علـــى المـــرء فيه أن يتخذ موقفاً غير آمن أو حكيم أو شعبي، ولكن عليه أن يتخذه لأنه صحيح.

إن خطـــاب الدكتور كنغ مقنع، لكنه يترك انطباعاً بأن صانعي القرار عندما يجـــتمعون حـــول الطاولة، يكون أمامهم مجموعة من الصناديق التي وُسمت عليها بوضـــوح الخـــيارات "آمـــن" و"حكيم" و"شعبي" و"صحيح" - مثل الأطباق في مقصف المطعم.

نادراً ما تكون الحال كذلك، كما يوحي مثالا فيتنام وإيران. لصنع القرارات الذكـــية، على القادة الأميركيين أن يبدأوا بالمعلومات الجيدة. عندما كنت وزيرة للخارجـــية، كـــنت أبـــدأ كل يوم في مطبخي قراءة الجرائد وأنا أحتسي القهوة. وعـــندما كنت أصل إلى مكتبي في الطبقة السابعة من مبنى وزارة الخارجية، يكون علـــى طاولتي رزمة من المعلومات الصادرة عن مكتب الاستخبارات والأبحاث في الوزارة. تميّز تحليل المكتب بالجودة في التاريخ والإطار الدبلوماسي لأوضاع معينة: مـــن يفعل ماذا لمن، ولماذا ومنذ متى. بعد ذلك كنت أقرأ نسخة من التقرير الموجز اليومي المرفوع للرئيس. وهو وثيقة عالية السرية لكنها غير جذّابة في معظم الأيام.

وفي أثـــناء القراءة، يقف مندوب عن السي آي إيه ويراقبني، فيما لو كان لديّ أي سؤال أو طلبات خاصة.

التقريـــر الموجز اليومي شديد الاقتضاب، وكنت أدرسه لكي أطمئن إلى ما يـــبلّغ بـــه الـــرئيس. ثم كنت أتصفّح نسخة أطول من المادّة نفسها تدعى التقرير الاســـتخباراتي الـــوطني اليومـــي، وبعد ذلك أتلقّى تقريراً موجزاً عن التهديدات الإرهابـــية المحتملة. ووسط هذا الكمّ من البيانات، كان هناك مكوّن ناقصٌ دائماً تقريباً: اليقين. لو كانت الاستخبارات جهاز تلفزة، لكانت نموذجاً قديماً بالأسود والأبيض رديء الاستقبال بحيث يظهر معظم الصورة رمادياً وتكون الأشكال على الـــشاشة باهـــتة وغير مميزة. يمكنك العبث بالمقابض كما تريد، لكن ما لم تتوخّ العناية، يتوقّف ما تراه على ما تتوقّعه أو تأمل بأن تراه أكثر مما على ما هو موجود هناك في الواقع.

مـــع ذلك، كان على فريق السياسة الخارجية في إدارة كلينتون أن يتّخذ القـــرارات، سواء أكنا واثقين مما نعرفه أم لا، فالأحداث لا يمكن أن تنتظر. بل إن القرارات الصغيرة نسبياً مهمة، لأننا متى بدأنا التحرّك في اتجاه محدّد، تكون العودة صعبة. كما أن القرارات تبنى بعضها على بعض. وكنا ندرك ذلك، لذا نـــدرس خياراتـــنا بعناية. واجبنا الأول هو تقديم أفضل حماية لمصالح الشعب الأميركـــي. وكل منا أقسم على حماية الدستور وتنفيذ الواجبات التي تقتضيها مناصبنا بإخلاص. لكن متى يكون لضمائرنا دور؟ وهل لدينا مسؤولية أخلاقية أيضاً؟

كـــان ديـــن أتشنـــسون رجـــلاً لامعاً لكنه غير عاطفي، وقد خدم كوزير للخارجية في إدارة الرئيس ترومان. وفي سنة 1965، كتب أن "الكثير من المشاكل يتأتّـــى من الدافع التجسيمي إلى أن نعتبر الأمم أفراداً ونطبّق على سلوكنا الوطني القاعـــدة الذهبـــية[1] مثلاً – مع أن الأفراد نادراً ما يعتمدونها. في الواقع أن الأمم ليست أفراداً؛ فإن السّبب والمُسبَّب لأفعالها ونتائجها مختلفان تماماً".

(1) أي "عامل الناس كما تحبّ أن يعاملوك". المترجم.

بعد عشرين عاماً، رأى جورج كينان أن "مصالح المجتمع الوطني التي يجب أن تعــنى بها الحكومة تتعلّق أساساً بأمنه العسكري وسلامته وحياته السياسية، ورفاه شعبه. وليس لهذه الاحتياجات صفة أخلاقية... فهي ضرورات الوجود الوطني التي لا يمكن اجتنابها وبالتالي لا تخضع لتصنيف 'جيدة' أو 'رديئة'".

إن مقــولتي أتشيــسون وكيــنان تعبيران كلاسيكيان عن مدرسة فكرية في الــسياسة الخارجــية يشير إليها الأكاديميون عامة بأنها "المدرسة الواقعية". ويحذّر الواقعــيون من الاكتراث للاعتبارات الأخلاقية لأن هذه الاعتبارات قد تؤدّي إلى غــياب كيفية سلوك الحكومات في الواقع عن ذهننا. عندما درست هذه المدرسة الفكــرية في الجامعــة، تعلّمت أيضاً أن أعتبر الأمم "لاعبة عقلانية" لا يمكنها أن تتصرّف إلا بما ينسجم مع مصالحها. لكن هذا النمط من التفكير فقد شعبيته، بعد أن كــان يعتبر مقنعاً ذات يوم. لا شك في أن السياسة الخارجية الإيثارية تماماً غير ممكــنة في عالم يفتقر إلى الكمال، لكن القول بأن السَّبب والمُسبَّب لأفعال الدول ونــتائجها "مخــتلفان تماماً" عن تلك الخاصة بالأفراد يعني الجنوح بعيداً إلى الاتجاه الآخر. فسياسات الأمم تنتج في النهاية عن قرارات الأفراد وأفعالهم.

أما بخصوص تأكيدات كينان، يمكن للمرء أن يقول أيضاً إن مصالحنا الفردية هي الحصول على الطعام والمأوى والحماية من التهديدات الخارجية. وهذه أيضاً "ضرورات لا يمكن اجتنابها" للوجود وليس لها أي صفة أخلاقية. لكن لتأمين هذه المصالح علينا أن نعمــل، وعــندما نعمل، نصبح عرضة للحكم الأخلاقي. فاحتياجاتنا لا تصدّق على وســائلنا بصورة تلقائية. وينطبق ذلك على الأفراد والأمم على السواء. فحماية نفسي مــن جاري بتركيب جهاز إنذار في بيتي شيء، لكن أن أضربه على رأسه بعتلة شيء آخــر تمامــاً. وقيام حكومة ببناء جيش لمراقبة حدودها شيء، وإرسال ذلك الجيش للقــضاء على شعب مجاور شيء آخر تماماً. وينطبق اختبار مماثل على كيفية استجابتنا إلى احتياجات الآخرين. فعدم قبول الغرب استقبال مزيد من اللاجئين اليهود في أثناء الحرب العالمية الثانية لا يمكن تصنيفه بأنه محايد أخلاقياً.

عندما كنت في الحكومة، لم أعتبر نفسي واقعية تماماً أو مثالية تماماً، بل هجيناً من الاثنين. فقد رأيت الحكومة بمثابة مشروع عملي يجب أن يعمل في عالم تسوده

الفوضى والمخاطر، على الرغم من أن النهج الواقعي يصدمني بأنه قاسٍ وعديم الإحساس. ولم أكن أدرك كيف يمكننا سلوك مسار ثابت دون مبادئ أخلاقية تساعد في توجيهنا. فما الذي يعنيه ذلك؟ الأخلاق بالنسبة إلي تقاس بتأثير الأعمال على حياتنا. ولذلك أصررت كوزيرة للخارجية على تجاوز الاجتماعات الدبلوماسية الروتينية المعتادة. أردت أن أرى وأسمع من الناس الأكثر تأثّراً بالقرارات التي تتخذها الحكومات.

ولهذه الغاية، زرت اللاجئين، والمصابين بالإيدز/فيروس الإيدز، والأسر التي بُترت أطراف معيليها بالألغام الأرضية، والأشخاص الذين يكافحون للتعافي من الجراح التي أحدثتها قنابل الإرهابيين، والأرامل اللواتي قُتل أزواجهن بسبب إثنيتهم، والأمّهات اللواتي يفتقرن إلى وسائل تغذية أطفالهن. وأذكر على وجه الخصوص أنني حملت فتاة في الثالثة من عمرها في سيراليون. كانت تدعى مامونة، وترتدي ثوباً أحمر وتلعب فرحة بسيارة صغيرة بيدها الوحيدة. فقد قطع أحد الجنود ذراعها الأخرى بمنجل كبير. كان لديّ في ذلك الوقت حفيدة بمثل سنها. لم أستطع أن أفهم كيف يمكن أن يشهر أحدهم منجلاً كبيراً أمام تلك الفتاة. فمن هو الذي تهدّده؟ وعدوّة من هي؟

في كل محطّة كنت أتمنى لو أنني أحضرت أميركا كلّها معي. فقد كنت واثقة، نظراً لتوفّر فرصة مشاهدة الظروف البائسة التي يعيش فيها الكثير من الأشخاص، بأننا سنستجيب بإلحاح وكرم. لم يكن بإمكاني بالطبع أن أنقل كل أميركا معي في طائرتي، ولم أكن أريد أن أظهر قلباً نازفاً في وصف أسس سياستنا الخارجية. لذا فور عودتي إلى الوطن، كنت أعدّد كل الأسباب العملية التي تدعو الأميركيين إلى الاهتمام: لأن لنا مصلحة في الاستقرار، وفي ازدهار الأسواق الخارجية، وتقوية حكم القانون، وتوسيع نفوذنا، وتلميع سمعتنا. لكن حتى وأنا أعرض هذه المقولات، كنت أشعر بأنها دون الحاجة.

لإيضاح السبب، أقدّم قصتّي المفضّلة عن أبراهام لنكولن: ذات يوم، عندما كان لا يزال محامياً شاباً ينتقل من محكمة إلى أخرى بحثاً عن العملاء، مرّ بخنزير يحاول دون نجاح تحرير نفسه من سبخة (مستنقع موحل). توقّف لنكولن برهة،

تـتقاذفه العاطفة على الخنـــزير وخوفه من اتساخ بدلته الجديدة بالوحل، ثم تابع طــريقه. وبعد اجتياز ميلين تقريباً، قفل عائداً إذ لم يستطع التوقّف عن التفكير في الحـيوان ومحنـــته. وعندما وصل إلى السبخة، مدّ بعض الألواح الخشبية التي هبط عليها وأخرج الخنـــزير غير آبه باتساخ ملابسه. وعندما سئل لماذا كان قد فعل ما فعل للخنـــزير. أجاب لنكولن قائلاً، "لم أفعل ذلك للخنـــزير، بل فعلته لنفسي - لإزالة الألم الذي يعتمل في ذهني".

إذا كان بوسع لنكولن الإقرار بمصلحته الذاتية في إنقاذ خنـــزير على حساب بدلته، يجب أن تكون أميركا قادرة على أن ترى مصلحتها في مساعدة شعب على الإفلات من ظروفه اليائسة. من أعمق المعتقدات التي كان يؤمن بها والدي أن من الممكـــن أن نعـــزو خصائص إلى الأمم. وقد كان جانب كبير من تاريخ أميركا مدفـــوعاً بإحـــساسها بالغاية الأخلاقية. وذلك جزء جوهري من هويّتها القومية. وعندما تتشوّش الغاية، كما حدث في فيتنام، يدبّ الانقسام في البلد ويفقد قدرته علـــى إلهـــام الآخـــرين. كان ذلك التفكير الذي يقف خلف قرار جيمي كارتر بالتـــشديد على حقوق الإنسان. لم يكن محاولة للقيام بما هو صالح فقط، بل كان طريقة لتذكير الأميركيين بمصلحتهم الذاتية الحقيقية ووضع بلدهم في موقع القيادة في مسألة حيوية للناس أينما كانوا.

إن قـــبول مبدأ وجوب إدخال الأخلاق في الأحكام على السياسة الخارجية يسوّي مسألة إلا أنه يواجه سؤالين آخرين. كيف نحدّد ما هو أخلاقي؟ وما مقدار الـــوزن الـــذي يجـــب إرفاقه بالأخلاق بالنسبة لاعتبارات المصلحة الذاتية الأكثر وضوحاً؟

للمـــساعدة في الإجابة عن هذين السؤالين، حدّد الأستاذ مايكل والزر، من برنـــستون، أربعة واجبات بترتيب تنازليّ. الأولوية الأولى للبلد بالنسبة لوالزر هي حمايـــة حياة مواطنيه وحرّيتهم، وإذا فشلت في ذلك لا يمكنها أن تضع نفسها في موقع مساعدة الآخرين. وواجب البلد الثاني عدم إلحاق الأذى بالآخرين. وواجبها الثالث، حيثما أمكن، مساعدة الناس في تجنب الكوارث الطبيعية وتلك التي يحدثها الإنسان. والرابع مساعدة من يريد العون في بناء أنظمة سياسية أفضل وأقل قمعاً.

مــن الطرق الأخرى لتطبيق المفهوم نفسه تقريباً أن نعرّف الأعمال الأخلاقية بأنهــا تلك التي تؤدّي إلى زيادة صافية بما نقرنه بالخير: الحياة، والحرية، والعدالة، والازدهــار، والــصحّة، وسلام الذهن - مقابل الموت، والقمع، وانعدام القانون، والفقر، والمرض، والخوف. وسيكون أجراء المقايضات مطلوباً حتى في هذه المعادلة البسيطة. على سبيل المثال، لإنهاء حرب أهلية، لا بدّ من عرض العفو على أعضاء ميليــشيا خارجة على القانون مقابل تسليح قواها وتسليم أسلحتها. وبموجب هذا التــرتيب، تحظــى الحاجة إلى السلام بالأولوية على العدالة. هذه هي البراغماتية. فاختبار إذا كان عمل ما أخلاقياً لا يعني أن يتوافق مع مبدأ صارم ما، بل أن يحقق نتيجة أخلاقية (وفقاً لأفضل تقييم يمكننا إجراؤه).

في بعــض القضايا، يكون المسار واضحاً، لكن في كثير منها، وربما معظمها، قد يكون من الصعب جداً تحديد أخلاقية الخيارات المتنوّعة.

غالــباً مــا يجــب اتخاذ القرارات دون وجود معلومات كاملة، وكذلك في مــواجهة مزاعم متناقضة، وعدم يقين محيّر، و"حقائق" مطمئنة تتقلّص إلى أنصاف حقائــق عــندما يتمّ اختبارها بجدّية. وعلى الرغم من أن الخير والشرّ موجودان، فإنهمــا يمــيلان إلى الاختلاط معاً، بدلاً من انفصال أحدهما عن الآخر. وغالباً ما تُــتجاهل هــذه الحقيقة، وهي موضوعة مركزية للفلسفة والمسرح والأدب والفن وملخّص التعليم الديني في طفولتي[1]، وفي الخطاب العام للقادة السياسيين. غير أنها تظهــر نفسها في العادة عندما يتوقّف الكلام وتبدأ الأفعال. عندئذ تصبح الفجوة بــين مــا ننويه وما نحقّقه بالفعل ظاهرة بشكل مؤلم، وتشوّش التمييز بين الخطأ والــصواب. علــى سبيل المثال، في سنة 1991، بعد حرب الخليج، توقّعت إدارة الرئيس بوش الأول أن يطرد الشعب العراقي صدّام حسين من السلطة. لكن ذلك لم يتحقّق. ونتيجة لذلك فُرضت عقوبات اقتصادية "مؤقّتة" ثم كانت تمدّد كل ستّة أشهر لمدّة تزيد على العقد. لم تكن العقوبات تطبّق على الأدوية والغذاء، مع ذلك

---

(1) وفقــاً لملخّص التعليم (الفقرة 1707)، "الإنسان منقسم في نفسه. ونتيجة لذلك، فإن حياة الناس بأكملها، الفردية والاجتماعية، تظهر على أنها صراع مثير بين الخير والشرّ، وبين النور والظلام".

عـانى الاقتصاد العراقي وتضرّر المدنيون الأبرياء. واستغلّ صدّام المعاناة في الدعاية علـى أفـضل وجه. ومع أنه كان يذرف دموع التماسيح في العلن، فإنه عمل في الكوالـيس علـى تأخير الجهود الدولية لمساعدة شعبه ولاحقاً إفسادها من خلال برنامج يقايض النفط بالغذاء. لو رُفعت العقوبات، لأعاد صدّام بناء جيشه وأصبح يمثّل ثانية تهديداً إقليمياً حقيقياً.

في أثناء سني تولّي منصبي، كان العراق ينطوي دائماً على الاختيار بين شرّين؛ بذلـنا مـا بوسعنا لتخفيف الضرر الذي يسبّبه البديل الذي نختاره. وفيما كنت أحاول تفسير سياستنا، قلت للأسف شيئاً دفع العديدين للتساؤل كيف يمكنني أن أتجـرّأ علـى تأليف هذا الكتاب. كان قد سألني صحفي إذا كانت المحافظة على العقـوبات مهمة جداً لتبرير موت العديد من الأطفال العراقيين نتيجة لذلك كما يُـزعم. تردّدت، ثم أجبت، "ذلك خيار صعب جداً، لكن الثمن – نعتقد أن ذلك يـستحقّ الـثمن". كان يجب أن أقول، "بالطبع لا – ذلك بالضبط ما يدفعنا إلى القـيام بكل ما يمكن لكي يحصل العراق على ما يحتاج إليه من أموال لشراء الدواء والغـذاء". ولأن فمـي كان أسرع من عقلي، فقد ظهرت بمظهر القاسية وعديمة الإحـساس. وسأترك للآخرين أن يحكموا على أساس مسيرتي المهنية بأكملها إذا كانـت هاتان الصفتان تنطبقان عليَّ. غير أنني أعترف بذنبي على استغلاق الكلام عليَّ والاختيار الشنيع للكلمات.

ثمة معضلة أخلاقية ثانية انطوت على الإبادة العرقية في رواندا، وهو بلد مزّقه النـزاع بين مجموعتين إثنيتين – الهوتو والتوتسي. في آب/أغسطس 1993، انتدبت الأمـم المـتحدة بعـثة حفظ سلام لمراقبة وقف إطلاق النار بين الجانبين. تواجه المـشاكل كل هذه المهمات، وكانت هذه حالة تتسم بالتطرّف. فقد شهدت نهاية الحـرب الباردة ارتفاع عدد قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة من 18.000 تقريباً إلى نحو 80.000 في أقلّ من عامين، ما أفرط في توسيع النظام بشكل رديء. وكانت أكثر من اثنتي عشرة عملية – بما في ذلك أربع أخرى في إفريقيا – في طور التـشكيل بالفعل. لم يتمكّن قائد الأمم المتحدة في رواندا من تجنيد سوى نصف العـدد المطلـوب تقريباً من القوات، ولم يكن الكثير ممن جندهم متحمّسين كثيراً

لعملـــه. كما تمّ وضع تفويض المهمة فيما كانت مهمة الأمم المتحدة في الصومال تنتهي بكارثة. وقد تعلّمت الأمم المتحدة من تلك الفاجعة أن تتجنب ثانية مساندة أي جانـــب في حرب أهلية. وبالتالي صدرت الأوامر إلى العملية في رواندا بالتزام الحياد الصارم. وعنى ذلك أن نجاحها يتوقّف على رغبة الأطراف المحلية في التعاون للوفاء بواجباتها. لكن فريق الهوتو كان في الواقع يخطّط لحرب إبادة.

عـــندما انـــدلعت الحرب، تدخّلت القوى الأوروبية والولايات المتحدة على الفور - لإنقاذ مواطنيها. ولم يتمّ فعل الكثير حتى وقت متأخّر لمساعدة الروانديين الأبرياء الذين ذبحوا على مدى شهرين من أعمال القتل دون توقّف. وقد بحثت في مذكّـــراتي بـــشيء مـــن التفصيل لماذا حدث ذلك وكيف، لكن النتيجة لا يمكن إنكارهـــا ولا يمكن الدفاع عنها. لم تتحرّك القوى الكبرى، وكانت النتيجة القتل الجماعـــي. غـــير أن التحدّي الأخلاقي لم يتوقّف هناك. فعندما تراجعت أعمال القـــتل، قرّرت الولايات المتحدة قيادة جهد "إنساني" لإنقاذ اللاجئين الذين هربوا من رواندا إلى البلدان المجاورة. وقد صوّر تلفزيون سي إن إن محنة اللاجئين بوضوح وجـــلاء. كانـــوا يمشون بعناء، ويقطعون ميلاً بعد ميل، والخوف يعلو وجوههم، وحاجـــياتهم على ظهورهم، وأطفالهم بين أذرعهم. أثارت الصور الرهيبة المشاعر وهيّجت العواطف، لكن ما لم تشر إليه التقارير جيداً أنه كان بين اللاجئين العديد ممـــن شاركوا الإبادة الجماعية - هاربين من الانتقام الذي جرّته عليهم جرائمهم. أدّى مكـــتب مفـــوّض الأمـــم المتحدة السامي لشؤون اللاجئين واجبه في رعاية العابـــرين. وأنقذت أرواح الكثيرين. لكن وجود قتلة في المخيمات أدّى لاحقاً إلى حـــدوث مـــزيد من العنف، وساهم في وقوع حرب كارثية في جمهورية الكونغو الديمقراطية المجاورة. فحتى إغاثة اللاجئين لا تخلو من الشوائب الأخلاقية.

في ذلك العام، انتقد زعماء الحزب الديمقراطي في الكونغرس الرئيس كلينتون على سياسته باحتجاز المهاجرين الذين تمّ توقيفهم في البحر لدى محاولتهم الوصول إلى الولايات المتحدة وإعادتهم إلى هاييتي. وقال هؤلاء المنتقدون ذوو النوايا الحسنة إن من غير الأخلاقي، بل من العنصرية، إعادة مثل هؤلاء الأشخاص العاجزين إلى بلد تحكمه في ذلك الوقت حكومة عسكرية غير شرعية وقاسية. استجاب الرئيس

على مضض وتغيّرت السياسة. وكانت النتيجة حدوث ارتفاع حادّ على الفور في أعداد الهايتيين الذين يحاولون الهروب من جزيرتهم على متن أطواف تتسرّب إليها المياه وقوارب غير صالحة. وفي النهاية انقلب عدد من المراكب المفرطة الحمولة وغرق مئات الأشخاص.

كما توضح كل هذه الحالات، غالباً ما تقوّض نتائج غير مقصودة الجهود المبذولة لاتباع مسار أخلاقي في السياسة الخارجية. فلتحقيق نتائج أخلاقية، على صانع السياسة أن يقوم بما هو صحيح وأن يتمكّن من توقّع ما قد يكون. من الناحية المثالية يجب أن يتحلّى بضمير قدّيس، وحكمة فيلسوف، وبصيرة نبي. ونحن في الواقع نتقدّم بأفضل ما يمكننا ذلك على الرغم من النقص في الصفات الثلاث لدينا.

لا شك في أن أصعب قرارات السياسة هي تلك التي تحكم استخدام القوة. عندما كنت في منصبي، زرت القوات الأميركية التي تخدم في الوطن وفي العديد من الأراضي الخارجية. وحاولت في كل من هذه الزيارات أن أقوم بأكثر من مجرّد تقديم الشكر للجنود والبحّارة والطيارين الأميركيين. جلست معهم وتناولت الطعام معهم، واستمعت إلى قصصهم، وحاولت الإجابة عن أسئلتهم، وتفحّصت وجوههم. كنت أعرف أن أي إساءة للتقدير من جانبي قد تؤدّي إلى تدمير حياتهم، وإلى خسارة لا تعوّض بالنسبة لأحبّائهم.

في وزارة الخارجية، كنت أستطيع أن أشاهد من خلال نافذة مكتبي صفوف الشواهد الحجرية البيضاء في مقبرة آرلنغتون الوطنية وحشود زوّار الأنصاب التذكارية لحروبنا في كوريا وفيتنام. وكنت أسأل نفسي: متى يكون من الضروري الذهاب إلى الحرب؟ ما هي الظروف التي لا يوجد فيها أي خيار آخر؟ كيف يكون شعوري لو كنت جندية؟ كنت أعتقد لو أنني أصغر سناً، لأبديت استعداداً للخدمة العسكرية، ولاعتراني الخوف أيضاً. تلك عبارة مبتذلة، والحقيقة أن إصدار الأمر للجيش بالقتال أصعب قرار يمكن أن يتخذه رئيس أو يوصي به وزير للخارجية. من حسن الحظّ أن استخدام القوة لا يبرّر بسهولة. ومن المؤسف أنه لا يمكن اجتنابه في بعض الأحيان.

تخـــيلوا ردّ فعـــل العـــالم لو أن الرئيس جورج دبليو بوش توجّه إلى الشعب الأميركـــي ليلة 11 أيلول/سبتمبر 2001 وقال، "لا تقاوموا الشرّ: من ضربك على خـــدّك الأيمن أدر له الأيسر أيضاً". مع ذلك هل هناك ما هو طبيعي أكثر بالنسبة لـــرئيس مسيحي متديّن من الرجوع في وقت الأزمة إلى عظة الجبل طلباً للهداية؟ هل هناك ما هو منطقي أكثر بالنسبة للرئيس الأميركي من أن يطلب من المواطنين اللجوء إلى نصيحة فيلسوفهم السياسي المفضّل - يسوع الناصري - ويقترح عليهم مـــسامحة مـــن اعـــتدى على الولايات المتحدة؟ بدلاً من ذلك، فعل الرئيس بوش العكس، وتعهّد بالردّ بشدّة وتحميل الإرهابيين مسؤولية ما اقترفته أيديهم. هل كان ذلـــك نفاقـــاً؟ هـــل تـــرتكب حكومة ما إثماً في الردّ على الشرّ واستخدام القوة العسكرية التي تؤدّي إلى مقتل الأبرياء؟ أو هل الحكومات معفاة من أحكام الكتاب المقدس؟

لإيجـــاز قـــرون من الأبحاث بجملة واحدة، يتفق معظم الأشخاص على أن الحكـــومات لا يمكن إلزامها بمعيار الكتاب المقدّس، لكن ذلك لا يعني عدم وجود معايير. فقد أعلن تيان رانجو، العالم العسكري الصيني الأبرز قديماً، قبل نحو 2500 ســـنة، "إذا هاجمت بلداً بدافع حبّ شعب ذلك البلد، يكون هجومك مبرّراً، وإذا شـــننت حـــرباً لإنهاء حرب، فتلك الحرب مبرّرة أيضاً". وفي القرن الخامس، فكّر القـــدّيس أغسطين مليّاً في مسألة هل يمكن أن يبرّر المسيحي الذهاب إلى الحرب. وبعـــد ملاحظة المآسي التي ألحقها الغزاة البرابرة بالمواطنين الرومان، أجاب "نعم". الحرب مبرّرة "للدفاع عن الآخر المعرّض للخطر". وفيما بعد طوّر علماء (أبرزهم تـــوما الأكويني وهوغو غروتيوس، مهندس القانون الدولي) على مرّ الزمن مجموعة من المعايير التي شاعت الإشارة إليها بأنها مذهب "الحرب العادلة"، وينعكس جانب كـــبير منها اليوم في اتفاقيات جنيف وغيرها من الوثائق القانونية الدولية العلمانية. وتـــسعى المعـــايير إلى تحديد ما هو ضروري أخلاقياً قبل الحرب وفي أثناء خوضها على السواء.

"الحـــرب العادلة" على العموم حرب تشنها سلطة مؤهّلة ذات نوايا أخلاقية مـــن أجل قضية حقّة. ويجب أن يكون للمسعى حظٌّ معقولٌ من النجاح، مع توقّع

ألا ينتج عنها ضرر أكبر من الجرح الذي أحدثها. وعلى من يأمر بالأعمال العسكرية أن يميز بين المحاربين وغير المحاربين ويسعى لتجنب إحداث أضرار غير ضرورية. وعلى الحكومة قبل الذهاب إلى الحرب أن تستعرض كل الخيارات الأخرى بشكل شامل ونية حسنة.

للبلدان أيضاً الحقّ في الدفاع عن نفسها. ويدعو ميثاق الأمم المتحدة كل الدول الأعضاء إلى محاولة تسوية نزاعاتها بطرق سلمية، وعند الإخفاق في ذلك، إحالة المسائل إلى مجلس الأمن من أجل اتخاذ الإجراء المناسب. وتنصّ المادة 51 على أنه ليس في الميثاق "ما يضعف أو ينتقص الحقّ الطبيعي للدول، فرادى أو جماعات، في الدفاع عن أنفسها إذا اعتدت قوة مسلّحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي". ومن الناحية العملية، تتخذ البلدان بشكل متكرّر إجراءات تتجاوز هذه المبادئ التوجيهية، فتستثير إدانة من الأمم المتحدة أحياناً ولا تستثيرها أحياناً أخرى. وعلى الرغم من هذه الانتهاكات، تبقى معايير الميثاق صالحة، مثلما تبقى القوانين ضدّ الجرائم صالحة على الرغم من استمرار ارتكاب الجرائم.

مع أن أصول معظم القواعد التي تحدّ من استخدام القوة موجودة في التراث الديني، فإن هذه القواعد ليست صارمة بالشكل الكافي لترضي كل من يعلن التزامه بمعتقد ديني. في ربيع 2004، ألقيت كلمة عن الدين والسياسة الخارجية الأميركية أمام جمهور من كلية اللاهوت في يال. وقد دعا محرّرو مجلة الكلية الخبراء للردّ، فتلقّيت رسالة من ستانلي هاورواس الذي اعتبرته مجلة "تايم" ذات يوم "أفضل عالم لاهوت في أميركا".

كتب هاورواس لا ليحتجّ على موضوع كلمتي بقدر احتجاجه على الفكرة - غير المعقولة بالنسبة إليه - التي قد يكون لديّ قدر من الاهتمام في عرضها على طلاب الدين. قال إن سجلّي في الحكومة "غير جدير بالاحترام البتّة"، وأن "كوني مسيحية... يجعل من الصعب، ولكن من غير المستحيل، أن أكون وزيرة للخارجية الأميركية". وبالنسبة إلى هاورواس، النزوع إلى السلم جزء جوهري من أن تكون مسيحياً. وهو يرى أن الأميركيين الذين يقاتلون أو يدعمون العمل

العسكري لا يحقّ لهم البتّة أن يدّعوا المسيحية. وأنا أفهم منطقه، لكنني لا أقبله. فما مـــن قصّة تبعث على الراحة النفسية أكثر من مثال المسيح الذي مات وهو يسامح قاتلـــيه في الـــوقت نفسه. غير أن مغزى مذهب "الحرب العادلة" هو أن الأعمال العسكرية تكون ضرورية أحياناً لأسباب أخلاقية. ويرفض هاورواس هذا المذهب لأنه يقول إنه يُستخدم لتبرير الكثير من الحروب، وهو محقّ في ذلك. لكن المذهب الـــسليم لا يصبح معيباً بسبب إساءة استخدامه أحياناً. ربما يشعر هاورواس بعدم أهمـــية من يربح المعارك هنا على الأرض، لأننا جميعاً في النهاية بين يدي الله؛ لكنه قادر على اعتبار حرّيته أمراً مسلّماً به بسبب الأعمال العسكرية الأميركية السابقة.

كـــنت كلمـــا ارتـــدت الكنيسة في أثناء شغل منصبي أسمع، "مباركون صناع السلام"، فآخذ الأمر على محمل الجدّ. إنني أقدّر السلام وأحترم غاندي والكويكرز[1] والـــدعاة الآخـــرين للمقاومة غير العنيفة، لكن عندما أفكّر في هتلر وحوادث التطهير العرقـــي والإبـــادة الجماعـــية الكثيرة لا يسعني الموافقة على أن اللاعنف هو المسار الأخلاقي الأفضل على الدوام. في بعض الظروف لا تكون النتائج مقبولة. وهنا أيضاً تـــشكل آرائي انعكاساً لتراثي. لقد نوقشت محاسن المقاومة المسلّحة ومساوئها بشكل مكـــثّف في جمهورية تشيكوسلوفاكيا بين الحربين العالميتين. فأعلن الرئيس ماساريك بانفعـــال أن معنى تاريخ تشيكوسلوفاكيا وديمقراطيتها يمكن إيجاده في حياة المسيح، لا قيصر. غير أنه كتب أيضاً أن "الحرب ليست أعظم الشرور. العيش دون كرامة، وأن تكون عبداً، وأن تَستعبِد، وكثير من الأشياء الأخرى أسوأ بكثير". وفي سن الثمانين، أبلـــغ الروائـــي جون غالسوورثين "مع أنني مسن، إذا هاجمني أحدهم فسألتقط طوبة بهـــاتين الـــيدين العاجزتين وأرميه بها". أحياناً تكون الطريقة الوحيدة لتحقيق السلام القتال من أجله.

لا يعـــني ذلـــك أن قرار المبادرة إلى استخدام القوة يجب اتخاذه بدون تفكير عمـــيق. فالعـــنف يلحق الضرر بمن يستخدمه وأيضاً بمن يُستخدم ضدهم. ومن

---

(1) أعضاء جمعية الفرندز، وهي طائفة مسيحية أسسها جورج فوكس في القرن السابع عشر تـــرفض الاحـــتفالات المقدّســـة والطقوس والمناصب الدينية الرسمية، وتناهض الحرب والعنف. المترجم.

المــرجّح أيضاً أن يؤدي إلى نتائج، كارثية أحياناً، لم تكن منظورة. ومثلما تذكّرنا قــصة مارك توين المُحزنة *War Prayer* "دعاء الحرب"، فإن الدعاء للنصر في الحرب يعــادل طلــب نـــزول الأهوال على الأبرياء في الجانب المناوئ. لكن لا يمكن الهروب من واجب القيادة: محاولة انتقاء خيارات أخلاقية على الرغم من الصعوبة الهائلة للقيام بذلك، مع المخاطرة بأن تكون خاطئة.

في الــسنين الأخــيرة، كان على الولايات المتحدة أن تواجه مسألة "الحرب العادلــة" في أفغانــستان والعــراق. وكوزيرة للخارجية، واجهت تحدّياً مماثلاً في البلقان. ففي وقت مبكّر من التسعينيات من القرن الماضي، أطلق الدكتاتور الصربي سلوبودان ميلوسوفيتش ثلاث حروب فاشلة: ضدّ سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة. وفي ســنة 1999، صــبّ حقــده على الغالبية الإثنية الألبانية في كوسوفو، وهي أحد الأقالــيم في صربيا. استعرضت لمدّة عام كلّ طريق ممكن لتأمين تسوية دبلوماسية تحتــرم حقوق الجانبين. وافق الألبان على اقتراحنا في النهاية، ورفضه ميلوسوفيتش وأطلق بدلاً من ذلك قواته الأمنية ضدّ السكان المدنيين. كان يرمي إلى طرد الألبان مــن كوســوفو عن طريق قتل زعمائهم، وحرق قراهم، ونشر الإرهاب. وهدفه "حلّ" مشكلة كوسوفو للمرّة الأخيرة.

بما أن الإقليم جزء من صربيا، لم يكن يمكن وصف جرائم ميلوسوفيتش بأنها عــدوان دولي. لم يتعــرّض أي عــضو في حلف شمال الأطلسي للهجوم، لذا لا يستطيع الحلف أن يدّعي حقّ الدفاع عن النفس. ولم تهدّد صربيا بلداً آخر، لذا لا يــوجد مــبرّر لضربة وقائية. لكن كان لدينا واجب "الدفاع عن الآخر المعرّض للخطر". أصدر مجلس الأمن الدولي قراراً يطلب انسحاب القوات الصربية المغيرة؛ لكــن الدبلوماســيين الروس، المتعاطفين تاريخياً مع أصدقائهم السلاف، تعهّدوا باستخدام حقّ النقض ضدّ أي تدبير يفوّض استخدام القوة ضدّهم.

تــرك ذلك إدارة كلينتون وحلف شمال الأطلسي أمام خيار صعب. السماح للــتهديد الروســي باستخدام حقّ النقض أن يمنعنا من العمل، أو استخدام القوة لإنقــاذ شــعب كوسوفو حتى بدون إذن صريح من الأمم المتحدة. ضغطت بقوة ونجــاح لاعــتماد الخيار الثاني. وكانت أسبابي استراتيجية جزئياً: لن تحقّق أوروبا

السلام الكامل ما دام البلقان غير مستقرّ، ولن يتحقّق الاستقرار في البلقان ما دام ميلوسوفيتش في السلطة. غير أن دافعي الأساسي كان أخلاقياً: لم أكن أريد أن أشاهد شعباً بريئاً وهو يُقتل. وفّر لنا وجود حلف شمال الأطلسي في أوروبا وسيلة لوقف التطهير العرقي في تلك القارة، وكنت آمل أن نتمكّن بفعل ذلك من المساعدة في تجنب أعمال عدائية مماثلة في أمكنة أخرى. كان ذلك في الواقع أحد الأوقات التي يجب ألا يستند فيها موقفنا على ما هو آمن وإنما على ما هو صحيح، وذلك ترداد لصدى كلمات مارتن لوثر كنغ جونيور.

بما أننا كنا نفتقر إلى تفويض محدّد من الأمم المتحدة للقيام بعمل عسكري، فقد بذلنا جهوداً مضنية لإيضاح عدالة قضيّتنا. أولاً، أمّنت إدارة كلينتون دعم حلف شمال الأطلسي بالإجماع. ثانياً، بقيت على اتصال دائم مع الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان الذي اتّفق معنا علناً على أن الأعمال الصربية غير مقبولة أخلاقياً. ثالثاً، في أثناء الحرب نفسها، تمّ التدقيق في أهداف حلف شمال الأطلسي من قبل محامين عسكريين قارنوا كلاً منها مع المعايير الواردة في اتفاقيات جنيف. وفي كل حالة كان يصدر حكم بشأن هل أن قيمة الهدف تفوق المخاطر المحتملة على المدنيين.

مع تقدّم الحرب، شدّدنا الضغط العسكري على بلغراد، في حين واصلنا توخّي العناية لتقليل الإصابات غير الضرورية. وقد ضُربت ثلاثة أهداف مدنية (السفارة الصينية وقطار للركّاب وقافلة للاجئين) عن طريق الخطأ. وتراوحت تقديرات عدد المدنيين الذين قُتلوا بالقصف بين 500 و2.000 شخص. وكان الصرب قد قتلوا قبل أن يتم وقفهم ما يقدّر بـ 10.000 ألباني في كوسوفو وطردوا مئات من الآلاف من ديارهم. واصلنا طوال الحرب مساعينا الدبلوماسية لإحلال السلام. وقد نجحت هذه المساعي في النهاية. استسلم ميلوسوفيتش وسحب الصرب قواتهم الأمنية من كوسوفو، وسُمح للاجئين بالعودة، وأُدخلت قوة حفظ للسلام بقيادة حلف شمال الأطلسي، ونظّمت الأمم المتحدة جهود إعادة الإعمار التي أتنحت منذ ذلك الوقت عدّة جولات من الانتخابات الديمقراطية.

غُرست بذور النـــزاع في كوسوفو، كما في الحروب السابقة التي نشأت عن تفكّك يوغسلافيا، في التاريخ الديني للمنطقة. ففي الدفاع عن قضية صربيا، أبلغـــني ميلوســـوفيتش أن شعبه كان قد أمضى قروناً وهو يدافع عن "أوروبا المـــسيحية". وتمـــثّل القصّة الوطنية الملحمية لصربيا سرداً لمعركة كوسوفو التي خيـــضت ضـــدّ العثمانـــيين الأتراك في ميدان الشحارير في سنة 1389. ووفقاً للأســـطورة، ظهر النبي إيليا على الأمير الصربي لازار في اليوم الحاسم. فعرض إيلـــيا علـــى الأمير الاختيار بين النصر في المعركة (وإمبراطورية دنيوية) والهزيمة (والتعويض عنها بمكان في الجنة). اختار الأمير النصر الدائم في الجنة. إنها قصّة ملهمـــة لعـــبت دوراً في قـــرار صربيا الشجاع بمقاومة النازيين في أثناء الحرب العالمـــية الثانـــية[1]. وتكمن المشكلة في أن بعض الصرب حافظوا على نيّة الثأر لهـــزيمة كوســـوفو لمـــدة أكثر من 600 سنة، يدفعهم إلى ذلك الشعور الشديد بالوطنية واعتقاد بعلاقتهم الخاصة مع الله.

شخّص فاكلاف هافل الحرب التي تدور رحاها في كوسوفو كما يلي:

إذا كـــان بوســـع امرئ القول إن أي حرب هي أخلاقية، أو أنها تخاض لأســـباب أخلاقـــية، فـــإن ذلـــك ينطبق على هذه الحرب. فكوسوفو [خلافاً للكـــويت] لـــيس لديها آبار نفط تُشتهى؛ وليس لأي بلد عضو في الحلف أي مطالـــب إقليمية؛ وميلوسوفيتش لا يهدّد السلامة الوطنية لأي عضو في الحلف. ومـــع ذلـــك فـــإن الحلف يخوض الحرب. إنه يحارب بدافع القلق على مصير الآخـــرين. إنـــه يحارب إذ ما من شخص محترم يستطيع الوقوف والتفرّج على القـــتل المنهجـــي لشعب آخر بتوجيه من الحكومة... هذه الحرب تضع حقوق الإنسان فوق حقوق الدول.

---

(1) عندما اختار زعماء صربيا المدنيون التعاون، أطاح بهم الجيش. وفي بثّ إذاعي، شرح البطريـــرك الأرثوذكسي الصربي قرار المقاومة: "تطرح مسألة المصير نفسها ثانية أمام أمّتـــنا فـــي هذه الأيام. وقد حظي هذا السؤال بجواب فجر هذا اليوم. لقد اخترنا ملكوت الـــسماوات – ملكوت الحقّ والعدل والقوة الوطنية والحرية. إن قلوب كل الصرب تحمل تلك الفكرة الأزلية المحفوظة في مزارات كنائسنا والمكتوبة على راياتنا". ورداً على هذا الخيار الشجاع، غزا النازيون صربيا – لكنهم واجهوا قتالاً شرساً من الأنصار الصرب.

يوافق معظمنا على أن الأخلاق، على الرغم من صعوبة تحديدها في الغالب، ضرورية إذا ما أردنا الانسجام بعضنا مع بعض. وسنشعر بمزيد من الأمن في عالم يخدم فيه الضمير مرشداً أساسياً لأعمال الأمم والأفراد على السواء. لكن ماذا عن الدين؟ ربما يكون للدين أكبر الأثر في تشكيل الضمير الإنساني، ومع ذلك فإنه مصدر من مصادر النزاع والكراهية أيضاً. وبعد ما شهدناه في البلقان ومناطق أخرى مزّقها النزاع القائم على المعتقد، هل الدين أيضاً شيء نحتاج إليه بكثرة؟

الفصل الخامس

المعتقد والدبلوماسية

"سيكون هذا العالم أفضل العوالم الممكنة إذا لم يكن فيه أي دين"! هكذا كتب جون آدامز إلى توماس جيفرسون. ويظهر هذا الاقتباس المعروف جيداً لدى الملحدين مختلفاً قليلاً عند وضعه في سياقه. فيما يلي الفقرة كاملة:

> وصلت عشرين مرّة في سياق قراءتي الأخيرة إلى نقطة الانفجار صائحاً، "سيكون هذا العالم أفضل العوالم الممكنة إذا لم يكن فيه أي دين"! لكنني أبدي في هذا التعجّب... تعصّباً... فهذا العالم بدون دين سيكون غير ملائم لكي يُذكر في صحبة مهذّبة، أعني سيكون جحيماً.

في أغنية Imagine (تصوّر)، حثّنا جون لينون على أن نحلم بعالم خالٍ من المذاهب الدينية. والدين بالنسبة إلى العديد من غير المؤمنين ليس حلاً لأي شيء. وهم يرون أن الناس يلحقون التعاسة والشقاء بعضهم ببعض باسم الله. وتشير الدراسات إلى أن الحروب ذات المكوّن الديني تدوم مدّة أطول ويخاض فيها القتال بشراسة أكبر مما يخاض في النزاعات الأخرى. وكما لاحظ كاتب العمود الليبرالي اللاذع إ. ف. ستون، "قُطعت كثير من الرقاب باسم الإله على مرّ العصور، وانخرط الإله في العديد من الحروب. ولم تكن الحرب التي تشن للهو أو النهب سيئة قطّ بقدر الحروب التي تشن لأن معتقد بعض الناس 'غير قابل للتآلُف' نظريّاً مع معتقد أناس آخرين".

يكمن خطأ هذا المنطق في أنه على الرغم من معرفتنا بما يبدو عليه العالم المبتلى بنزاع ديني، فإننا لا نعرف ما سيكون عليه العيش في عالم تغيب عنه المعتقدات الدينية. غير أن لدينا تلميحات من لينين وستالين وماوتسي تونغ، ويمكنني إضافة النازيين أيضاً، الذين استحضروا فيها المسيحية الفاقدة للروح التي أنكرت الجذور اليهودية للملك المعتقد وشهّرت بها. من السهل لوم الدين – أو إذا

توخينا مزيداً من الإنصاف، ما يفعله بعض الأشخاص باسم الدين - على كل مشاكلنا، لكن ذلك تبسيط شديد. الدين قوة هائلة، غير أن تأثيرها يتوقّف على تماماً على ما تلهم الناس القيام به. والتحدّي الذي يواجه صناع السياسة هو استغلال الإمكانات التوحيدية للدين، واحتواء قدرته على إحداث الانقسام في الوقت نفسه. ويتطلّب ذلك، على أقلّ تقدير، أن نجد المسائل الروحية موضوعاً يستحقّ الدراسة. وفي الغالب، كما يلاحظ عالم اللاهوت الكاثوليكي بريان هيهير، "هناك افتراض بأن ليس عليك أن تفهم الدين لكي تدرك العالم. عليك أن تدرك السياسة والاستراتيجية والاقتصاد والقانون، لكن ليس عليك أن تفهم الدين. وإذا ما ألقيت نظرة على الكتب الدراسية القياسية للعلاقات الدولية أو طريقة تنظيم وزارة الخارجية لدينا، لا تجد مكاناً يتمّ التعامل فيه مع الفهم المتطوّر للدين كقوة عامة في العالم".

لاستباق الأحداث بدلاً من مجرّد الاستجابة إليها، يحتاج الدبلوماسيون الأميركيون إلى الأخذ بنصيحة هيهير والتفكير بدون تحفّظ بدور الدين في السياسة الخارجية وفي حاجتهم إلى الخبرة. عليهم أن يطوّروا القدرة على معرفة أين تساهم المعتقدات الدينية في النزاعات وكيف ومتى تُتوسّل المبادئ الدينية لتخفيف النزاعات. وعليهم أيضاً إعادة توجيه مؤسسات السياسة الخارجية الأميركية لتأخذ في الحسبان تماماً القوة الهائلة للدين في التأثير على كيفية تفكير الناس وشعورهم وتصرّفهم. وتوجد كل أمارات هذا التأثير من حولنا في حياة أناس من معتقدات عديدة مختلفة. ولإيضاح ذلك، سأقدّم ثلاث قصص.

زرت بولندا في سنة 1981؛ كان ذلك في أثناء السنة الثانية من انتفاضة حركة التضامن ضدّ الحكومة الشيوعية. وكنت قد درست طويلاً أوروبا الوسطى والشرقية، حيث لم يكن قد تغيّر الكثير طوال عقود. وبدا في هذا الوقت أن المنطقة بأكملها تنهض من نوم عميق. ورجع ذلك في جانب كبير منه إلى أن البابا يوحنا بولس الثاني عاد في وقت سابق إلى موطنه بولندا للمرّة الأولى. وجسّد البابا، الأستاذ والكاهن وأسقف كراكوف سابقاً باسم كارول وُيتيلا، الدور الواسع الذي لعبه الدين في تاريخ بولندا. وفي حين أملى القادة الشيوعيون ما يستطيع أن

يقـــوم بـــه الـــبابا، كان كهنة الأبرشية في كل ركن من أركان البلاد لا يزالون يـــتحدّثون بما يؤمن به البولنديون. شعرت الحكومة بالخوف من الزيارة الوشيكة للـــبابا، فأرســـلت مذكـــرة إلى معلّمي المدارس تقول فيها إن يوحنا بولس الثاني "عدوّنا" وتحذّر من المخاطر التي تشكلها "مهاراته غير العادية وحسّه الفكاهي". مع ذلـــك ارتكبت السلطات خطأً تكتيكياً بالسماح لمسؤولي الكنيسة بتنظيم الزيارة، وأتاحت لهم فرصة ترتيب سلسلة من الاتصالات بين "بابا الشعب" وشعب البابا.

من الألقاب التي تطلق على أسقف روما "بونتيفكس ماكسيموس"، أي باني الجـــسور الأعظم. وفي بولندا، ساعد يوحنا بولس الثاني في بناء جسر أعاد في نهاية المطاف الصلة بين شرق أوروبا وغربها. وبدلاً من الحجارة، استعمل كلمات منتقاة بعناية لكشف بطلان جوهر النظام الشيوعي، ورأى أنه إذا كان على الناس الوفاء بمـــسؤوليتهم بالعيش وفقاً للمبادئ الأخلاقية، فيجب أن يكون لديهم حقّ القيام بذلك أولاً. وعبّر بصراحة عن قناعته بأن النظام الشمولي لا يستطيع البقاء إذا تحلّى البولنديون بالشجاعة للامتناع عن التعاون. وقبل كل شيء، حثّ أبناء وطنه على عـــدم الخـــوف – وهـــو طلب بسيط ذو تأثير هائل. استمدّ المستمعون القوة من بعـــضهم بعضاً ببطء في البداية، ولكن تعاظم الزخم بعد ذلك. لم يعودوا منفصلين في مجمـــوعات صغيرة يمكن السيطرة عليها، فلقي هاجس الشيوعيين بعزل الأفكار الخطـــيرة ما يضاهيه. ووجد المستمعون الواقفون وسط حشود ضخمة في بعضهم بعـــضاً الـــصفات التي جعلتهم يباهون بأنهم بولنديون – الإيمان بالله والاستعداد لـــركوب المخاطر من أجل الحرية. لقد أشعلت زيارات البابا – فقد قام بغير زيارة واحدة – ثورة الروح التي حرّرت بولندا، وأسقطت جدار برلين، وأعادت توحيد أوروبا، وغيّرت وجه العالم.

ساعد البابا الشعب البولندي في التغلّب على خوفه. ويروي بوب سيبل، وقد عمل معي في وزارة الخارجية كأوّل سفير أميركي متجوّل للحرية الدينية الدولية، قصّة ثانية عن التغلّب على الكراهية. تتعلّق القصّة بماري، وهي شابة لبنانية التقاها في أثناء عمله كرئيس لووولد فيجن، الهيئة المسيحية للإغاثة والتنمية. في الثمانينيات من القرن الماضي، كان لبنان مسرحاً لحرب أهلية مدمّرة ومتعدّدة الأطراف. كانت

ماري تعيش في قرية معظم سكانها من المسيحيين، وقد هربوا جميعاً عندما هاجمتها ميليشيا مسلمة. تعثّرت ماري بجذر شجرة فسقطت على وجهها. وفيما كانت تنهض على ركبتيها، وضع شاب لا يزيد عمره على العشرين فوّهة المسدّس على صدغها وأمرها قائلاً، "تبرّئي من الصليب وإلا قتلتك". لم تجزع ماري وأجابت، "لقد ولدت مسيحية، وسأموت مسيحية". انطلق المسدّس فاخترقت رصاصة عنق ماري وعمودها الفقري. وبدون رحمة حفر المسلّح بحربته صليباً على صدرها ثم تركها لتموت.

في اليوم التالي، عادت قوات الميليشيا وأعدّت لاحتلال القرية. وفيما كانوا ينقلون الجثث، عثروا على ماري حية لكنها لا تقوى على الحركة لأنها مشلولة. وبدلاً من الإجهاز عليها، نقلها رجال الميليشيا إلى المستشفى على حمّالة مرتجلة مصنوعة من خشب وقطعة قماش. ويتابع سيبل:

> كنت أتحدث إلى ماري وأنا أجلس مقابلها، فقلت، "هذا ليس له معنى إطلاقاً يا ماري. هؤلاء أشخاص حاولوا قتلك. فكيف يمكن أن ينقلوك إلى المستشفى في اليوم التالي"؟
>
> فقالت، "أحياناً يتعلّم الأشرار القيام بأعمال خيرة".
>
> فقلت، "كيف تشعرين يا ماري حيال من أطلق النار عليك؟ ها أنت امرأة عربية في أرض احتلّت مرّتين في الوقت نفسه – الإسرائيليون في الجنوب، والسوريون في كل مكان آخر – تجلسين على كرسي مدولب حيث يحتجزك جسدك رهينة، وتخضعين لوصاية الدولة ما تبقّى من حياتك. كيف تشعرين حيال من أطلق النار عليك"؟
>
> قالت ماري، "لقد سامحته".
>
> كيف يمكن أن تسامحيه يا ماري"؟
>
> "لقد سامحته لأن ربّي سامحني. الأمر بهذه البساطة".

يرى سيبل أن هناك درسين يمكن استقاؤهما من هذه القصّة. الأول أن هناك أشخاصاً مستعدّون للموت – والقتل – من أجل دينهم. وهذا يصحّ قبل آلاف السنوات بقدر ما يصحّ اليوم. والدرس الثاني هو أن الدين يعلّم، أحسن الأحوال

التسامح والمصالحة، لا عندما تكون تلك الأفعال سهلة نسبياً وإنما أيضاً عندما تكون صعبة بشكل لا يصدّق (لا حاجة بي إلى القول إن ماري أكثر تسامحاً من معظم الناس – وأنا من ضمنهم).

القصّة الثالثة تتعلّق بصبي ذي عينين حزينتين التقيت به ذات بعد ظهر يوم قائظ في كانون الأول/ديسمبر 1997 في أثناء رحلتي الأولى إلى إفريقيا كوزيرة للخارجية. بدا الصبي في الخامسة من عمره وتحدّث بهدوء بصوت خالٍ من العاطفة. أبلغني أن قريته الصغيرة التي تعيش فيها أسرته تعرّضت لهجوم قبل أسبوعين. ألقته أمّه على الأرض وحمته بجسدها. وعندما هدأت الأمور، تملّص من تحت أمّه ونظر إليها فوجدها ميتة. كانت هناك جثث أكثر من اثنتي عشرة امرأة غارقات بدمائهن. سمع الصبي بكاء رضيع؛ إنها شقيقته ممدّدة بين الجثث. حمل الصغيرة بين ذراعيه ومشى. مضت ساعات والصبي يسير بعناء فوق التلال والصخور والصغيرة تبكي. وفي النهاية وصل إلى مكان عرف من خبرته أنه سيكون فيه موضع ترحاب وستقدّم إليه الحماية.

كان ذلك المكان غولو، وهي بلدة في ناحية نائية من شمال أوغندا. كانت هيئة وورلد فيجن تدير مخيماً ومستشفى هناك – ملاذاً للقرويين المحليين الذين يتعرّضون لترهيب مجموعة ميليشيا خارجة على القانون. ففي أثناء العقد السابق، اختطف نحو 8,000 طفل، واعتُبر أن معظمهم قُتلوا. أُكرِه الصبية الذين بقوا على قيد الحياة على الخدمة العسكرية في وحدات متمرّدة، وأخذت الفتيات خادمات أو "زوجات".

لام المسؤولون عن المخيم قادة المتمرّدين الذين حرّفوا الدين إلى شيء غريب. فقد بدأت المأساة في سنة 1986 عندما هدّد تغيّر في الحكومة امتيازات قبيلة أكولي التي كانت مهيمنة فيما مضى. الخوف دافع قوي، وقد خشيت قبيلة أكولي من الاقتصاص منها بسبب الإساءات العديدة التي ارتكبتها عندما كانت في السلطة. جاء منقذ محتمل متخذاً شكلاً بعيد الاحتمال لامرأة في الثلاثين من العمر تدعى أليس أوما؛ زعمت هذه المرأة أنها تستطيع الاتصال بالأرواح – وهو زعم نادر لكنه غير فريد في ثقافتها. أبلغت أصحابها بأن روح ضابط إيطالي قتيل تستحوذ

علـــيها وأنها أمرتها بتنظيم جيش لإعادة الاستيلاء على العاصمة الأوغندية كمبالا. وعـــند تحقـــيق النصر، كما أمرت الروح، على قبيلة أكولي تطهير نفسها بالسعي للغفـــران. انطلقت حملة أوما المقدّسة لكنها كانت تفتقر إلى القوة العسكرية التي تتوافق مع إلهامها الخارق للطبيعة. وبعد أن أصابت بعض النجاحات في البداية، تمّ ســحق الحـــركة - المسلّحة بالعصي والحجارة ودمى الفودو (السِّحْر والمعتقدات الـــسحرية). ووجـــدت أوما، بعدما لم تعد روح الضابط الإيطالي تستحوذ على عقلها، لاجئة عبر الحدود في كينيا.

كـــان يمكـــن أن ينهي ذلك القصّة لو لم يقرّر جوزيف كوني، ابن أخ أوما، الـــنهوض بقضية الحرب المقدّسة. فجمع قوة صغيرة من مجموعات متمرّدة مختلفة وأنشأ ما أصبح يعرف باسم جيش الربّ للمقاومة. ومنذ سنة 1987، عمد جيش الـــربّ إلى مهاجمة القرويين في كل أنحاء المنطقة، مستهدفاً أيضاً الحكومات المحلية وعمّال الإغاثة. ولأن كوني وجد صعوبة في السيطرة على البالغين وتجنيدهم، صار يخـــتطف الأطفـــال كوسيلة للحصول على الجنود. كان الأطفال عندما يؤسرون يجـــبرون علـــى الطاعـــة وإلا تعرّضوا للقتل، والطاعة تتطلّب الاستعداد لقتل أي شـــخص، بمن في ذلك بعضهم بعضاً. واتخذ التأديب شكل الضرب والجلد والبتر اســـتناداً إلى قراءة زعيمهم للعهد القديم. وهدف جيش الربّ المعلن هو الإطاحة بالحكـــومة الأوغندية واستبدالها بحكومة تقوم على الوصايا العشر - أو عشرة زائد واحـــد. والوصية الحادية العشرة أضافها كوني لتقييد تحرّكات أخصامه، وهي "لا تُقدْ درّاجة".

حـــافظ جيش الرب، وهو نتاج الخوف، على بقائه لمدّة عشرين عاماً بزرع الخوف في نفوس الآخرين. وتراوحت جهود الحكومة الأوغندية بين إقامة سلام مع جيش الربّ ومحاولات تدميره، لكن المسؤولين يفتقرون إلى الموارد لحماية القاطنين في جـــوار القـــوة المتمرّدة. وتركت تلك المهمة إلى هيئة وورلد فيجن ومجموعات مماثلـــة ذات موارد محدودة أيضاً، كما شاهدت في أثناء زيارتي للمخيم في غولو. ذكّـــرني المحـــيط بصور رأيتها في حرب القرم. كانت تفوح من مستشفى المخيم رائحـــة المطهّر والبراز. كانت أكياس المصل القديمة تقطر، والبعوض يطن في كل

مكان. وهناك مئات من المرضى معظمهم من الأطفال، كثير منهم تغطّيه الكدمات والندوب، وبعضهم فقد طرفاً. التقيت بمجموعة من الفتيات المراهقات جالسات على فرش وتمشّط كل منهن شعر الأخرى. يَبْدُوْن كأنهن يرتدن مدرسة متوسطة، ومع ذلك كان العديد منهن أمّهات لأطفال آباؤهم مغتصبين من جيش الربّ. قالت إحدى الفتيات، وكانت ترتدي تي شيرت يحمل صورة لميكي ماوس، "حتى لو كنت فتاة صغيرة جداً، فستُمنحين إلى رجل بعمر والدك".

وعندما هممت بالمغادرة، قدم إلي شاب يحمل طفلة صغيرة. "هذه هي الفتاة التي أحضرها إلينا الصبي الصغير، إنها شقيقته الصغيرة واسمها تشَريتي". عندما حملتُ اليتيمة الصغيرة، أبلغت أن الفتاة أسميت تيمّناً بإحدى المتطوّعات في البعثة. وكان هناك العديد من هؤلاء المتطوّعات. لقد كان مكاناً مليئاً بالمعاناة الرهيبة والمرح العابر. كان المرضى والمتطوّعون يضحكون ويغنون ويلعبون ويهتمّ بعضهم ببعض. وعلمت أن الطبيب الإيطالي الذي يدير المستشفى موجود في غولو منذ ما يزيد على عشرين سنة. يا له من تباين بين الإيمان الذي يتجلّى في مثل هذه المحبّة والخيالات المنحرفة التي يتبعها جيش الربّ للمقاومة[1].

من المعاني العميقة في هذه القصص وفي المعتقدات الدينية في الغالب على العموم أننا نشترك في صلة قربى بعضنا مع بعض، أياً تبدو بعيدة أحياناً؛ فقد خلقنا جميعنا على صورة الله. وذلك بدوره يحمّلنا مسؤولية تجاه جيراننا. ويوفّر ذلك المبدأ أساساً متيناً للدين وقاعدة محترمة لتنظيم شؤون المجتمع العلماني. لكن إمكانية تفسير الدين بطرق تنكر على أعداد كبيرة من الأشخاص ادّعاء صلة القربى هي التي تعقّد الأمور. ويستطيع المتشرّبون للعقيدة الدينية - مثل البابا يوحنا بولس الثاني، وماري التي تحدّث عنها بوب سيبل، والمتطوّعين في غولو - التأكيد "بأننا جميعاً أبناء الله"، لكن قد يتّبع آخرون معتقداتهم للوصول إلى نتيجة أكثر إثارة للجدل - "أنا على حقّ وأنت على باطل، واذهب إلى الجحيم"!

(1) في تشرين الأول/أكتوبر 2005، أصدرت المحكمة الجنائية الدولية مذكرات اعتقال لجوزيف كوني وأربعة من قادة جيش الربّ بتهمة ارتكاب جرائم ضدّ الإنسانية. غير أن المحكمة ليس لديها قدرة مستقلة على تنفيذ هذه المذكرات.

عـــندما شاركت في ندوة مع الكاتب والمفكّر اليهودي إيلي ويزل، وهو من الـــناجين مـــن المحرقة، تذكّر كيف طُلب من مجموعة من العلماء تسمية الشخصية الأكثر تعاسة في الكتاب المقدّس. سمّى بعضهم أيوب بسبب المحن التي تحمّلها. وقال بعـــضهم موسى لأنه حُرم من دخول الأرض الموعودة. وقال بعضهم مريم العذراء لأنهـــا شهدت موت ابنها. ورأى ويزل أن أفضل الأجوبة قد يكون الله (سبحانه وتعـــالى)، بسبب الأسى الذي يسبّبه تقاتل الناس بعضهم مع بعض وقتلهم بعضهم بعضاً وإساءتهم إلى بعضهم بعضاً باسمه.

لذلك سعى العديد من ممارسي السياسة الخارجية - بمن فيهم أنا - إلى فصل الـــدين عـــن عالم السياسة، وتحرير المنطق من المعتقدات التي تتجاوز المنطق. من الـــصعب في الـــنهاية تقـــسيم الأرض بين مجموعتين على أساس الحقّ القانوني أو الاقتصادي، ومن الأصعب بكثير إذا زعم أحدهما أو كلاهما أن الله أعطاهما الأرض المعنـــية. لكن الدوافع الدينية لا تختفي لأنها لا تذكر، فهي تبقى في الغالب هاجعة لتـــبرز ثانية في اللحظة الأقل ملاءمة. والولايات المتحدة لا تدرك ذلك جيداً، كما تعكـــس تجربتنا في إيران. ولكي يلعب صناع السياسة الأميركية دوراً قياديّاً على الصعيد الدولي، عليهم أن يتعلّموا قدر ما يمكنهم عن الدين ثم يُدخلوا هذه المعرفة في اســـتراتيجيتهم. وقد قارن بريان هيهير هذا التحدّي بجراحة الدماغ - إنها عمل ضروري لكنها مميتة إذا لم تجرَ بشكل جيد.

التـــسوية تـــصبح ممكنة في أي نـــزاع عندما يتوقّف المتخاصمون عن تجريد بعضهم بعضاً من الصفات الإنسانية ويبدأون برؤية شيء من أنفسهم في عدوّهم. ولـــذلك يعتبر الطلب من كل جانب وضع نفسه في موضع الآخر أسلوباً تفاوضيّاً قياسياً. وذلك ليس صعباً في الغالب بقدر ما يبدو عليه. فمجرّد تقاتل الخصوم من أجـــل القـــضية أو الجائـــزة نفـــسها يمكن أن يوفّر أرضية مشتركة. فقد تنافس البروتـــستانت والكاثوليك طوال قرون على الهيمنة الدينية في أوروبا. وذلك وجه الـــتماثل بيـــنهما: الرغبة في الحصول على الصدارة. وسعى المسيحيون والمسلمون والـــيهود مدّة أطول وراء ادعاءات متنافسة في القدس، وتلك أيضاً نقطة تماثل - الـــرغبة في احتلال المكان نفسه. ويتقاتل المسلمون والمسيحيون في أنحاء من آسيا

وإفريقيا، لكنهم يتشاركون الرغبة في العبادة بحرية دون خوف. عندما يسعى الناس لتحقيق الهدف نفسه، يجب أن يكون كل جانب قادراً على فهم دوافع الآخر. ولتسوية خلافاتهم، ما عليهم إلا إيجاد صيغة لتقاسم ما يريده كلاهما - وتلك مهمة صعبة لكن يمكن التعامل معها على الأقلّ بالتماس التفكير العقلاني.

لا تتلاءم كل النزاعات مع هذا النوع من المفاوضات. ففي أثناء الحرب العالمية الثانية، كان المحور والحلفاء يتقاتلون من أجل رؤيتين للمستقبل مختلفتين تماماً. واليوم لا يمكن التكيف مع شهوة القاعدة لحرب الانتقام بأدوات الإرهاب. فبعض الاختلافات كبيرة جداً لا يمكن التوفيق فيما بينها. لكن في معظم الأوضاع تكون التسوية أفضل بكثير من الجمود أو الحرب. لكن كيف يمكن تحقيق التسوية؟

عندما يدّعي المشاركون في نزاع أنهم أصحاب عقيدة، ربما يرغب مفاوض لديه المؤهّلات والمصداقية إلى تحدّيهم ليثبتوا ذلك. وإذا حاجّ المتحاربون بأخلاقية قضيّتهم، كيف تنعكس تلك الأخلاق في أعمالهم؟ هل يهتدون بدينهم أو يستخدمونه كنقطة للنقاش من أجل تقديم مصالحهم؟ هل زرع معتقدهم فيهم إحساساً بالمسؤولية تجاه الآخرين أو إحساساً بأنهم على حقّ ما يدفعهم إلى تجاهل حقوق الآخرين وآرائهم؟

لو كنت وزيرة للخارجية اليوم، لن أسعى إلى التوسّط في النزاعات على أساس المبادئ الدينية، ولن أحاول التفاوض فقط على التفاصيل الأكثر تعقيداً لاتفاق تجاري أو اتفاقية للحدّ من الأسلحة. سأطلب من أشخاص أكثر مني خبرة في كل حالة أن يبدأوا عملية تحديد المشاكل الأساسية، واستعراض الاحتمالات، واقتراح مسار العمل. وقد يكون تدخّلي أو تدخّل الرئيس ضرورياً لإتمام اتفاق، لكن الخطوط العريضة يضعها من يعرف كل دقائق المشاكل المطروحة. وعندما كنت وزيرة للخارجية، كان لديّ مكتب كامل من الخبراء الاقتصاديين الذين يمكنني الرجوع إليهم، وكادرٌ (فئة قيادية) من الخبراء في عدم الانتشار والحدّ من الأسلحة الذين أكسبهم إتقانهم الرطانة التقنية لقب "الكهنوت". وباستثناء السفير سيبل، لم يكن لديّ خبراء مماثلون لدمج المبادئ الدينية بجهودنا في مجال الدبلوماسية. ومثل هذه المعرفة ضرورية بالنظر إلى طبيعة العالم اليوم.

إذا كانـــت الدبلوماسية فن إقناع الآخرين بالعمل كما ترغب، فإن السياسة الخارجية الفعّالة تتطلّب أن نفهم لماذا يُقبل الآخرون على ما يقومون به. من حسن الحظّ أن المطلب الدستوري الذي يفصل بين الدين والدولة في الولايات المتحدة لا يـــصرّ أيـــضاً على أن تكون الدولة جاهلة للكنيسة والمسجد والكنيس والباغودا والمعبد. وفي المستقبل، يجب ألا يعين سفير أميركي في بلد تكون المشاعر الدينية فيه قـــوية مـــا لم يكن لديه (أو لديها) فهمٌ عميقٌ للمعتقدات التي تمارس هناك. فعلى السفراء وممثّليهم، أينما كانوا معينين، أن يقيموا علاقات مع القادة الدينيين المحليين. وعلـــى وزارة الخارجية أن تستخدم مجموعة الخبراء في الدين أو تدرّبهم لنشرهم في واشنطن والسفارات الرئيسية في الخارج.

في ســـنة 1994، أصـــدر مركـــز الدراســـات الاستراتيجية والدولية كتاب *Religion, the Missing Dimension of Statecraft* (الـــدين، البعد الناقص لفن الحكم). يقدّم هذا الكتاب حجّة مقنعة للإقرار بدور الدين في التأثير على السلوك الـــسياسي واســـتخدام الأدوات الروحية للمساعدة في حل النـــزاعات. وشكل دوغـــلاس جونـــستون، المؤلّـــف المشارك للكتاب، فيما بعد المركز الدولي للدين والدبلوماسية الذي تابع دراسة ما أسماه "الدبلوماسية القائمة على الدين"، ولعب في الـــوقت نفـــسه دوراً توسّطياً مهماً في السودان وأقام علاقات مفيدة في كشمير وباكستان وإيران. ويعتقد جونستون، وهو ضابط بحريّ ومسؤول كبير في وزارة الدفاع سابقاً، أن كل من لديه نفوذ في وضع ما ليس سيئاً بالضرورة، وأن السيئين منهم ليسوا سيئين طوال الوقت. ويرى أن الوسيط المستند على الدين لديه وسائل يفتقـــر إلـــيها الدبلوماسي التقليدي، بما في ذلك الصلاة والصوم والغفران والتوبة وإلهام الكتاب المقدّس.

إن المركـــز الدولي للدين والدبلوماسية ليس وحيداً في بذل الجهود. فبعد أن غادر بوب سيبل وزارة الخارجية، أنشأ مؤسسة الالتزام العالمي التي تعمل لتحسين مـــناخ الحـــرية الدينية في بلدان شديدة التقلّب مثل أوزبكستان ولاوس. وشعا المؤســـسة، "اعرف أعمق وأغنى ما في معتقدك، وما يكفي عن معتقد جارك لكي تحترمه".

عندما كنت أتولّى منصبي، أتيحت لي فرصة العمل عن كثب مع جماعة سانت إغيديو، وهي حركة علمانية بدأت في روما في ستينيات القرن العشرين بإيحاء من مجلس الفاتيكان الثاني الذي عقده البابا يوحنا الثالث والعشرين. وخلال عدّة سنوات، توسّطت الجماعة بنجاح في المفاوضات التي أنهت الحرب الأهلية الطويلة والدموية في موزمبيق. ولعبت أيضاً دوراً بناء في كوسوفو والجزائر وبوروندي والكونغو وغيرها من الأماكن. وترى الجماعة أن الصلاة، وخدمة الفقراء، والمسكونية[1]، والحوار هي لبنات بناء التعاون المتبادل بين الأديان وحل المشاكل.

هناك العديد من المنظّمات العاملة التي تستند إلى المعتقدات، وتمثّل كل الأديان الرئيسية. تكون هذه المنظّمات أشدّ فعّالية عندما تعمل بالتعاون فيما بينها، وتوحّد مواردها، وتحدّد مجالات اختصاصها. بعضها بارع في الوساطة، وبعضها الآخر في مساعدة المتحاربين السابقين في التكيف مع الحياة المدنية. وتشدّد منظّمات أخرى على الوقاية، فتتعامل مع المشكلة قبل أن ينفجر العنف. وكثير منها خبير في التنمية الاقتصادية أو بناء الديمقراطية، وكلا الأمرين بوليصة تأمين ضدّ الحرب. وهذه المنظّمات الناشطة تملك معاً من الموارد، ومن العاملين الماهرين، ومن مجالات الاهتمام، ومن الخبرة، ومن التفاني، ومن النجاح في رعاية المصالحة ما يفوق ما تملكه أي حكومة.

من أشهر الأمثلة على صنع السلام القائم على المعتقد ما نسّقه الرئيس جيمي كارتر في كمب ديفيد في سنة 1978. ويقرّ معظم المراقبين بأن اتفاق السلام بين مصر وإسرائيل ما كان ليتحقّق لولا قدرة كارتر على فهم القناعات الدينية العميقة للرئيس السادات ورئيس الوزراء بيغن. وقد سألت مؤخّراً الرئيس الأسبق كيف يجب أن يفكّر صانعو السياسة في الدين كجزء من أحجية السياسة الخارجية. وأبلغني أن ليس من الممكن فصل ما يشعر به الناس ويؤمنون في المجال الروحي عمّا سيقومون به كسياسة عامة. ورأى "أن هذه فرصة سانحة لأن العناصر الأساسية للمعتقدات الدينية الرئيسية متماثلة جداً – التواضع والعدل والسلام". وقال غالباً

(1) الدعوة الى الوحدة بين الاديان عن طرق التعاون والفهم والتبادل فيما بينها . المترجم

ما يطلب منه في الدبلوماسية غير الرسمية تقصّي ما إذا كان أطراف نـــزاع يمثّلون المعـــتقد نفسه. وتابع أنه غالباً ما يكون التعامل مع أشخاص من معتقدات مختلفة تمامـــاً أسهل من التعامل مع من يتشاركون ديناً ما ويختلفون بشأن كيفية تفسيره. وقـــال كارتر إنه كمعمداني معتدل يجد أن التحادث مع كاثوليكي أقلّ تعقيداً من التحادث مع أصولي معمداني. فمن الأسهل مع الكاثوليكي تقبّل الاختلافات دون الشعور بضرورة النقاش حولها.

عندما فتحت الموضوع نفسه مع بيل كلينتون، شدّد على نقطتين. الأولى، أن القـــادة الدينيين يمكنهم التصديق على عملية سلام ما قبل المفاوضات، وفي أثنائها، وبعـــدها؛ ويمكـــنهم مـــن خلال الحوار والبيانات العامة أن يسهّلوا تحقيق السلام والمحافظة عليه. ثانياً، إن إقناع أشخاص من مختلف المعتقدات بالتعاون معاً يتطلّب فـــصل ما هو خاضع للنقاش في الكتب الدينية عما هو غير خاضع له. وقال، "إذا كـــنت تـــتعاملين مع أشخاص يعلنون التزامهم بمعتقد ما، يجب أن يؤمنوا بوجود خالق؛ وإذا كانوا يؤمنون بذلك، يجب أن يوافقوا على أن الله خلق الجميع. وذلك يـــنقلهم مـــن الخـــاص إلى العام. وعندما يقرّون بإنسانيتهم المشتركة، يصبح من الصعب أن يقتلوا بعضهم بعضاً؛ وتصبح التسوية أسهل لأنهم اعترفوا أنهم يتعاملون مع أشخاص مثلهم، لا مع نوع من الشيطان أو جنس دون إنساني".

قـــد تكون الدبلوماسية القائمة على المعتقد أداة مفيدة في السياسة الخارجية. غير أنني لا أقول إنها يمكن أن تحلّ محل الدبلوماسية التقليدية. فغالبا ما يكون أبطال مسرحية سياسية ما منيعين تجاه الالتماسات التي تقوم على أسس دينية أو أخلاقية، أو شـــديدي التشكيك بها. لكن إذا كنا لا نتوقّع المعجزات، فلن تؤدّي المحاولة إلى خسارة شيء. سيواصل انبعاث الشعور الديني التأثير على الأحداث في العالم. ولا يستطيع صناع السياسة الأميركية تحمّل تجاهل ذلك، بل يجب الترحيب به عند أخذ كـــل العوامل بالحسبان. فالدين في أحسن الأحوال قد يعزّز القيم الأساسية لكي يعـــيش أشخاص من ثقافات مختلفة على قدر من الانسجام، وعلينا الاستفادة إلى أقصى حدّ من ذلك الاحتمال.

الفصل السادس

الشيطان ومادلين أولبرايت

بين 1981 و1993، كنت خارج الحكومة أتابع عملي كأستاذة في الجامعة، وأقدّم النصح للمرشّحين الرئاسيين الديمقراطيين عندما أدعى لذلك - وجميعهم واجهوا هزيمة منكرة إلى أن جاء بيل كلينتون. في نهاية تلك الفترة، عدت إلى الخدمة في الحكومة لأجد عالماً قد تغيّر بتفكّك الاتحاد السوفياتي، وإعادة توحيد أوروبا، وانتصار الائتلاف في عملية عاصفة الصحراء. كانت تلك لحظة غير عادية، حيث الأحداث تتدفّق حول العالم؛ لم يعد هناك وجود لجدار برلين، وصار ملايين الأشخاص يتحرّكون بحرية. وبدا لي أن الوقت ملائم لمحاولة إعادة ثنائية الحزب إلى السياسة الخارجية. ففي النهاية، كان الخلاف بين المحافظين والليبراليين يدور حول ما هي أفضل السبل لمحاربة الشيوعية؛ وبزوال ذلك التهديد، ما هي القضية التي يجب أن نختلف بشأنها؟

تبيّن أن هناك الكثير من القضايا. وعندما توجّهت للعمل في نيويورك في منصبي الجديد كسفيرة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، سرعان ما اكتشفت أن سياستنا تجاه تلك المؤسسة تشكل لبّ انقسام جديد. يوجد في جانب دعاة استخدام الأمم المتحدة لمهاجمة المشاكل العالمية؛ وفي الجانب الآخر توجد حركة مسيحية محافظة متنامية القوة. كنت أعرف بالطبع أن هناك شبكة واسعة من محطّات الإذاعة والتلفزة المسيحية اليمينية منتشرة في كل أنحاء البلد. لكن ما فاجأني هو درجة التنظيم السياسي الذي اكتسبته ردّاً على هجوم مدرَك على القيم التقليدية للأسرة. ففي ربع القرن الماضي، فسّرت المحكمة العليا الدستور بأنه يحمي حقّ المرأة بالإجهاض؛ وأدخِل تعليم الجنس في الصفوف الدراسية؛ وحُظرت الصلوات في المدارس العامة؛ وشن مناصرو الحركة النسائية حملة من أجل تعديل قانون المساواة في الحقوق؛ وأصبح المثليون الجنسيون من الذكور والإناث أكثر

انفتاحاً بشأن أنماط حياقم؛ وصارت هوليود تنتج "تسلية" تحتوي على جُرَع أكبر من الجنس والعنف. أما بالنسبة للموسيقى الرائجة، فإن على الأهالي الذين أزعجهم فـيما مـضى تمايل أرداف ألفيس وقصّة شعر فريق البيتلز القادم من ليفربول أن يـتعاملوا الآن مع المخلوقات المنشّطة للذكورة الذين يضرمون النار في الغيتارات فيما يزعقون منشدين أغاني غير مفهومة مصحوبة بموسيقى غير موجودة.

كانـت بعـض هذه الاتجاهات تتعلّق بحقوق الأفراد، وبعضها الآخر باتجاه الـثقافة الـشعبية؛ وهاتان فئتان مختلفتان، لكن بدا أن هذه الاتجاهات تهدّد اليمين المـسيحي. وكان ردّ فعلي احتضان بعض التغيّرات فيما أبذل ما بوسعي لتجاهل الأخـرى. إنني أعارض التمييز ضدّ الجنسيين المثليين من الذكور والإناث، ومقتنعة بأن الزنا بين المتغايرين الجنسيين أشدّ خطراً على مؤسسة الزواج من الجنسية المثلية. وأؤمـن بـأن تعليم الجنس يقي من المشاكل أكثر مما يتسبّب بها. وأنا من مؤيّدي قـضية *Roe v. Wade* "رو ف. واد"[1] لأنـني أعتقد أن للنساء الحقّ في الاختيار ولأن عملـيات الإجهاض غير القانونية تعرّض حياة المرأة للخطر في الغالب. بدت صيغة كلينتون صائبة بالنسبة إليّ: يجب أن تكون عمليات الإجهاض آمنة وقانونية ونادرة، وعلينا أن نفعل كل ما هو ممكن لتشجيع التبني كبديل للإجهاض ولتقليل الحمل غير المرغوب فيه من خلال تقديم المشورة وتحسين الشروط الاجتماعية. أما بالنـسبة للتلفـزة والأفلام السينمائية والراديو، فإنني أعارض أي نوع من "شرطة الأفكـار"، لكـن يفزعني أيضاً العنف والسوقية. وأشعر بالخزي لأن الصورة التي تقدّمها أميركا إلى الشعوب في الخارج تتأثّر كثيراً بالبرامج التلفزيونية الغبية وأفلام المغامـرات السينمائية المبهرجة. وكأمّ وجدّة، أشعر بإغراء وضع الصابون في أفواه بعـض الممثّلين؛ وأؤيّد الشرائح الرقابية على البرامج التلفزيونية، وأنظمة التصنيف، وأعـتقد أن عقوبة مرسلي البريد الإلكتروني المبتذل غير قاسية بما فيه الكفاية. ولا أمانع في أن أدعى مترمّتة ميؤوساً منها.

---

(1) قـرار تاريخـي للمحكمة العليا الأميركية قضى بأن معظم القوانين التي تمنع الإجهاض تنـتهك الحـقّ الدسـتوري بالحرية الشخصية، وبالتالي تعكس كل قوانين الولايات التي تحظر الإجهاض و تقيده. المترجم.

على الرغم من كل الضجيج الخلفي الملوّث للعقل، فإن بناتي نشأن بشكل رائع، وتمكّنت من تدبّر أموري بنجاح. فإذا أثار شيء اشمئزازي، أغيّر القناة أو أشيح بنظري عنه. لكن أعضاء اليمين المسيحي أكثر حذراً بشكل واضح. فهم يؤمنون، على غرار المحافظين الدينيين في إيران قبل الثورة، بأن قيمهم الأساسية تتعرّض للهجوم وأنهم مجبرون على تربية أبنائهم في محيط معادٍ لأعمق معتقداتهم. وكثير منهم يقبل المقولة بأن قوى الشرّ تتآمر عليهم وأن عليهم التوحّد والردّ. ويصف أحد القادة المسيحيين المحافظين، جيمس دوبسون، مثل هؤلاء الأشخاص بأنهم "مجرّد أناس عاديين... يحاولون تربية أبنائهم... وأداء عمل جيد... والتعامل مع الضغوط المفروضة عليهم.. إنهم قلقون بشأن ما يتعلّمه أبناؤهم في صفوف الجنس الآمن. وقلقون بشأن مشكلة المخدّرات المتفاقمة في هذا البلد. وقلقون بشأن الأمراض المنقولة عن طريق الجنس. وقلقون على وجه الخصوص بشأن ثقافة تحارب ما يؤمنون به".

وقد خاطب السناتور عن كارولينا الشمالية جس هلمز القضايا العامة نفسها وإنما بدون مواربة. فكتب، "لم تحاول الحكومة الفيدرالية أن تخفي عداءها للدين لا سيما في الخمس وعشرين سنة الماضية؛ أما وأن العديد من كنائسنا تعاني من الفوضى الآن، فإن الهجوم يشن على الأسرة لأنها الحصن الأخير للذين يعارضون الدولة الشمولية. لقد قطع الملحدون والاشتراكيون الناشطون شوطاً في فرض رأيهم بالحياة والإنسان على كل مؤسسة أميركية تقريباً". وأعلن هلمز أن نتيجة ذلك هي "المدارس الملحدة، والجريمة العنيفة، والبيوت الموحشة، والمخدّرات، والإجهاض، والموادّ الإباحية، والتساهل بالنسبة إلى القيود الخُلُقية والإحساس باللامبالاة، والإقفار الروحي غير المسبوق إطلاقاً في تاريخ بلدنا".

عندما تسلّمت مهامي في الأمم المتحدة، كان اليمين المسيحي قوة سياسية صاعدة. وكان السناتور هلمز نائب رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ. وأصبح الائتلاف المسيحي بقيادة الأب بات روبرتسون قوة كبيرة داخل الحزب الجمهوري. ولم تكن أكبر منظمة نسوية في البلد المنظمة الوطنية للمرأة التي

تتسم بالعلمانية، وإنما النساء المهتمّات من أجل أميركا التي تتكوّن من المسيحيات المحافظــات اجتماعياً. وقد وضعت هذه الحركة لائحة بالبنود التي تعارضها على الــصعيد الــدولي تعكس مخاوفها المحلية: الإجهاض، والتهديدات التي تتعرّض لها السيادة الأميركية، و"خيانة" قيم الأسرة. وبالنسبة إلى اليمين المسيحي، كان يوجد داخــل "الحكــومة الكبيرة" الأميركية عدوّ كل ما هو خير؛ وفي الساحة الدولية، لعبت الحكومة العالمية (متخذة شكل الأمم المتحدة) دور الشرّير.

في ســنة 1991، كان قد كتب بات روبرتسون أحد أكثر الكتب مبيعاً، The New World Order (النظام العالمي الجديد) وصف فيه مؤامرة لجعل "دكتاتور شيطاني" مسؤولاً عنا جميعاً[1]. وعندما يتولّى الدكتاتور السلطة، فإنه سيتحكّم بكــل جــوانب حياتنا. ستراقَب كل الأنشطة الإنسانية بالأقمار الاصطناعية. وســيكون على كل رجل وامرأة وطفل حمل بطاقة هوية دولية. ستلغى حرية الدين ويوضع حدّ لحقّ امتلاك المسدّسات. ويمكن أن يخضع كل من يتفوّه ببيان غــير صــحيح سياســياً للمحاكمــة في محكمة عالمية، وربما بموجب القانون الإســلامي. لن يمكن شراء أي شيء أو بيعه بدون إذن من السلطات العالمية. وســيلقّن الأطفــال منذ الولادة طاعة أسيادهم الأشرار، وقد يأمر مجلس الأمن الــدولي الجيش الأميركي بغزو إسرائيل. وأعلن روبرتسون، "لقد كان مصطلح 'الــنظام العالمــي الجديد' في المئتي سنة الماضية بمثابة كلمة السرّ للذين يريدون تــدمير العقيدة المسيحية... إنهم يرغبون في أن يستبدلوا بها دكتاتورية اشتراكية عالمــية باطنية". ومن الطبيعي في رواية روبرتسون أن تكون الأمم المتحدة مقرّ قيادة هذه الدكتاتورية العالمية.

---

(1) وفقــاً لروبرتسون، ولدت المؤامرة في بافاريا في سنة 1776 وتكشّفت منذ ذلك الحين. وتشمل لائحة المتآمرين، إما مشاركين عارفين وإما مخدوعين غير عارفين، النظام القديم للبنائــين الأحــرار (الماســونيين)، وقادة الثورة الفرنسية، وكارل ماركس، ومارغريت سانغر (أول رئيسة للأبوّة المخطّطة)، وأدولف هتلر، وعائلة روكفلر، وهنري كيسنجر، واللجــنة الثلاثــية، ومؤلّفــي أدب العصر الجديد، ومديري المؤسسات المالية العالمية، ومــصمّمي ورقــة الــدولار الــنقدية، وزبيغنيو بريجنسكي، وأعضاء مجلس العلاقات الخارجية (الذي أعمل في مجلس إدارته).

افترضــت كــسفيرة إلى الأمم المتحدة أن أفضل السبل لإسكات المنتقدين المخلــين هو السعي لجعل المنظمة أكثر فعّالية. و لم أدرك أن قسماً كبيراً من هؤلاء الــنقّاد ليس لهم مصلحة في رفع كفاءة الأمم المتحدة. وبالنسبة إليهم كنت محامية الشيطان - بالمعنى الحرفي - أكثر مما أنا دبلوماسية تحاول حماية المصالح الأميركية. وفيما كنت أجوب البلاد لشرح خططي لإصلاح الأمم المتحدة، وجدت نفسي في موقف دفاعي في الغالب وأنا أحاول أن أبدّد سوء فهم السائلين الخائفين. قلت لا، الأمــم المــتحدة لا توشــك أن تفــرض ضريبة دخل عالمية؛ ولا تخطّط لمصادرة مــسدّساتنا؛ ولا تتآمــر لإلغاء مفهوم الملكية الخاصة؛ وهي لا تدير أسطولاً من المــروحيّات السوداء التي تطير فوق المدن الأميركية ليلاً؛ ولا تتآمر للسيطرة على العالم.

إن فكرة امتلاك الأمم المتحدة القدرة على الهيمنة على الولايات المتحدة، أو أنهــا ستمتلكها، مثيرة للضحك. فسلطة الأمم المتحدة تنبع بأكملها من أعضائها؛ وهي مسودة لا سيدة. فليس لديها قوات مسلّحة قائمة بنفسها، ولا سلطة توقيف، ولا حــقّ فرض الضرائب، ولا تفويضاً بالتنظيم، ولا قدرة على إبطال المعاهدات. ولــيس لجمعيــتها العامة سوى قليل من السلطة. ولا يستطيع مجلس الأمن، الذي يمتلك نظريّاً على الأقلّ سلطة إصدار أمر بالتحرّك، القيام بذلك دون اتفاق أعضائه الخمسة الدائمين. لذا أين يوجد الخطر؟

في غــضون ذلك، يقوم برنامج الغذاء العالمي للأمم المتحدة بإطعام 90 مليون شــخص في الــسنة؛ ويحافظ مفوّض الأمم المتحدة الأعلى للاجئين على خطّ نقل المــؤن الضرورية للمشرّدين في العالم؛ وأطلقت منظمة الأمم المتحدة للطفولة حملة لوضــع حــدّ لزواج الأطفال بالقوة؛ وتبقى مبادرة برنامج الأمم المتحدة المشترك للإيدز/فيروس الإيدز[1] بؤرة الجهود العالمية لمكافحة الإيدز/فيروس الإيدز؛ ويساعد صــندوق الأمــم المتحدة للسكان في تنظيم الأسر، وبقاء الأمّهات، ونموّ الأطفال

(1) الإيدز AIDS مختصر بالإنكليزية لمتلازمة العوز المناعي المكتسب، وفيروس الإيدز هو فيروس العوز المناعي البشري HIV الذي يصيب الإنسان عن طريق ممارسة الجنس مع مصاب أو الحقن بإبرة ملوّثة بالفيروس. المترجم.

معــافين في أكثر الأماكن فقراً في العالم. كنت أقول كل ذلك في كلماتي، بتكلفة سنوية على الأميركي العادي تقلّ عن سعر تذكرة فيلم سينمائي[1].

غــير أن الأمــم المتحدة تقدّم بين الحين والآخر لمنتقديها ذخيرة مضرّة. فهي تحتفظ، مثل معظم المنظّمات الدولية، بلائحة من المنظّمات غير الرسمية التي يسمح لهــا بإرسال ممثّلين لمراقبة اجتماعاتها ومؤتمراتها. ومن هذه المجموعات، كما علمت مــن الــصحافة، الجمعية الوطنية للحبّ بين الرجال/الأولاد. وبعد ذلك، كنت جالــسة في مكتبي أتابع نشرة إخبارية عن ارتباط هذه الجمعية بالأمم المتحدة؛ ثم تغيّــرت الــصورة لتظهرني في مجلس الأمن رافعة يدي بشأن تدبير روتيني وكأنني أصــوّت بــدلاً من ذلك لصالح الجنس بين الرجال والأولاد. لا أعتقد أن بوسع مــتهكّم ماهر أن يعدّ تقريباً لمشهدين أكثر إحراجاً من ذلك. وقد لزمني أشهر من الجهــد المضني، وسط شماتة الصحافة اليمينية، لتطهير لائحة الأمم المتحدة من تلك الجمعية.

كانت تجاوزات الجمعية العامة للأمم المتحدة هي التي تجتذب انتقاد المحافظين في الغالب، لكن إذا كانت هناك فرصة ملائمة لإثارة مشاعر اليمين المسيحي، فإنما هي المؤتمر العالمي للمرأة الذي عُقد في بيجنغ في سنة 1995. فهناك مؤتمر لتحسين وضــع المرأة، تستضيفه الصين الشيوعية، وتحضره السيدة الأولى هيلاري كلينتون والسفيرة مادلين أولبرايت.

في الأســابيع التي سبقت هذا التجمّع، زعم كتّاب الأعمدة ومقدّمو البرامج الحــوارية أن الــوفد الأميركي عازم على إعادة تعريف الأمومة والأبوّة والأسرة والجنس (من حيث الذكورة والأنوثة)؛ وأننا نسعى إلى تحقيق التكافؤ العددي بين الــرجال والنــساء في كل مكتب وفي كل طابق للعمل؛ وأن المؤتمر سيطلب أن

---

(1) لم تتراجع المشاعر المعادية للأمم المتحدة داخل اليمين السياسي. هذا مقتطفٌ من البرنامج السياسي الرسمي للجمهوريين في تكساس في سنة 2004: "يؤمن هذا الحزب بالمصلحة الفــضلى للمواطنــين الأميركيين بحيث نسحب عضويّتنا من الأمم المتحدة على الفور، فضلاً عن مساهماتنا المالية والعسكرية فيها... ويحثّ الحزب الكونغرس على إبعاد الأمم المتحدة عن التراب الأميركي".

يـصرف الآباء والأمّهات ساعات متساوية في رعاية الأطفال. وزعم تقرير صادر عن منتدى النساء المستقلّ المحافظ أن خطّتنا هي إقناع العالم بالمساواة القانونية الدولية "لخمسة أجناس" (المتغايرين الجنسيين الذكور والإناث، والجنسيين المثليين الذكور والإناث، والمخنثين)؛ وقيل أيضاً إننا نفكّر في تأييد جنس سادس يسمّى تشاؤمياً "كلي الرغبة الجنسية". ونتيجة ذلك، كما أعلن التقرير "أن فهمنا للزواج والشرعية الخصوصية الممنوحة للأطفال المولودين في الزواج ستنقلب بإملاء أخلاقي راديكالي مناصر للحركة النسائية". ورأى جيمس دوبسون، الذي تصل خدماته الدينية الإذاعية إلى ملايين المستمعين في عشرات البلدان، أن المؤتمر "هو التهديد الأكبر للعائلة في تاريخ العالم".

وفقاً لمنظمة النساء المهتمّات من أجل أميركا فإن "هيلاري رودهام كلينتون توجّهت إلى 'مؤتمر المرأة' على متن طائرة مليئة بالسحاقيات ومناصري الحركة النسائية الراديكاليين". وكنت أنا من سافر معها في الواقع. ولم تكن أولى أولويّاتنا وأولويّات غالبية الوفود تلك التي أثارت مشاعر منتقدينا المحافظين – أو إذا توخينا النزاهة، أكثر زملائنا ليبرالية. لقد سعينا وحصلنا على دعم حقوق النساء والفتيات في الحصول على فرصة متساوية للتعليم والرعاية الصحية، والمشاركة في الحياة الاقتصادية لمجتمعاتهن، والعيش دون تهديد بالعنف. وللتوصّل إلى الإجماع على هذه الأهداف، طمأنا الممثّلين الكاثوليكيين والمسلمين بأننا لا نطلب منهم الموافقة على سياسات تتعارض مع معتقداتهم الأخلاقية أو الدينية – مثل الادّعاء بأن الإجهاض حقّ قانوني دولي. لقد كان مؤتمر بيجنغ مجرّد مؤتمر، لكنه تعامل مع وضع أكثر من نصف سكان العالم ومعاملتهن، وكثير منهن يواجهن إساءة المعاملة والتمييز. إنني فخورة لأنني قدت الوفد الأميركي. وكان جيمس دوبسون أقلّ تحمّساً، إذ وصف منتدى العمل بأنه "ورقة الطرنيب الشيطانية".

قبل أن أعمل في الأمم المتحدة، كنت أعتقد أن الأخلاق في الشؤون العالمية تدور حول قضايا الحرب والسلام، والحرية والاستبداد، والتنمية والفقر. وفي التسعينيات من القرن الماضي، احتلّت المسائل التي كانت تعتبر شخصية بالدرجة الأولى – الإجهاض ومنع الحمل وأدوار الجنسين وحقوق الأطفال والاتجاه الجنسي

- مكاناً بارزاً على المسرح الدولي. وبدأ الناشطون الأميركيون من اليسار واليمين يتّهمون بعضهم بعضاً، كما لو أن هناك من أطلق إشارة البدء، بمحاولة فرض قيمهم الأخلاقية على الجميع وتلويث سمعة البلد الدولية في أثناء ذلك. وكما هو الحال عموماً في السياسة، ساعد الدعاة الأشدّ تطرّفاً في أحد الجانبين في إثبات مقولات المتطرّفين في الجانب الآخر. وبالتالي، حذّر اليمين السياسي من الاندفاع المسعور للحركة النسائية الاشتراكية العلمانية؛ وحذّر اليسار من أن الأصوليين المسيحيين يجعلون التعامل مع مشاكل العالم الحقيقية أمراً مستحيلاً.

سعى اليمين واليسار إلى تجنيد الحلفاء الدوليين. فضمّ المحافظون قواهم في بعض الأحيان إلى المسلمين والفاتيكان، وتضافرت جهود الليبراليين مع جهود حملة الأفكار المماثلة الأوروبيين والناشطين في العالم الثالث. ولقيت كل مجموعة بعض المفاجآت. فقد كان على المحافظين التوّاقين إلى ضمّ المسلمين إليهم في إدانة الإجهاض والجنسية المثلية الالتفاف على خلافاتهم المتعلقة بالزواج المرتّب وتعدّد الزوجات. ووجد الليبراليون المتحمّسون لإدانة الممارسات المرفوضة مثل الختان أن حلفاءهم المتوقّعين من البلدان النامية غير مهتمّين في بعض الأحيان، ويفضّلون التركيز بدلاً من ذلك على العدالة الاقتصادية.

غالباً ما كان يحتدم النقاش بين اليمين واليسار بذكر الأسماء والمبالغات وتكتيكات التخويف. أنا شخصياً لا أوافق على كثير من المواقف المحافظة. وعندما كنت في الحكومة، ناضلت من أجل تقديم تمويل أكثر سخاء للتعليم الشامل عن الإيدز/فيروس الإيدز، وبرامج صحّة الطفل والأمّ، وتنظيم الأسرة الدولي. وأنا أعارض القيود التي فرضتها إدارة بوش بعد ذلك على هذه البرامج، وجهود المحافظين الدينيين - سواء أكانوا كاثوليكيين أم بروتستانتاً أم مسلمين - للثني عن توزيع الواقيات الذكرية. غير أنني لا أخطّئ أعضاء اليمين المسيحي للتعبير عن رأي أخلاقي أو الدفاع عنه، إذ إن الكثير من العاملين في السياسة العامة - بمن فيهم أنا - يفعلون الشيء نفسه. فالتعبير عن المبادئ الأخلاقية هو ما أنشئت لأجله الحركات التي تريد ترسيخ المعايير الأخلاقية الدولية. وبهذه الطريقة بالضبط جرى حظر العدوان العسكري، والعبودية، والقرصنة، والتعذيب، والاضطهاد الديني

والتمييـــز العنصري. وهذه الطريقة أيضاً ربما تنخفض ذات يوم الإساءات المرتكبة ضـــدّ المـــرأة، بما في ذلك العنف المنـــزلي، و"جرائم البائنة" (الدوطة)، و"جرائم الشرف"، والتهريب، وقتل الإناث. وهذه ليست مسألة فرض آرائنا على الآخرين، وإنمـــا إقـــناع ما يكفي من الناس في ما يكفي من الأماكن بأننا على حقّ. وذلك إقناع وليس إكراه.

يتفّق اليسار السياسي واليمين المسيحي على السواء على أن "القيم الأخلاقية" يجـــب أن تكون قريبة من مركز السياسة الخارجية الأميركية، ولعل كليهما يوافق، ولو لأسباب متناقضة، على خلاصة أوليفر وندل هولمز الشعرية:

كانت خطة الله بدايةً تبعث على الأمل

لكن الإنسان أفسد فرصه بالزلل

ونحن على ثقة بأن القصة ستنتهي بمجد الله الفاطر

مع أن الجانب الآخر كسب الفوز في الوقت الحاضر

يمـــيل اليمين إلى رؤية الولايات المتحدة، على الأقلّ من الناحية المثالية، بأنها متميـــزة عـــن بقية العالم ومتفوّقة عليه أخلاقياً. وبحسب رأي ريتشارد لاند، وهو مـــسؤول تنفـــيذي لمؤتمر المعمدانيين التنفيذيين وذو فكر عميق ويستشهد به على نطـــاق واســـع، "إنـــنا لسنا أمة بالمعنى العادي للكلمة ولم نكن يوماً كذلك. إننا فـــريدون بطرق عديدة. وذلك لا يعني أن الولايات المتحدة أمة الله المختارة أو أننا خلفـــاء إسرائيل. ولا يعني ذلك أن لله علاقة خاصة مع الشعب الأميركي. غير أنه يعـــني أن أمّتـــنا لا تزال تملك قلب أسلافنا البيوريتانيين وروحهم، ولا تزال تعتبر نفسها 'مدينة على جبل'".

تكمـــن عيوب أميركا بالنسبة لليمينيين في مجال السلوك الشخصي: الإباحية، والجنسية المثلية، والابتعاد عن القيم التراثية والكنيسة. وهم يميلون إلى اعتبار انتقاد الدور العالمي لأميركا، وبخاصة في ظلّ رئيس مفضّل مثل جورج دبليو بوش، بمثابة تقديم المساعدة للعدوّ وإراحة لقوى الشرّ. وثمة تشابه، على ما أعتقد، بين الأصولية الدينـــية والنعـــرة القومية العدائية القاطعة التي تنظر إلى التاريخ بأكمله من خلال

عدسة أميركية ضيّقة. وتتغذّى ميزات بوش بالرغبة في اليقين، والتوق الشديد إلى الإجابات السديدة التي تُبنى عليها صورة مريحة ومحكمة للعالم.

يمكن إيجاد عطش مماثل لليقين في الطرف الآخر من الطيف في أوساط الأشخاص الذين يركّزون بالدرجة الأولى على العيوب في التاريخ الأميركي. فالحرب الباردة، في رؤيتهم للعالم، كانت تنافساً أخلاقياً غامضاً على السلطة التي تتّسم في كلا الجانبين بالنفاق، والروح العسكرية، والتدخّلات الخرقاء في شؤون الآخرين أكثر مما تتسم بالكفاح الأخلاقي الضروري لإلحاق الهزيمة بالشيوعيين. ولعلّني أجد الميل إلى تخطئة السياسات الأميركية في أثناء الحرب الباردة مبالغاً فيه لأنني من بلد استولت الشيوعية عليه. لا شك في أن هناك أخطاء ارتكبت، لكن لا يمكن التشكيك بجدية بالتفوّق الأخلاقي للغرب مقارنة بالاتحاد السوفياتي. وعلى غرار ذلك، أجد إفراطاً في التبسيط في موقف اليسار من العولمة واستخدام القوة. لكنني أتعاطف مع قلق اليسار الديني بشأن الفجوة الضخمة بين الأغنياء والفقراء. وأعتقد أن ثمة شيئاً من الحقيقة في تصوّرهم لأميركا كمجتمع مسوّر يحاول تحويل أبصاره عن المحتاجين أكثر من كونه مدينة على جبل.

بالغ المعلّقون في دور الدين في توسيع الانقسامات السياسية والثقافية داخل أميركا، لا سيما منذ الانتخابات الوطنية المتنافس عليه بمرارة في 2000 و2004. وتوحي الحكمة التقليدية بأن هذه الانقسامات ستستمر في النموّ. وإذا حدث ذلك، فسيصعب التعرّف إلى أميركا التي نشأتُ فيها وأحببتها. إنني غاضبة بالفعل من البحث السطحي لانقسام بين ما يدعى ولايات "حمراء" وولايات "زرقاء"، كما لو أن الأميركيين لم يتعهّدوا جميعاً بالولاء للعلم الثلاثي الألوان نفسه. وأشعر بالأسف لأننا رعينا ثقافة سياسية تكافئ المتطرّفين، ثقافة يعتبر فيها أن الاعتقاد الجازم فضيلة وتفتّح العقل ضعف، وأن السخرية والهجمات الافترائية تعلو غالباً على البحث الذكي. ألم نضق ذرعاً بذلك؟ إننا بحاجة إلى جرعة من الوحدة. وربما ينبغي لنا البدء بتذكّر تكهن جون وِنثروب بأن "عيون العالم ستكون شاخصة إلينا"، وبطرح السؤال، "ما نوع أميركا التي نريد أن يراها العالم"؟

الفصل السابع

"لأن ذلك صحيح"

يعتقد الأميركيون أنهم كرماء، ولا شك في أن العديد من المنظّمات الخيرية الدولية تعتمد علينا للحصول على التبرّعات التي تحتاج إليها لتنفيذ عملها. لكن الحكومة الأميركية بخيلة، حيث تحتلّ المرتبة ما قبل الأخيرة بين البلدان الصناعية الاثنين والعشرين في نسبة الثروة المخصّصة للتنمية الدولية. ففي سنة 2002، في قمـــة الفقر في العالم، صدّق الرئيس بوش على إجماع مونتيري الذي يُلزم الأمم الغنـــية بتخصيص 0.7 بالمئة من دخلها لمساعدة الآخرين. وتقدّم خمسة بلدان أوروبـــية ذلـــك القدر بالفعل، ووضعت ستّة بلدان أخرى جدولاً زمنياً للقيام بـــذلك[1]. وعلى الرغم من الزيادات التي طرأت مؤخّراً فإن النسبة المئوية التي تقـــدّمها الـــولايات المتحدة تبقى عالقة عند 0.16، أي أن النقص يبلغ نحو 40 مليار دولار سنويّاً.

لم يكـــن الحـــال كذلك دائماً. ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية، غيّرت الـــولايات المتحدة التاريخ بمساعدة أوروبا التي مزّقتها الحرب على إعادة البناء. وشـــكلت خطة مارشال مثالاً كلاسيكياً على "حسن الصنيع بفعل الخير"؛ فقد

---

(1) الـــبلدان الخمـــسة التـــي تجـــاوزت 0.7 بالمئة هي السويد والنرويج والدانمرك وهولندا ولوكـــسمبورغ. وقد التزمت بريطانيا وفرنسا وفنلندا وإسبانيا وإيرلندا وبلجيكا بالوصول إلـــى ذلك المستوى وفقاً لجداول زمنية محدّدة. ويشير الاقتصادي جيفري ساخس إلى أن "البعض يدّعي أنه على الرغم من أن موازنة الحكومة الأميركية تقدّم مساعدة قليلة نسبياً إلى أفقر البلدان، فإن القطاع الخاص يعوّض هذا النقص. بل إن منظمة التعاون والإنماء الاقتـــصادي قدّرت أن المؤسسات الخاصة والمنظّمات غير الحكومية تعطي 6 مليارات دولار فـــي السنة كمساعدة دولية، أو 0.05 بالمئة من الناتج القومي الإجمالي. وفي تلك الحالـــة فـــإن المعـــونة الدولية الأميركية تكون 0.21 بالمئة من الناتج القومي الإجمالي تقريباً – وذلك لايزال بين أدنى النسب بين البلدان المانحة بأكملها

استعادت أوروبا نشاطها واستفادت أميركا من الشريك الأوروبي الغربي القوي والمزدهـر. ولم يكـن ذلك سوى بداية. وفي سنة 1949، أنشأ الرئيس ترومان برنامجاً لمساعدة البلدان المحتاجة أينما كان. قال، "إن هدفنا هو مساعدة الشعوب الحرّة في العالم، بالجهود التي يبذلونها بأنفسهم، لإنتاج مزيد من الغذاء، والملابس، والمساكن، والطاقة. فلن تستطيع الأسرة الإنسانية تحقيق الحياة الكريمة والمرضية التي هي حقّ من حقوق كل الشعوب إلا بمساعدة أعضائها الأقلّ حظّاً".

وسّع جون كنيدي مبادرة ترومان بإنشاء الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، وفيلق السلام، والتحالف من أجل التقدّم. وفي خطاب التنصيب، تعهّد كنيدي بالتزام أميركا "أمام الشعوب المقيمة في الأكواخ والقرى في كل أنحاء العالم وهي تكافح لكسر الفقر الجماعي... [وبذل] أفضل جهودنا لمساعدها لكي تساعد أنفسها، أياً تكن الفترة التي يتطلّبها ذلك - لا لأن الشيوعيين ربما يفعلون ذلك، ولا لأننا نريد أصواها، وإنما لأن ذلك صحيح".

لقيت المعونة الخارجية الدعم أوّلاً من قبل زعماء الحزبين السياسيين الرئيسيين، لكن سرعان ما بدأ المنتقدون يجهرون بالحديث. إن مفهوم البرامج "المجّانية" مخالف للنزعة الأميركية إلى الاعتماد على النفس. والإحسان، كما يُعتقد على نطاق واسع، يجب أن يتّجه إلى الفقراء المحتاجين فحسب، ولا يستحقّ كل الفقراء ذلك. على أي حال، الإحسان يجب أن يبدأ بالأقربين. فلماذا تُخصّص الأموال لمساعدة أناس في الخارج عندما يمكن استخدامها للتعامل مع الاحتياجات الاجتماعية الأميركية؟ ما من سياسي استغلّ هذه الهواجس بإبداع أكبر مما استغلّها رونالد ريغان. ففي سنة 1964، في كلمة بدأت مسيرة ريغان المهنية كرمز محافظ، ادّعى أن المعونة الأميركية "اشترت يختاً ثمنه مليونا دولار [للزعيم الإثيوبي] هيلا سيلاسي... وبدلات لمتعهّدي دفن الموتى اليونانيين، وزوجات إضافية للمسؤولين الحكوميين الكينيين، ... وألف جهاز تلفزة لمكان لا يوجد فيه كهرباء". وشدّد ريغان على أن المساعدة الأميركية وسّعت البيروقراطيات الأجنبية، وأن "المكتب الحكومي أقرب شيء

يمكـــن أن نراه على الأرض إلى الحياة الأبدية". لم يكن "الخطيب المفوّه" يدرك الوقائع جيداً على الدوام، لكن لم يكن هناك من يبزّه في تحويل أنصاف الحقائق إلى خـــرافات دائمة. وهو كرئيس زاد المعونة الخارجية في الواقع لكنه لم يفعل شيئاً علناً يبدّد الانطباعات التي كان قد روّجها. في ذلك الوقت كانت الصورة النمطـــية قد ترسّخت جيداً: لم تحقّق هذه البرامج شيئاً، وهي شجّعت التبعية، وهدرت الأموال التي جناها دافعو الضرائب الأميركيون بكدّهم.

صحيح أن بعض مشروعات المعونة كانت سيئة الإدارة، وأن بعضها الآخر كـــان يرمـــي إلى جذب الحكومات إلى الجانب الأيمن من المنافسة بين الشرق والغـــرب أكثـــر ممـــا يرمي إلى تحسين حياة المحرومين. غير أن السجل الفعلي للمـــساعدة كان أفضل مما أعلن عنه. فبين سنة 1960 وأواسط التسعينيات من القـــرن الماضـــي، ارتفع متوسط العمر المأمول في البلدان الفقيرة عشرين سنة. وانخفـــض معـــدّل وفيّات الأطفال إلى النصف. وأنقذ إدخال اللقاحات المتدنية الـــتكلفة عشرات الملايين من الأرواح. وتمّ القضاء على الجدري، وأصبح شلل الأطفـــال علـــى شفير الاندثار. وساعدت المعونة الخارجية العديد من الأمم في آسيا وأميركا اللاتينية وإفريقيا لتصبح أكثر ازدهاراً، حيث أفلت مئات الملايين من الأشخاص من الفقر.

هذه المنجزات يجب أن تثير الإعجاب، لكنها لم تثره. ففي أثناء سني عملي في الحكـــومة، وجدت أن المعونة الخارجية تحظى بسمعة سيئة. ولم يجدِ نفعاً أن عبارة "المعـــونة الخارجية" تبدو خائنة بشكل مبهم. لذا أزلت العبارة من مفرداتي، مشيرة إلى "دعـــم الأمن القومي" بدلاً من ذلك. ربما خفّف ذلك المقاومة قليلاً، لكنه لم يكن كافياً. فمع استمرار عجز الموازنة وزوال التهديد من الاتحاد السوفياتي، أحجم أعـــضاء الكونغرس عن تخصيص الأموال للمشروعات في الخارج. وأبلغني رئيس اللجـــنة الفرعية المسؤولة في الكونغرس عن تمويل البرنامج والسرور بادٍ عليه أنه لم يـــصوّت البتّة لصالح قانون المعونة الخارجية، ما يعني ضمناً أنه لن يفعلَ ذلك قطّ. وتفاخر جمهوريون بارزون بأنهم غير راغبين حتى في زيارة البلدان التي تُمنح المعونة الخارجية. وكان العديد من ناخبيهم مقتنعين بأن المعونة الخارجية "المجّانية" ابتلعت

بالفعـــل 20 بالمـــئة مـــن المـــوازنة الفيدرالية بدلاً من أقلّ من 1 بالمئة. وكوزيرة للخارجـــية، كنت أشعر بالإحراج بصراحة عندما أزور عيادات ومخيمات للاجئين وأحياء فقيرة في أراضٍ بعيدة، لأنني أعرف أن المساعدة الفورية الوحيدة التي يمكنني تقـــديمها تـــتخذ شكل دفاتر وأقلام تلوين، على الرغم من أن الاقتصاد الأميركي يشهد ازدهاراً.

في أواخر التسعينيات من القرن الماضي، أصبحت المقولات الجمهورية متوقّعة جداً بحيث إنني لم أكن أتوقّع البتّة أن أسمع شيئاً مختلفاً. وفجأة سمعت جديداً. فقد طُـــرحت عليّ بعض الأسئلة ذات ميل جديد لم أعهده في الأسئلة التي أتلقّاها في جلسات الاستماع - كانت تتهمنا بعدم قيامنا بالكثير لمساعدة الناس في الخارج. كـــنت معـــتادة على سماع الليبراليين يعبّرون عن هلعهم بشأن الدمار الذي يحدثه الإيـــدز/فيروس الإيدز، في حين أن المحافظين كانوا يقولون ضمناً إن على الضحايا ألا يلومـــوا ســـوى أنفسهم. لكن خلال سنواتي الأخيرة في المنصب، ومنذ ذلك الحـــين، أقرّ اليمين المسيحي بأن وقف الوباء ضرورة أخلاقية. وقبل عدّة سنوات، غيّـــر جـــس هلمز موقفه معترفاً، "كنت أشعر بأن الإيدز مرض ينتشر عن طريق الـــسلوك الجنـــسي الإرادي الطائش والإدمان على المخدّرات، وأنه ربما ينحصر بالأشخاص المعرّضين لمخاطر عالية، لكنني كنت على خطأ".

مـــا الذي يجري؟ الجواب هو أن الدين صار متشابكاً مع السياسة الخارجية الأميركـــية بطـــريقة جديدة. عندما كنت في المنصب، غالباً ما كان الجمهوريون يستمتعون بإطلاق صفة "الساذجة" أو "فاعلة الخير" عليّ. بل إن أحد الأكاديميين الـــساخطين ســـخر مـــن أن إدارة كلينتون تدير "السياسة الخارجية كأنها عمل اجتماعي". والآن يرى السناتور الجمهوري سام براونباك من كنساس، وهو رجل محـــافظ كما ستتبينون، أن على الولايات المتحدة "أن تتحرّك بتواضع وحكمة، لا من أجل مصالحنا الاقتصادية والاستراتيجية فحسب، وإنما من أجل ما هو صحيح أخلاقياً".

طالمـــا وقـــف اليمين واليسار الإيديولوجيان على طرفي نقيض في كل قضية دولـــية تقريباً، لكن ذلك لم يعد صحيحاً. فهذان الطرفان المتباعدان يتداخلان. لا

سيما في المسائل الإنسانية التي يعبّر فيها المحافظون الدينيون عن مصالح خاصة. ولا يقـرّ الجانـبان بوجـود مصلحة عملية في مساعدة المحتاجين الشديدي الاحتياج فحـسب، وإنما واجب أخلاقي أيضاً. وكلاهما يؤمنان بأن قصّة السامري الصالح، التي رواها الرئيس بوش في خطاب تنصيبه الأول، يجب أن تلقى صدى في السياسة الخارجـية الأميركـية على الأقلّ. وذلك ليس مثيراً للاهتمام فقط، بل هو فرصة تاريخية.

قـد سمعنا الكثير في السنوات الأخيرة عن "محور الشرّ". وسيجد الباحثون عن الشرّ هذا المحور في المعاناة الناتجة عن الفقر والجهل والمرض، وتشير البوصلة إلى دائرة بؤس عالق في أشراكها ما بين مليارين وثلاثة مليارات إنسان. ويقدّر أن 30.000 طفل يموتون يومياً بسبب الجوع والأمراض التي يمكن الوقاية منها: وذلـك - للمقارنة فحسب - يعادل تقريباً عشر هجمات مماثلة لهجوم 11/9 كـل أربـع عـشرين سـاعة. ولا يزال مليارات الأشخاص يعيشون في ظل حكـومات لا تعتـرف بحقـوق الإنسان الأساسية أو تحميها. إن محنة الفقراء والمضطهدين يجب أن تكون سبباً كافياً لكي يوحّد الأميركيون صفوفهم، وإذا لم يكن ذلك في قضية مشتركة فعلى الأقلّ في قضايا منفصلة تأتي معاً في مفاصل محورية. إن لائحة المشروعات التعاونية المحتملة طويلة، لكن سأطرح ثلاثة منها كبداية.

الأول دعم مبدأ الحرية الدينية وممارستها.

قـبل عقد من الزمن تقريباً، بدأ ائتلاف من الناشطين المسيحيين واليهود في الـولايات المتحدة حملة ضدّ الاضطهاد الديني في الخارج. واستجابة لذلك، وافق الكونغـرس علـى تشريع - قانون الحرية الدينية الدولية لعام 1998 - وقّع عليه الرئيس كلينتون وأصبح قانونا نافذاً. أنشأ هذا القانون لجنة أميركية مستقلّة خاصة بالحـرية الديـنـية الدولية وطلب من وزارة الخارجية إعداد تقرير سنوي عن وضع الحـرية الدينية في كل أنحاء العالم. وقد جعل هذا القانون المهم تحديد كل أشكال الاضـطهاد الـديني وإدانتها جزءاً لا يتجزّأ من السياسة الخارجية الأميركية ودفع الدبلوماسين الاميريكين لان يصبحوا اكثر ارتياحا وتمرسا في اثارة هذه القضية

من الطبيعي أن يُعنى الأميركيون بالحرية الدينية. فهذا المبدأ يشكل محور ديمقراطيتنا، ويقدّم أيضاً اختباراً يمكن الركون إليه للحكم على الحكومات الأخرى. فإذا لم تكن حكومة ما تحترم كرامة مواطنيها، فإنها لن تحترم على الأرجح حقوق أي شخص آخر. والبلاد التي ينتشر فيها الاضطهاد الديني على نطاق واسع (مثل كوريا الشمالية وبورما وإيران والسودان) هي أيضاً - وذلك ليس مصادفة - مصدر لمخاطر أوسع تشمل الإرهاب وانتشار أسلحة الدمار الشامل. وقد أظهر قرار طالبان في سنة 2001 تدمير تمثالين حجريين لبوذا في وسط أفغانستان الاحتقار نفسه لرأي العالم، بقدر رغبتها في استضافة القاعدة. والصين بلد آخر لا تحترم حكومته الحرية الدينية، لكن تلك الأمة تُظهر بعض التعقيدات الفريدة بالنسبة لصناع السياسة الأميركية، نظراً لحجمها ونفوذها.

غالباً ما اشتكى إليّ أعضاء الكونغرس خلال السنوات التي قضيتها في المنصب من أن المسيحيين الصينيين لا يمكنهم العبادة قانونياً إلا في كنائس مسجّلة لدى الحكومة. وقد وعدتهم بإثارة هذه القضية مع المسؤولين في بيجنغ، وهو ما قمت به في الاجتماعات وبحرصي على حضور قداديس الكنيسة في الصين بنفسي[1]. غير أن لائحة مهامّي لم تنته هناك. فقد عرضت أيضاً مخاوفي بشأن إساءة معاملة البوذيين التيبتيين وأعضاء فالون غونغ، وهي منظمة للصحة الروحية. وحثثتُ الصين على السماح للمواطنين بالانتظام سياسياً وأن يكون لديهم نقابات عمّالية مستقلة، وعبّرت عن اهتمامي بمصير السجناء السياسيين؛ وطلبت إيضاحاً لسياسات السيطرة على السكان المثيرة للجدل؛ واستعرضت سلسلة من القضايا السياسية والعسكرية ذات البعد الأخلاقي - البرامج النووية لكوريا الشمالية، والعلاقات السلمية مع تايوان، والدكتاتورية العسكرية في بورما، والمعاهدة الخاصة بتغيّر المناخ العالمي، وحفظ السلام الدولي. وبعد سنوات، لا تزال هذه القضايا

(1) في شباط/فبراير 1998، أرسل الرئيس كلينتون وفداً من الزعماء الدينيين الأميركيين إلى الصين للتشديد على أهمية الحرية الدينية. وتألّف الوفد من الحاخام آرثر شنباير من نيويورك؛ والأسقف الكاثوليكي تيودور مك كاريك؛ ودونالد آرغ، كاهن مجالس الربّ ورئيس الجمعية الوطنية للإنجيليين.

وكثير غيرها على أجندة الولايات المتحدة والصين. بوجود قائمة طويلة كهذه، ثمة فرصة دائماً أن تضيع المسائل المتعلقة بالحرية الدينية، سواء أكانت تؤثّر في المسيحيين أم في غيرهم. ويجب ألا يحدث ذلك. ولن أفاجأ في الواقع إذا تبين أن تنامي الدين في الصين من أهمّ التطوّرات في ربع القرن القادم وأصعبها إدارة - بالنسبة لزعماء الصين الاستبداديين.

على التوّاقين إلى تعزيز الحرية الدينية أن يدركوا أيضاً أن هناك طريقة صحيحة وخاطئة لمعالجة ذلك. فمن المرجّح أن يتحقّق التغيّر الدائم من خلال الإقناع أكثر مما يتحقّق بإصدار الأوامر الصريحة. في لاوس اعتمدت مؤسسة الالتزام العالمي التي أنشأها بوب سيبل نهجاً تدريجيّاً في بلد شديد الفقر ذي حكومة على النمط السوفياتي، وغالبية بوذية، وبدون تراث ديمقراطي. فالتشديد على أهمية الحرية الدينية في بلد غارق في المشاكل الاقتصادية والاجتماعية اقتراح غير مضمون. مع ذلك حدث تقدّم واضح ومطرد. فأطلق سراح سجناء الضمير. ويُجرى تدريب المسؤولين على احترام حرية العبادة. وفتحت مراكز دراسية لتشجيع التعاون بين الأديان. وفي إحدى القرى قدّم أحد المسؤولين الذين أجبروا أكثر من ألف مسيحي على التبرّؤ من دينهم اعتذاراً في وقت لاحق؛ وقبل وفاته تلقّى رعاية في مأوى للعجزة تشرف عليه كنيسة حاول إغلاقها في السابق.

المجال الثاني لتعاون الطيف السياسي الأميركي بأكمله هو مكافحة الفقر العالمي. ففي أواخر التسعينيات من القرن الماضي، انضمّ العديد من قطاعات المجتمع الديني إلى إدارة كلينتون في دعم خطة لشطب جانب كبير من ديون البلدان الأشدّ فقراً في العالم. وعلى الرغم من القصور عن تحقيق معظم أهدافها الطموحة، فقد شكلت المكاسب المتحقّقة سابقة لا مثيل لها - أو نقطة تحوّل في مجريات الأمور. وفجأة وجدت المنظّمات الليبرالية التي شاركت في حملة طويلة للتخفيف من أعباء من الدين نفسها في شراكة مع سياسيين أقوياء من اليمين المسيحي الذين وجدوا أنفسهم بدورهم يتقاسمون المسرح مع بونو، الناشط ونجم الروك. و كان دعاة التخفيف من أعباء الديون أذكياء بوضع مبادراتهم في

رزمـة مـع الإشـارة التوراتية إلى "سنة اليوبيل" الخمسينية التي أمر فيها الله الإسـرائيليين بإعفـاء الآخـرين من ديونهم و"إعادة كل امرئ إلى ممتلكاته". وأتبعت هذه الخطوة الابتدائية بأخرى، بقرار اتخذ في سنة 2005 بشطب ديون ثمانـية عشر بلداً من البلدان الأشدّ فقراً التي تدين بها إلى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي.

على الرغم من التقدّم في خفض الديون، فإن الدافع للتغلّب على الفقر لا يزال يفتقر إلى الزخم. ومن أسباب ذلك صعوبة التخلّص من الخرافات القديمة. فما زال العديـد ممـن يصفون أنفسهم بالخبراء يرون بأن المساعدة الخارجية ستهدر؛ وأن الحلـول "الحكومـية الكبيرة" لا تنجح؛ وأن الفقر جزء دائم من الحالة الإنسانية. يمكـن تفهّـم هذا التفكير إلى حدّ ما. فلم تفلح عقود من المعونة في القضاء على الفقـر، بل إن الوضع في إفريقيا جنوب الصحراء ازداد سوءاً في السنوات الأخيرة. لمـاذا؟ مـن الأسـباب المذكورة النـزاعات الإثنية؛ والنماذج الاقتصادية المعيبة؛ والعوامل الديموغرافية مثل النموّ والسكاني والمرض واستنفاد الموارد الطبيعية. ويشير بعـض الأشـخاص إلى عـدم وجود حكومات ديمقراطية حقيقية. ومن الأمثلة الصارخة على ذلك نظام روبرت موغابي الفاسد في زيمبابوي. ويميل اليساريون إلى لـوم السياسات الاقتصادية والتجارية غير المؤاتية للبلدان الفقيرة (وللفقراء في هذه البلدان) والتي تصبّ في مصلحة الشركات الكبيرة والأغنياء. وعندي أن كل عامل يلعب دوراً ويجب أخذه في الحسبان.

إن مكافحـة الفقر ليست بالطبع مسألة تقديم مال إلى الفقراء. لقد عوّل اليـسار تاريخيّاً على المعونة المدارة من خلال الحكومات الأجنبية، في حين قدّم الـيمين أفكاراً معيبة عن الاقتصاديات التي تنتهي فيها الفوائد المالية والثروة إلى صـغار المـستهلكين والطـبقات الفقيرة في المجتمع. وقد ازداد الجانبان حنكة وتعقـيداً. وتعلّـم المختصّون في هذا المجال المزيد عن كيفية الاستخدام الفعّال لأمـوال المعـونة بتوجيه غالبية الأموال عبر المؤسسات غير الحكومية، وإبراز الفـرص أمـام النساء، والتشديد على الحلول ذات التقانة المتدنية، والاهتمام بالاعتبارات البيئية، وإيجاد طرق لجعل أشدّ الناس فقراً يشاركون في الاقتصاد.

ومن الضروري أيضاً بالنسبة إلى البلدان المتقدّمة وضع حدّ لنفاق الدعوة إلى الأسواق الحرّة فيما تنفق مبالغ ضخمة على تقديم المعونات الزراعية لمزارعيها ما يجعل المنافسة مستحيلة على البلدان الفقيرة.

ومن الطرق الأخرى لمساعدة الفقراء تقديم الحماية القانونية إليهم. وتقوم اللجنة الرفيعة المستوى بشأن التفعيل القانوني لقدرات الفقراء، وهي اللجنة التي أشارك في رئاستها مع الاقتصادي البروفي هيرناندو دي سوتو، بتفحّص طرق القيام بذلك. فكثير من الفقراء لديهم أملاك على شكل أرض ومنزل وماشية، وغير قادرين على الاستفادة القصوى منها لأنهم يفتقرون إلى أي صكّ ملكية قانوني. وفي بعض البلدان تصل نسبة العقارات المملوكة خارج نطاق القانون إلى 90 بالمئة. ويعني ذلك أن الناس معرّضون لمخاطر الاستغلال والسرقة والحرمان من الاستفادة من أصولهم للحصول على ائتمان، أو الاستثمار، أو البدء بالادّخار. وذلك يلحق الضرر بهم وبمجتمعاتهم، إذ يبقي حكوماتهم بدون القاعدة الضريبية الضرورية لتقديم الخدمات الأساسية. وتكون النتيجة نسيجاً اجتماعياً غير متشابك، ما يسبّب الركود الاقتصادي والنزاع الأهلي. من الأسباب التي تجعلني أحبّ نهج تقديم الحماية القانونية للفقراء أن من الصعب وسمه بسمة إيديولوجية معينة. فهو هجين - مزيج من "مجتمع الملكية" و"السلطة للشعب".

لقد أعلن الرئيس بوش، "إننا نكافح الفقر لأن الأمل هو الردّ على الإرهاب". وفي تموز/يوليو 2005، اشترك مع قادة مجموعة الدول الصناعية الثماني في التعهّد بمضاعفة المساعدة الإجمالية إلى إفريقيا في السنوات الخمس القادمة من 25 مليار دولار إلى 50 مليار دولار سنويّاً. وبعد شهرين، أصدر البوق الأميركي ملاحظة أقلّ يقيناً. فقد أحدث السفير الأميركي إلى الأمم المتحدة، جون بولتون، جلبة بالنأي بحكومته عن الهدف الدولي بخفض معدّل الفقر الشديد إلى النصف بحلول 2015. وبعد أسبوع من الغموض والإشارات المختلطة، قال الرئيس بوش إن الولايات المتحدة تدعم هذا الهدف بالفعل وستعمل على الوفاء به. وعلينا الالتزام بهذا التعهّد وأكثر، لا لأننا نأمل أن يوفّر لنا سلامة أكبر، وإنما لأنه صحيح - كما قال جون كنيدي.

البند الثالث الذي أضعه على رأس أجندة التعاون بين الحزبين هو منع القتل الجماعي للبشر. فمع مرور الوقت، أصبح العالم أكثر براعة في إيصال الغذاء والماء والدواء إلى أماكن تفتقر إليها، شريطة ألا يقف من يحمل السلاح في طريقها. غير أنه لم يطوّر وسيلة يمكن الركون إليها للوقاية من الإبادة الجماعية.

كثر الحديث منذ مذابح رواندا في سنة 1994 عن كيف يتوجّب علينا عدم السماح بحدوث شيء مماثل مرّة أخرى. وفي غضون ذلك حدث شيء مماثل مرّة أخرى. ففي العقد الماضي، أدّت حرب متفرّقة عديمة الغاية وغير حاسمة في جمهورية الكونغو الديمقراطية إلى مقتل أكثر من 3 ملايين شخص. وفي إقليم دارفور في السودان، قُتل ما يصل إلى 300.000 شخص في إبادة جماعية عنيفة. وخلافاً لرواندا، كان اندلاع أعمال القتل في هذين البلدين تدريجيّاً لا ثوراناً بركانياً، ما أعطى المجتمع الدولي وقتاً كافياً للردّ. غير أنه استجاب ببطء وضعف. المشكلة لا تكمن في نقص الغضب الأخلاقي - أعلن عن العنف في دارفور على نطاق واسع - بل في عدم استخدام القوة بشكل فعال.

من الحلول الممكنة في مثل هذه الحالات أن ينتدب مجلس الأمن قوة كبرى مناسبة لتنظيم ائتلاف يستطيع أن ينفّذ إرادة العالم. فالتدخّل في هايتي الذي قادته أميركا في سنة 1994؛ وإنقاذ تيمور الشرقية بقيادة أستراليا في سنة 1999؛ والعمل البريطاني في سيراليون في سنة 2000 كانت ناجحة إلى حدّ كبير. غير أن مشكلة الاعتماد على "ائتلاف الراغبين" هي أن ثمة أوقاتاً لن يتقدّم فيها أحد للنهوض بالمهمة. ولا يرجع ذلك إلى أن قادة العالم قساة القلب بقدر ما يرجع إلى أن حفظ السلام الدولي مهمة مكلفة وصعبة وخطرة وغير محمودة في الغالب.

لردع من يحمل السلاح، يُحتاج إلى قوات ذات تسليح جيد وتدريب كاف؛ لكن إيجادها ليس سهلاً. فتوقّع أن يخاطر جندي بكل شيء في سبيل الدفاع عن وطنه شيء، وتوقّع أن يسافر الجندي نفسه آلاف الأميال للتدخّل في نزاع يخصّ شخصاً آخر، وربما الموت بسبب ذلك، شيء آخر. فمعظم الناس ليسوا إيثاريين

إلى هـــذا الحدّ، وبخاصة عندما يرون، كما هو معهود، أن القوة الدولية تلام على إخفاقاتها أكثر مما ينسب الفضل إليها عما تنجزه. ونتيجة لذلك، لا يترك لنا سوى نظـــام استجابة للأزمات ينجح جيداً أحياناً، وبشكل غير مرضٍ عادة، ولا ينجح البتّة في أحيان أخرى.

في أيلـــول/ســـبتمبر 2005، أقرّت الجمعية العامة للأمم المتحدة للمرّة الأولى بالمسؤولية الدولية الجماعية عن حماية السكان من الإبادة الجماعية، وجرائم الحرب، والتطهير العرقي، والجرائم ضدّ الإنسانية. غير أن الإقرار بوجود هذه المسؤولية لن يساعد أحداً ما لم تتوفّر القدرة أيضاً على حماية الناس والرغبة في القيام بذلك. لقد أنـــشئت الأمـــم المتحدة قبل ستين عاماً مع توقّع أن تنشئ جيشاً خاصاً بها. لكن الخصومة بين القوتين العظميين وضعت حدّاً سريعاً لتلك الفكرة، وليس هناك دعم كـــبير لإعادة إحيائها. فالدور المنطقي للأمم المتحدة في أزمة ما هو إجازة التدخّل من قبل مزيج من القوات العسكرية الوطنية. والدور المنطقي للولايات المتحدة هو المبادرة إلى ضمان توفّر مثل هذا المزيج من القوات عند الحاجة إليها ونجاحها عند نشرها. وللقيام بذلك، علينا العمل بجدّ لتهدئة الشكوك بشأن نوايانا. وعلينا أيضاً أن نكون واضحين بشأن ما هو مطلوب.

يجـــب أن تكـــون القوة التي ترمي إلى تجنب الإبادة الجماعية مشروعاً عسكرياً جـــادّاً؛ ولا يمكـــن تجميعها معاً من جيوش متدنية التمويل من هنا وهناك، وتشكيلها لفتـــرات قصيرة، وجمعها في الدقيقة الأخيرة. يجب أن يطلب من البلدان تحديد الأفراد القادرين الذين يكرّسون لمهمة الردّ الإنساني ويعدّون لمدّة سنوات للتفوّق في عملهم. وتـــتدرّب هـــذه القوات من الناحية المثالية معاً مدّة كافية لتطوير مهارات تستكمل بعـــضها بعضاً والمحافظة على جهوزيتها للانتشار بعد إشعار وجيز. وستجهّز بأحدث وســـائل الاتـــصال والنقل والأسلحة ويدعمها استخبارات فورية تقدّمها بلدان لديها الأجهـــزة الـــضرورية والخبرة. ويصحب مكوّناتها العسكرية وشبه العسكرية إداريون مدنيون ومدّعون عامون ينتمون إلى سلطات قانونية دولية. وعندما ترسل القوة، تكون مهمـــة العـــسكريين استعادة النظام؛ ومهمة المدنيين البدء بإعادة الإعمار على عجل؛ ومهمة المدّعين العامين تقديم المسؤولين عن جرائم الحرب إلى المحكمة.

أكــرّر ثانية أن ذلك ليس جيشاً دائماً للأمم المتحدة. بل هو المكافئ الدولي للخــيالة الذين يستطيع القادة أن يطلبوا منهم التحرّك للإنقاذ في الأوقات الطارئة. هناك العديد من التفاصيل (بما في ذلك التمويل) التي يجب التوصّل إلى حلول لها[1]، لكنها من حيث المفهوم طريقة أفضل لتفادي دارفورات جديدة من أي شيء لدينا الآن. لكــن قبل أن تصمّم الولايات المتحدة مثل هذا الجهد أو تشارك فيه، يجب على المحافظين والليبراليين أن يطرحوا جانباً بعض أهوائهم التقليدية. فلا يمكن إنشاء آلية يمكن الركون إليها في تفادي الإبادة الجماعية بدون التوصّل إلى مستويات غير مــسبوقة من التعاون العسكري الدولي. ربما لا تكون الأمم المتحدة مسؤولة، لكن لا بــدّ من مشاركتها. هل اليمين المسيحي مستعدّ لبحث مثل هذه المفاهيم بعقل منفــتح، أو هــل يبقى مقيداً بشكوكه القديمة، وحتى الخُيلاء المرضي، فيما يتعلّق بــالأمم المتحدة؟ في هذه الأثناء، على اليسار السياسي أن يوافق على صرف مبالغ كــبيرة مــن المال لتحسين القدرات العسكرية الدولية، حتى على حساب ضغط الاحتياجات الاجتماعية.

إذا كــان الماضــي مقدّمة حقّة، فليس هناك أمل. لكن إذا كان الماضي هو الماضي، فربما تجدر المحاولة. ففي النهاية، الأشخاص الذين عارضوا المعونة الخارجية، وبناء الأمم، ومكافحة الإيدز/فيروس الإيدز يؤيّدون هذه الأمور الثلاثة الآن. وقد أبلــغ رونالد ريغان، بعد تقاعده من الرئاسة، اتحاد أكسفورد في سنة 1992 قائلاً، "علينــا أن نعتمد على المؤسسات المتعدّدة الأطراف...ما أقترحه لا يقلّ عن قفاز مخمليّ إنساني تدعمه القبضة المدرّعة للقوة العسكرية".

إن التعاون الواسع بين اليمين المسيحي والناشطين الأميركيين الآخرين بشأن القضايا الإنسانية الدولية ليس أملاً غير واقعي؛ وقد شاركت أنا والسناتور براونباك في استــضافة مؤتمــر جيد الحضور مخصّص لهذا الموضوع في تشرين الثاني/نوفمبر 2005. التعاون لا يهمّ لما يمكن أن يساعدنا على إنجازه فحسب، وإنما أيضاً بمقدار مــا يمكــن أن يــساعد الأميركيين على فهم بعضهم بعضاً. وأنا مقتنع بأننا لسنا

---

(1) من هذه التفاصيل اتخاذ الولايات المتحدة موقفاً أكثر تأييداً للمحكمة الجنائية الدولية. فعلينا أن نطب لهذه المحكمة النجاح حتى إذا كنا نمتنع عن المشاركة فيها.

منقسمين بقدر ما نبدو عليه أحياناً. فمعظمنا لا يريد أن يخلط قادتنا بين إرادتهم وإرادة الله، لكننا لا نريدهم أن يتجاهلوا المبادئ الدينية والأخلاقية أيضاً. إننا نؤيّد فصل الدين عن الدولة لكن ليس الفصل القسري للدين عن الحياة العامة لأمّتنا. وكثير منا يصلّي بانتظام أن يهدي الله قادتنا ويرشدهم. إننا نأمل أن يفكّر الذين يتخذون القرارات باسمنا مليّاً في أسئلة الخطأ والصواب. ونريدهم أن يحمونا ولكن أن يجعلونا فخورين.

التعاون بين الحزبين بشأن القضايا الإنسانية يمكن أن يساعد أيضاً في التأثير نحو الأفضل على كيفية تصوّر العالم لأميركا. وأعتقد أن معظمنا يحبّ أن يُرى بلدنا واثقاً ومهتمّاً وذا مبادئ ونزيهاً وقوياً. غير أننا تعلّمنا منذ وقت طويل، في فيتنام وإيران، أن العالم لا يرانا دائماً مثلما نحبّ. ربما يعتقد بعض الأشخاص أن آراء الآخرين لا تهمّ، وأننا أقوياء جداً بحيث لا حاجة بنا إلى أن نُظهر، كما يحثّنا إعلان الاستقلال، "احتراماً لائقاً لآراء البشر". إن التسامح مع مثل هذا الجهل سيكون خطأً مميتاً وخيبة أمل لأصدقاء أميركا الحقيقيين في كل مكان. وسيكون موقف الولايات المتحدة حاسماً في أي مرحلة من مراحل التاريخ؛ وهو حيوي جداً اليوم فيما نسعى إلى تحقيق النصر في حربين متزامنتين. ويبدأ ذلك البحث بأن نعرف أننا لا نستطيع النجاح في العالم ما لم نتفهّم أولاً من نحتاج إلى التأثير عليهم، بمن فيهم أتباع الإسلام على وجه الخصوص.

القسم الثاني

الصليب والهلال والنجمة

الفصل الثامن

التعلّم عن الإسلام[1]

التقـــى المسيحيون والمسلمون لأوّل مرّة في سنة 636 قرب نهر اليرموك، وهو أحـــد روافـــد نهـــر الأردن؛ وانتهى القتال الشرس بذبح 70,000 مسيحي وبدء السيطرة الإسلامية على القدس، وكانت في السابق مركزاً أمامياً غربياً للإمبراطورية البيـــزنطية. وفي ســـنة 1099، أعـــاد الفرنجة السيطرة على المدينة المقدّسة باسم الصليب؛ وكانت النتيجة هذه المرّة ذبح 70.000 مسلم وقتل كل يهودي استطاع المسيحيون المنتصرون تعقّبه. وفي سنة 1187، استعاد الإسلام السيطرة على القدس بقـــيادة الناصر صلاح الدين، وأتبِع الانتصار بمزيد من الحملات الصليبية أدّت إلى مقتل عشرات الآلاف الإضافيين. ولقيت الدعوة إلى الحرب المقدّسة صدى في قسم كبير من العالم.

تقدّمت الحضارة منذ ذلك الحين بجرأة إلى القرن الواحد والعشرين؛ مع ذلك تُـــسمع الصيحة نفسها ثانية. فالعرب واليهود يتصارعون على الأراضي والأماكن المقدّســـة نفـــسها الـــتي جرى التقاتل عليها قبل 1000 سنة. وشنّت عصابة من الإرهابيين، تعمل باسم الإسلام، أشدّ الهجمات فتكاً على التراب الأميركي. وأثار ردّ إدارة بوش غضباً حادّاً في أوساط العديد من المسلمين. ويزداد القلق في أوروبا، حـــيث توسّـــعت هجـــرة المسلمين وأخذت تزداد أعمال الإرهاب والأمثلة على التعـــصّب. وفي إفـــريقيا، يصطدم الإسلام المنبعث مع المسيحية المنبعثة. وفي آسيا، يتـــسبّب الانقـــسام بين أتباع الإسلام وأتباع الأديان الأخرى بسفك الدماء من الشيـــشان إلى الفيليبين. فعلى غرار عائلة مزّقتها الإرادات المتصارعة، غالباً ما يستلهم أبناء إبراهيم الغيرة وانعدام الأمن والكراهية أكثر من استلهامهم مشاعر القرابة.

---

(1) ما يرد في هذا الفصل يعبّر عن المؤلّفة، وقد أثبتناه كما هو دون تعليق. والمؤلّفة ليست عالمة بالإسلام ولا تزعم ذلك، وهي تتوجّه أصلاً إلى القارئ الغربي غير المسلم. المترجم.

عـــندما رفعت يدي لأقسم يمين تسلّم منصب وزيرة الخارجية، كان في ذهني لائحــة مــن الأولــويّات من أبرزها الرغبة في تقوية الروابط الأميركية مع العالم الإســلامي. بــدا ذلك ضرورياً. فللولايات المتحدة مصالح طويلة الأمد تحميها في الشرق الأوسط وجنوب آسيا. وكانت قد وفّرت نهاية الحرب الباردة فرصة لإقامة شــراكات مع البلدان المستقلّة حديثاً وذات الموقع الاستراتيجي في آسيا الوسطى. وسرعان ما أتاح الانتخاب المفاجئ لرئيس معتدل في إيران احتمال بعث الدفء في العلاقــة المــتجمّدة مــنذ فتــرة طــويلة مع ذلك البلد. وسرى إحساس واسع بالاحــتمالات الديمقراطية التي لاحت في إندونيسيا ونيجيريا، وكل منهما عملاق إقليمــي. وقدّمت دوريات السياسة الخارجية طوال التسعينيات من القرن الماضي مقــالات عن "المتطرّفين الإسلاميين". ووجدتني في اجتماع إثر اجتماع أخطّ على دفتر ملاحظاتي، "تعلّمي المزيد عن الإسلام".

كنت ملمّة بعض الشيء بهذا الموضوع بالطبع. ففي العاشرة من عمري، كان والــدي يخــدم كرئيسٍ لبعثة الأمم المتحدة في الهند وباكستان المكلّفة بحل وضع كــشمير. وكــنت حتى في تلك السن أدرك الوقائع الأساسية. فقد انقسمت شبه القارة الهندية بسبب الدين، حيث أراد زعماء الهند دولة علمانية متعدّدة الإثنيات، وأراد قــادة باكستان بلداً للمسلمين. علقت كشمير بين الاثنين؛ فهي تضمّ غالبية مسلمة، ولكن يوجد فيها أقلية هندوسية كبيرة ويحكمها هندوسي. وكانت مهمة الدبلوماسيين تقضي بإيجاد حل يرضي جميع الأطراف. حدث ذلك قبل ستين عاماً تقــريباً؛ والآن توفّــي والدي وأنا مسنّة، ويوجد لدى البلدين أسلحة نووية، و لم تقترب المشكلة من الحلّ.

لم يكن هناك كثير من المسلمين في دنفر، حيث أمضيت سني مراهقتي. غير أن والــدي أنشأ صداقات في أثناء عمله في الأمم المتحدة، وقد قدم بعض من يعــرفهم لزيارته. وممن أذكرهم على وجه الخصوص السير ظفر الله خان، وهو وزيــر خارجــية سابق لباكستان. أعجبت به لأنه كان وقوراً وواسع الاطلاع وجذّاباً. وعندما اصطحبني إلى الفطور ذات صباح، أشارت زميلاتي في الصف اللــواتي حــسدنني مازحــات إلى أن بوسعه اختياري زوجة ثانية مع الاحتفاظ

بالأولى. غير أن ما أثّر فيّ عند الحديث معه عن كشمير هو كم يمكن أن تتعقّد الحـياة عـندما يذكي الدين والوطنية النـزاع ويكون كل جانب مقتنعاً بأنه يمتلك الحقيقة وحده.

جلست في وزارة الخارجية بعد مرور سنين طويلة وفكّرت في السير ظفر الله وكـيف بـدا خـارج المكان في دنفر. والحقيقة أنه سيبدو غريباً تقريباً في وزارة الخارجـية في سـنة 1997: ليس لدينا مسلمون يتولّون مناصب عالية وقليل فقط يشغلون مناصب متوسطة المستوى. قرّرت أن علينا تحسين اتصالاتنا. ولهذه الغاية، راجعت كل شيء من استخدام الموظّفين وتدريبهم إلى إدراج العُطَل الإسلامية إلى جانب اليهودية والمسيحية في تقويمنا الرسمي. وبدأنا سلسلة من المباحثات مع ممثّلين عـن المـسلمين الأميركيين، ودعوناهم في أثناء شهر رمضان إلى أوّل مأدبة إفطار تستضيفها وزارة الخارجية. ووضعنا أيضاً دليلاً تعريفيّاً بالإسلام يكون متاحاً أمام الأشخاص الذين يسافرون لمصلحة الولايات المتحدة إلى بلدان ذات غالبية مسلمة. احـتوت النشرة على معلومات أساسية لكنها مع ذلك جديدة بالنسبة للعديد من الأميركيين، وهذه بعضٌ منها:

- المسلمون يعبدون الله نفسه الذي يعبده المسيحيون واليهود[1].
- "الإسـلام" يعني الخضوع لله. والشخص الذي يسلم لله ويحيا مؤمناً سيجد أن للحياة اتساقاً وغاية.
- يؤمن المسلمون بيوم الحساب، وبالحياة الآخرة، والمسؤولية الأخلاقية لكل فرد. ومن أولى مسؤوليات المسلم رعاية الفقراء واليتامى والأرامل والمظلومين.
- الكتاب المقدّس عند المسلمين، وهو القرآن، يحتوي بالضبط على ما أوحى به الله عن طريق الملاك جبريل على تاجر مكي، محمّد بن عبد الله (النبي) في فترة تمتدّ اثنتين وعشرين سنة ابتداء من سنة 610.

(1) إلـه بالعـربية تعنـي God بالإنكليزية؛ والله اختصار لكلمة الإله. ويستخدم المسيحيون والـيهود العرب الكلمة نفسها مقابل God. واللفظة مماثلة بالآرامية، وهي اللغة التي كان يـتحدث بهـا يسوع، ويقال إنه صرخ على الصليب، "إيلي، إيلي لم سبختني"؟ - "إلهي إلهي لماذا تخلّيت عني".

- تستند الشريعة إلى القرآن، وأعمال النبي وأقواله، واجتهادات العلماء. وهي تحكم كل أوجه الحياة الشخصية والاجتماعية والمدنية.
- أركان الإسلام الخمسة هي: (1) إشهار الإسلام [الشهادتان]؛ (2) الصلاة؛ (3) الزكاة؛ (4) الصوم؛ (5) الحجّ إلى مكّة.
- يعتبر المسلمون محمداً خاتم الأنبياء الذين بدأوا بآدم ونوح، وتتابعوا عبر إبراهيم وموسى والملك داود ويسوع الناصري. وينصّ القرآن على أن الوحي الذي نزل على محمّد ثبّت تعاليم الأنبياء السابقين. وأن محمّداً (مثله مثل عيسى) لم يعتبر نفسه مؤسس دين جديد؛ وإنما رسولاً دعا قومه إلى العودة إلى عبادة الله الواحد الحقّ.
- يُرجع العرب نسبهم إلى إبراهيم عبر إسماعيل، ابن هاجر - مثلما يُرجع اليهود نسبهم إلى إسحاق ابن سارة. وهذه القضية مهمة لأن المسلمين واليهود على السواء (فضلاً عن المسيحيين) يؤمنون بأن الله أمر إبراهيم بالتوجّه إلى أرض كنعان حاملاً الوعد بأن ينزل أحفاده في تلك الأرض ويصبحوا أمة عظيمة.
- يؤمن المسلمون بأن عيسى من ذوي العزم من الرسل، لكنهم لا يقبلون احتمال أن يتخذ الله "ولدا". وهم يوافقون على أن عيسى ولد من امرأة عذراء وأنه صعد إلى السماء، لكنهم لا يؤمنون بأنه صُلب أو بُعث.
- في التراث الإسلامي، أوّل بيت لله الذي بمكة، بناه آدم وأعاد إبراهيم وإسماعيل تشييده لاحقاً. ويعتبر المسجدان في مكّة والمدينة، وهما المدينتان اللتان عاش بهما النبي، أقدس الأماكن في الإسلام. وثالث أقدس الأماكن المسجد الأقصى في القدس، وهو قائم في موقع زاره النبي - ثمة جدل إذا تمّ ذلك في حلم أم ماديا - ليصلّي مع عيسى وسائر الأنبياء ويصعد إلى السماء السابعة بصحبة جبريل.
- ينصّ القرآن على أن اليهود والمسيحيين المقيمين في مناطق يحكمها المسلمون يتمتّعون بالحماية - أي يجب المحافظة على أملاكهم وقوانينهم وعاداتهم الدينية وأماكن عبادتهم. وأظهرت المجتمعات الإسلامية خلال معظم الألفية الثانية

مـــرونة أكـــبر تجاه الأديان الأخرى مما أظهره المسيحيون في أوروبا. ومع أن المـــسيحيين والـــيهود المقيمين في المجتمعات الإسلامية كانوا أحراراً في ممارسة دينهم، فإنهم عوملوا على أنهم ذوو منـــزلة سياسية أدنى.

- غالباً ما تتمّ المساواة بتبسيط مفرط إلى حدّ - حتى من قبل بعض المسلمين - بـــين مفهوم الجهاد والحرب المقدّسة. الجهاد يعني لغة "الجهد" أو "السعي" في ســـبيل الله. ويـــشير "الجهـــاد الأكبر" عند معظم المسلمين إلى سعي المرء إلى الحفـــاظ على فضيلته (جهاد النفس). ويشير "الجهاد الأصغر" إلى الكفاح من أجل العدل، بما في ذلك الدفاع عن الإسلام في وجه من يهاجمه.
- يميـــز المسلمون بين الحروب المبرّرة والحروب غير المبرّرة. الحرب التي تخاض في سبيل الله - دفاعاً عن النفس أو في وجه الطغيان - حرب عادلة. والحرب التي تخـــاض لدوافـــع أخرى، مثل الاستيلاء على أرض يملكها آخر، غير مقبولة. وهناك قواعد تتعلّق بكيفية خوض الحروب. يجب عدم مهاجمة غير المتحاربين، أو إساءة معاملة السجناء. ووفقاً لخالد أبو الفضل، وهو خبير بارز في الشريعة الإســـلامية يعـــيش الآن في الولايات المتحدة، يؤكّد الفقهاء على أن الإسلام "ينهـــى المـــسلمين عـــن المعاملة بالمثل إذا عذّب العدوّ الأسرى المسلمين أو قتلوهم".
- يحرّم الإسلام الانتحار، لكن الموت في طاعة الله الحقيقية شهادة تضمن للمسلم مكاناً في الجنة.
- مـــع أن الإسلام نشأ في شبه الجزيرة العربية، فإن مسلماً واحداً من كل خمسة عـــربي الـــيوم (ونحـــو عربي واحد من كل خمسة غير مسلم). وتوجد أكبر الشعوب المسلمة في آسيا.
- على المسلمين واجب مساعدة المسلمين الآخرين، لا سيما من يتعرّض للمعاناة أو الاضطهاد.

يُـــثني التراث الإسلامي عن رسم محمّد أو تصويره، حتى في المساجد. غير أنه كان يوصف في حياته بأنه معتدل الطول، ذو عينين سوداوين، وبشرة فاتحة، وشعر كثـــيف طـــويل، ولحية غزيرة تسقط على صدره. كانت مكّة، بلدة النبي مركزاً

تجاريّـــاً يؤمّه الحجّاج للعبادة وتقديم القرابين إلى مئات الآلهة القبلية. وكان التجّار المحلـــيون يستفيدون من تموين الحجّاج وبيعهم أشياء، حية وغير حية، لاستخدامها في تعـــبّدهم. تركّز الوحي على محمّد على الإيمان بإله واحد كلي القدرة، وهدّد بـــتقويض هذه الممارسات المربحة، ما أدّى إلى تآمر السلطات المحلية على قتله. وقد هـــرب في اللحظة الأخيرة وانتقل سرّاً إلى المدينة المجاورة، حيث وطّد نفسه كقائد سياســـي وروحـــي. ومـــا إن حشد حوله ما يكفي من الدعم حتى عاد إلى مكّة مظفّراً، فحطّم الأصنام، وكرّس الكعبة لله، وأثبت سلطته على شبه الجزيرة العربية بأكملها.

وبعـــد أن تجاوز محمّد الستين من العمر بقليل، ألقى خطبة الوداع على جبل الـــرحمة، وهو يقع في جبل عرفات شرقي مكّة. فنبّه أمّته، "...[1] وإنكم ستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم". وتحدّث أيضاً عن المساواة العرقية، وهو قرار ساعد في تـــسهيل قـــبول الإسلام كدين عالمي. فقال، "لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح".

الإســـلام، علـــى غرار الأديان التوحيدية الأخرى، "مظلّة كبيرة"، يفسّر ويمـــارس بطـــرق شـــتى. ويرجع غنى الفكر إلى التأثيرات والاختلافات الإثنية والوطنـــية بـــين العلماء البارزين والانقسامات المذهبية. ونتيجة لذلك فإن كل تعميم تقريباً عن الإسلام خاطئ جزئياً. فمطلب بعض المجتمعات مثلاً بأن تغطّي النـــساء أنفسهن بشكل تامّ في الأماكن العامة يعكس الثقافة العربية - يرتدي الرجال العرب أيضاً ملابس شديدة الاحتشام - أكثر مما يعكس أمراً رسمياً من أوامـــر الإسلام. ويضمّ القرآن مقاطع تميز ضدّ المرأة (مثل اللغة المستخدمة في تعـــدّد الزوجات، والطلاق، والإرث)، لكن الآيات في كل حالة أقلّ تمييزاً من العادات العربية السائدة في ذلك الوقت. وقد أبلغ محمّد أتباعهن "فإن لكم على نسائكم حقّاً، ولهن عليكم حقّاً".

---

(1) الـــنص الذي أوردته المؤلّفة بالإنكليزية يبدأ بما يلي: "hurt no one so that no one may hurt you"، أي لا تـــؤذِ أحـــداً لكـــي لا يلحق الأذى بك. ولم أعثر على هذا المعنى في روايات خطبة الوداع فاكتفيت بإيراد ما تطابق معها فقط. المترجم.

وقد أشارت ملكة الأردن نور إلى أن "القليل من الغربيين يدركون أن الإسلام في القرن السابع منح النساء حقوقاً سياسية وقانونية واجتماعية لم يكن الغرب قد سمع بها، حقوقاً كانت النساء في الولايات المتحدة وسواها ما زلن يكافحن للحصول عليها في القرن العشرين. لقد أقام الإسلام باكراً هذه الحقوق، مثل حقّ المساواة في التعليم والتملّك والوراثة والمتاجرة وعدم الإكراه على الزواج، وعلى تساوي الرجال والنساء أمام الله – وذلك فيما كانت بقية العالم تعتبر النساء متاعاً منقولاً". وليس هناك شيء في القرآن يمنع المرأة من التصويت في الانتخابات، أو قيادة السيارة، أو الاختلاط بالرجال في الأماكن العامة، أو العمل خارج البيت (فقد كانت زوجة النبي الأولى، خديجة، امرأة أعمال ناجحة). وقد انتخبت البلاد التي تضمّ أكبر أعداد من المسلمين – إندونيسيا والهند وباكستان وبنغلادش وتركيا – أنثى رئيسة للوزراء؛ وهذا امتياز لا تستطيع أي دولة عربية أو الولايات المتحدّة ادّعاءه.

أشعلت وفاة محمّد في سنة 632 سلسلة من المعارك بشأن من يخلفه على الحكم، ما أدّى في النهاية إلى انقسام الإسلام إلى معسكرين كبيرين. الفئة الكبيرة، التي أصبحت تدعى السنّة فيما بعد، أيدت حما (والد زوجة) النبي. والمجموعة الثانية، الشيعة، فضّلت سلالة عليّ صهر النبي. ولا يزال هذا الانقسام بعد 1,400 سنة تقريباً يؤثّر على السياسة الإقليمية والعالمية. السنّة هم الغالبية في معظم المناطق، لكن الشيعة يتفوقون من حيث العدد في إيران والعراق والبحرين ولبنان ويتمتّعون بنفوذ في سوريا وأذربيجان وجنوب آسيا. وهذا الانقسام أبعد ما يكون عن اختلاف مهذّب في الرأي. فغالباً ما تشكو الأقليات الشيعية في البلدان التي يسيطر عليها السنّة من عدم التسامح والتمييز، وهي شكوى لها ما يبرّرها. ويرى متطرفون سنّة أن الشيعة ليسوا مسلمين البتّة.

ثمّة انقسام آخر، بين دعاة التحديث والمحافظين، يؤثّر في الشيعة والسنّة على السواء. يستميل التحديثيون التيار السائد في الإسلام الذي يسعى إلى التوفيق بين "العقلانية" والاعتقاد الديني. وهم يميلون إلى أن يكونوا أكثر ارتياحاً إلى التعايش مع الحكومات العلمانية؛ وأكثر اقتناعاً بقيمة تعلّم العلوم والرياضيات والتاريخ

واللغـــات الأجنبـــية؛ وأكثر ليبرالية في معاملتهم للمرأة؛ وأكثر تقبّلاً للمؤسسات الديمقـــراطية. ويصرّ المحافظون على درجة عالية من السيطرة على المسائل العائلية، والفصل بين الجنسين، ومقاومة العادات الأجنبية.

شـــكلت المملكـــة العربية السعودية مركزاً للإسلام السني المحافظ، متأثّرة بـــشدّة بحركة الوهّابيين الدينية (أو السلفيين) في القرن الثامن عشر. وشكلت الـــثورة في ســـنة 1979 في إيـــران نقطة الذروة للمحافظين الشيعة. ومع خبوّ الحماسة التي ولّدتها: أصبحت إيران ما هي عليه الآن: ميدان قتال بين المحافظين والتحديثيين.

يوافـــق المـــسلمون على أن القرآن هو كلام الله الحرفي، لكنهم يختلفون فيما بيـــنهم بـــشأن كيفية تفسير الآيات والعمل بها. واستخدم المفكّرون المسلمون ما يعرف بالاجتهاد عدّة قرون لتفسير مبادئ الشريعة وتطبيقها في الأطر الجديدة مع انتشار الإسلام في أنحاء واسعة من الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية وإلى إسبانيا وشمال إفريقيا وتركيا والهند ووسط آسيا وما وراءها. وساعد في هذا التوسّع طبيعة الإسلام السهلة المنال إلى جانب الحالة المتردّية للكنيسة المسيحية والمؤسسات الدينية الأخـــرى في ذلك الوقت. لم يكن الإسلام يتطلّب من أتباعه قبول لاهوت معقّد مثل الثالوث أو فهمه. وكل ما يطلبه الخضوع لله الذي يستطيع الجميع التوجّه إليه مباشـــرة مثل أي شخص آخر. ووفقاً لكلام أحد المؤرّخين، الإسلام "فتح الباب واسعاً في عالم يسوده انعدام اليقين والخيانة والانقسامات التي لا تطاق على أخوّة عظـــيمة ومتـــزايدة لرجال جديرين بالثقة، وعلى جنة... تسودها صحبة متساوية ومتع بسيطة ومفهومة".

كانـــت بغـــداد تقع في مركز العالم الإسلامي، وقد أصبحت في نهاية الألفية الأولى عاصـــمة تعليمية وعلمية وثقافية. وهناك كان المسلمون يعملون إلى جانب المـــسيحيين والـــيهود علـــى دراسة أعظم مؤلفّات الصين والهند ومصر وإسرائيل والـــيونان وروما القديمة. وعندما كانت الكنيسة تحظر ممارسة الطبّ في الأراضي المسيحية، كان العرب يستخدمون البنج ويجرون عمليات معقّدة. وطوّر المسلمون نظامـــاً عددياً ما زال يستخدم حتى اليوم وابتكروا النواس (البندول) وابتدعوا علم

المثلّــثات. وبعد أن تعلّموا من الصينيين كيف يصنعون الورق، احتفظوا بسجلات إداريـــة، وألفّوا الكتب في مجال واسع من الموضوعات، وصمّموا أول نظام مصرفي في العــالم. وفي هذا العصر الذهبي، كان الإسلام حديثاً وتقدّمياً، وتوّاقاً إلى تقبّل شتّى أنواع العلوم.

لماذا لا يتمتّع الإسلام بالسمعة نفسها اليوم؟ في القرن الثالث عشر، أحضر الفرسان المغول من الشرق أسلوباً جديداً ومرعباً للحرب، فاستولوا على بغداد وقسم كبير من الإمبراطورية الإسلامية. غير أن الغزاة توسّعوا كثيراً وسرعان ما حـــلّ محلّهم الأتراك في الشرق الأدنى. وفي ظل السلاطين العثمانيين، تراجعت الحاجة إلى التفسيرات المبتكرة للشريعة الإسلامية. وصار الأباطرة أكثر اهتماماً بـــضمان الطاعـــة والمحافظة على التقاليد. واليوم يوافق غالبية المسلمين على أن تفـــسير الإســـلام لا يزال مفتوحاً، لكن يبقى مقدار انفتاحه مسألة تثير جدالاً حادّاً. فبعض العلماء يدعون إلى إحياء الاجتهاد، وبخاصة كما ينطبق على دور المـــرأة، والمشاركة في الاقتصاد العالمي، والعلاقات مع غير المسلمين، وتعريف الدولـــة الإسلامية. وغالباً ما ينتقد هؤلاء المصلحون الغرب، مع ذلك يتّهمهم المحافظون أحياناً بالعمل لمصلحة الغرب على إضعاف الروح الحقيقية للإسلام أو تـــدميرها. وبمـــا أن الـــسنّة يفتقرون إلى هرمية كهنوتية مركزية، فإن مزاعم التجديف تنطلق في الغالب ونادراً ما تتبدّد.

أورثت أوروبا المسيحية، التي أحدثت فيها المعارك مع المسلمين في قسم كبير من العـــصور الوســـطى ندوباً، الولايات المتحدة الشكوك في الإسلام. فقد اعتبره معظم الأميركيين ديناً غريباً وباطنياً إلى حدّ ما، خارجاً على التراث اليهودي المسيحي الذي يرتاحون إليه. وفي الستينيات من القرن الماضي، اكتسبت أمّة الإسلام سمعة سيئة داخل الولايات المتحدة بسبب خلافاتها على القيادة وخطابها الانفصالي الساخط. وقد فوجئ العديـــد من الأميركيين عندما اعتنق الإسلام رياضيون يحظون بالإعجاب على نطاق واســـع مثل كاسيوس كلاي (محمّد علي) ولو ألسيندور (كريم عبد الجبّار) واستبدلوا أسمـــاء إفريقية أو إسلامية "بأسماء العبودية". وتمّ الإقرار بهذه الحيرة في كلمات محمّد علي التي ترفع التحدي(أنا اميركا) ، أنا القسم الذي لا تعترفون به. لكن تعوّدوا عليّ.

إنـــني أســـود وواثق ومغرور؛ اسمي ليس اسمكم؛ وديني ليس دينكم؛ وأهدافي تخصّني، وعلـــيكم الاعتياد عليّ". وعلى الصعيد الدولي، تعزّز الإحساس بالضيق من الإسلام بـــشكل دوري بسبب الحظر النفطي العربي، والجعجعة المعادية التي تصدر عن رجال الدين الإيرانيين، وحوادث الإرهاب.

غـــير أن هذه القضايا تحول دون قيام علاقات دبلوماسية ودية بين الولايات المـــتحدة ومعظم الدول ذات الغالبية الإسلامية. لقد كانت السياسة الأميركية منذ الـــبداية منـــسجمة في رفض أي فكرة عن الحرب الثقافية. وفي أثناء الفترة الأولى للـــرئيس كلينتون، أبلغ البرلمان الأردني، "هناك من يصرّ على وجود عقبات دينية وغير دينية لا يمكن اجتيازها أمام الانسجام بين أميركا والشرق الأوسط؛ وأن من المحـــتّم أن تتصادم معتقداتنا وثقافاتنا. لكنني أعتقد أنهم مخطئون. فأميركا ترفض أن تقبل حتمية تصادم حضارتينا".

شدّدت إدارة كلينتون على هذا الموضوع لأننا أردنا أن ينظر العرب والمسلمون إلى المستقبل بمخاوف عملية بدلاً من الخصومات الدينية الفكرية في المقام الأول. وكنا نأمل أيضاً بإظهار أنفسنا متحرّرين من التحامل على الإسلام. كان ذلك صادقاً تماماً. فقد نظرنا إلى الإرهاب على أنه زَيْغ. وأنه ليس هناك أي شيء إسلامي في الإرهاب، مثلما لا يمتّ الترمّت العنيف لمنظمة كوكلاكس كلان بصلة إلى المسيحية. فلا يمكن وصف مليار وثلاثمئة مليون شخص بالعنف الذي تختصّ فيه فئة قليلة. والقرآن صريح بتحريم قتل نفس بريئة، بل إنه يساوي ذلك بقتل الناس جميعاً.

لم يمنع ذلك بعض الأشخاص من تصوير الإسلام بأنه "................"، أو وصف محمّداً بأنه "........"[1]. يستشهد المنتقدون انتقائياً بمقاطع من القرآن تحضّ

---

(1) وصـــف الأب جيـــري فولـــول محمّداً (صلّى الله عليه وسلم) بأنه "........". ووصف الأب فرانكلين غراهام الإسلام بأنه "..............". وأضاف غراهام في وقت لاحق، "إنني أحترم المـــسلمين الذين قدموا إلى هذا البلد. ولديّ أصدقاء مسلمون. لكن ذلك لا يمنعني من الرغبة في مساعدتهم. لا شك في أنني لا أؤمن كما يؤمنون، وهم لا يؤمنون كما أؤمن أيضاً. ذلك لا يجعلنـــي أكرههم، بل أنا أحبّهم كثيراً. وأريد أن أبذل ما بوسعي لمساعدتهم... إنني أريدهم أن يعـــرفوا عـــن ابن الله، عيسى المسيح. أريدهم أن يعرفوا، لكنني لا أريد إكراههم على ذلك بالتأكيد. وأودّ أن يعرف المسلمون ذات يوم ما يقوم به المسيحيون".

لــــسلمين على استخدام القوة ضدّ أعداء الدين، وهي تعاليم يستطيع أن يستغلّها المتطـــرّفون العنيفون – الذين لديهم أعلى الأصوات – لتبرير أعمالهم. لكن اللغة الملتهـــبة موجودة أيضاً في التوراة، وهو ما يدعوه المسيحيون العهد القديم. فسفرا يهـــوذا والقضاة يقدّمان فهرساً للحروب المقدّسة، ويضمّ سفر التثنية تصديقاً فعليّاً علـــى الإبادة الجماعية باسم الإله[1]. وفي العهد الجديد يحذّر يسوع، "لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض: ما جئت لألقي سلاماً، بل سيفاً". أما سفر الرؤيا فيمكن تفسيره بعدّة طرق، لكنه لا يدعو إلى السلام.

لقد جُمع القرآن في فترة تزيد على عقدين، والتوراة على مدى قرون. وجُمع العهـــد الجديد في نحو 100 عام، وسط كثير من الخلاف بشأن ما هي الشهادات الـــتي تُـــدرج ومـــا هي التي تُستبعد. ويوجد في كل كتاب مواطن عدم انسجام وتغيّرات في الموضوع والجوّ العام. لذا فإن بناء عقيدة باستخدام بضع استشهادات إنمـــا هـــو سفسطة. والقارئ الذي يبحث في هذه الكتب عن لغة تزكّي التعصّب والحرب سيجدها سواء أكانت النصوص مقدّسة بالنسبة للمسيحيين أم المسلمين أم اليهود. ولكي يُفهم كل من الكتب المقدّسة بإنصاف، يجب أن يُقرأ ويدرس بشكل شـــامل وفي إطار المكان والزمان. ولذلك بذلت أجيال من العلماء جهوداً مضنية لتسليط الضوء على مقاطع أساسية، وتفسير التناقضات، وإزالة التباينات، وتصحيح سوء التراجم، وكشف أهمية التعابير الغامضة.

إنـــي أعرف بحكم الخبرة أن المسؤولين عن إدارة السياسة الخارجية الأميركية يـــرغبون في تفسير العقائد الدينية بطرق تقلّل من مخاطر النـــزاع الدولي – وربما يكـــون ذلك مسعى فاشلاً. وقد تبين أن ثمة فكرتين تسبّبان المشاكل. الأولى هي ادّعـــاء بعـــض المتطرّفين الصهاينة (مدعومين بالعديد من المسيحيين) أن إعطاء الله الأرض لإســـرائيل يقدّم رخصة لتجاهل حقوق الفلسطينيين. ويقابل ذلك نصوص قرآنية تحضّ المؤمنين على القتال لاستعادة أي أرض مفقودة. ويقول خالد الفضل،

(1) علـــى سبيل المثال، في سفر التثنية 20: 16 – 17: "وأما مدن هؤلاء الأمم التي يعطيها لكـــم الـــرب إلهكـــم ملكـــاً فـــلا تبقوا أحداً منها حيّاً. بل تحلّلون إبادتهم، وهم الحثّيون والاموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون.

"يرى بعض الفقهاء أن أي أرض قد حكمها المسلمون في أي وقت تبقى إلى الأبد جزءاً من أرض الإسلام".

إن مثل هذه العقائد، إذا اتّبعت بشكل أعمى وبدون مراعاة التعاليم الأخرى، إنما هي عقائد مكتوبة بالدم. لقد خلّف التاريخ قليلاً من الوشائج العاطفية بين الديانات الكبرى. ولا يلزم الكثير لحمل مجموعات من الأشخاص ذوي الآراء المتطرّفة على الاعتقاد بأن دينها يتعرّض للهجوم وأن من واجبها الدفاع عنه بكل وسيلة ممكنة.

الفصل التاسع

أرض مقدّسة، لكن لمن؟

شـــكل 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1917 بداية حقبة جديدة في الشرق الأوسط، فهو اليوم الذي طال انتظاره والصلاة من أجله بالنسبة لبعضهم، واليوم الذي طال الخـــوف مـــنه والـــصلاة لدرئه بالنسبة للآخرين. فقد نقلت رسالة وقّعها وزير الخارجية البريطاني، آرثر بلفور، الخبر:

> إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يكـــون مفهـــوماً بشكل واضح أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص الحقوق المدنـــية والدينـــية التـــي تتمـــتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين.

بعـــد الحـــرب العالمـــية الأولى، منحت عصبة الأمم البريطانيين انتداباً لحكم فلسطين، فانتقلت السلطة السياسية على الأرض المقدّسة من أيدي المسلمين للمرّة الأولى منذ انتصار صلاح الدين في القرن الثاني عشر. وأصبح إعلان بلفور سياسة رسمـــية تـــستعين بقـــوة الغـــرب لتشجيع الهجرة اليهودية وإضفاء الشرعية عليها وحمايتها. سعى مسيحيون نافذون لتحقيق هذا التحوّل التاريخي، الذي جاء نتيجة عقود من الضغط الذي مارسه الصهاينة. ففي سنة 1891، وُجّه التماس – مذكّرة بلاكستون[1]– إلى الرئيس بنجامين هاريسون وغيره من القادة العالميين تحثّهم على عقـــد مؤتمـــر دولي لإنشاء دولة يهودية. وقّع مئات من الأميركيين البارزين على

(1) صـــدرت المذكـــرة عـــن مؤتمـــر للمسيحيين واليهود عُقد في شيكاغو ونظّمه ويليام إ. بلاكـــستون، وهو رجل أعمال وقسّ إنجيليّ غير متخصّص. وكان بلاكستون الذي أشار إلـــى نفسه بأنه "خادم الله الصغير" كتب كرّاساً شهيراً *Jesus Is Coming* (المسيح قادم)، وصف عودة اليهود الى اسرائيل كشرط مسبق للمجئ الثاني للمسيح.

الالتماس، بمن فيهم رئيس المحكمة الأميركية العليا، ورئيس مجلس النوّاب، جون د. ركفلر، وج. ب. مورغان. وأشار الالتماس إلى أن القوى الكبرى كانت قد "انتزعت" بالفعل بلغاريا وصربيا ورومانيا ومونتينغرو واليونان "من الأتراك" وأعادتها "إلى أصحابها المشروعين". وتساءل الالتماس، لماذا لا تُعاد فلسطين إلى اليهود؟ "إنها وطنهم بحسب توزيع الله للأمم".

شعرت الأجيال اللاحقة من الدبلوماسيين بالإحباط، إذ لم تتطرّق مذكّرة بلاكستون ولا وعد بلفور إلى مسألة حاسمة: كيف يمكن بالضبط إنشاء دولة يهودية دون الانتقاص من "الحقوق المدنية والدينية التي تتمتّع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين"؟ لم يكن بلفور يعتبر هذه المسألة مهمة. فقد قال، "الصهيونية متجذّرة في تقاليد قديمة، واحتياجات حالية، وآمال مستقبلية ذات أهمية أعمق بكثير من رغبات وأهواء 700.000 عربي مقيمين الآن في الأرض القديمة". وعندما حذّر دبلوماسي زميل قائلاً، "دعونا بالله عليكم لا نخبر المسلم ما الذي عليه أن يفكّر فيه"، ردّ بلفور بحدّة، "لا أستطيع أن أرى لماذا تعترض السماء أو أي قوة أخرى على أننا نبلغ المسلم بما عليه أن يفكّر فيه".

بعد أقلّ من ثلاثين عاماً، فيما كانت الحرب العالمية الثانية تقترب من نهايتها، بدأت الولايات المتحدة تحلّ محل بريطانيا العظمى باعتبارها البلد الذي لديه النفوذ الأهمّ. ولتعزيز الاستقرار في الشرق الأوسط ما بعد الحرب، التقى روزفلت بالملك عبد العزيز بن سعود، عاهل المملكة العربية السعودية، سرّاً على سفينة حربية في قناة السويس. وحاول الرئيس إقناع ابن سعود بدعم المطالب اليهودية في فلسطين. على الرغم من أن الملك عبد العزيز أعجب بكرسي روزفلت المدولب، وهو أداة لم يرَ مثلها من قبل، فإنه لم يتأثّر بكلمات الرئيس. وقال له، "فليدفع العدوّ والظالم. يجب أن يتحمّل المجرم التعويض، لا المتفرّج البريء. ما الأذية التي ألحقها العرب باليهود في أوروبا؟ المسيحيون الألمان هم الذين سرقوا بيوتهم وأرواحهم". شعر روزفلت بخيبة الأمل من الرفض، لكنه طمأن الملك مع ذلك قائلاً، "لن أتخذ أي إجراء بخصوص الانتداب على فلسطين بدون استشارة العرب". كما أنه قدّم إلى ابن سعود كرسياً مدولباً كهدية. وبعد شهرين توفي روزفلت لم ينسَ القادة

العرب تعهّده الذي يشدّدون على أنه لم يحترم البتّة، كما أذكّر كلّما زرت الشرق الأوسط. وهم نصف مصيبين. فقد كانت وزارة الخارجية تتشاور معهم بانتظام بشأن الهجرة اليهودية من أوروبا إلى فلسطين، لكن دون التوصّل إلى موقف مشترك. أراد العرب وقف الهجرة، وشعر ترومان بواجب أخلاقي بدعمها، في أعقاب المحرقة. وفي أيار/مايو 1948، عندما انتهى الانتداب البريطاني رسمياً، أعلنت إسرائيل الاستقلال، وكانت الولايات المتحدة أوّل من اعترف به. اشتكى العرب من أنهم لم يُستشاروا، وأصرّ ترومان على أن قراره يجب ألا يكون مفاجئاً.

لم يمضِ إعلان دولة إسرائيل بهدوء. فقد هاجمت الجيوش العربية البلد الجديد. ودفع القتال الذي تلا ذلك مئات الآلاف من الفلسطينيين إلى ترك بيوتهم، واستقرّ العديد منهم في مخيمات للاجئين في الأردن ولبنان، حيث لا تزال تعيش أعداد كبيرة من المتحدّرين منهم. وفي سنة 1967، وسّعت حرب ثانية، دامت ستّة أيام، الأرض الخاضعة للسيطرة اليهودية عندما هزمت القوات الإسرائيلية القوات العربية على كل الجبهات. وعندما انتشر خبر الانتصار، أسرع مناحيم بيغن، رئيس حزب حيروت الإسرائيلي المحافظ، إلى حيث كان هيكل سليمان قائماً ذات يوم. فلأوّل مرّة منذ الحقبة القديمة، يصبح التراب المقدّس بأيدي اليهود. كان بيغن بصحبة قادة الحزب الآخرين، فقدّم الشكر وصلّى:

> لقد نشأ في وطننا جيل جديد... من المحاربين والأبطال. وعندما تقدّموا لمنازلة العدوّ تفجّر من قلوبهم النداء الذي يتردّد صداه في أوساط الجيل بأكمله، نداء أبي الأنبياء، منقذ إسرائيل من العبودية لمصر: "قم يا ربّ، فيتبدّد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك". وقد بدّدناهم وهزمناهم وهربوا.

تعكس صلاة بيغن حنيناً عميقاً لشعب أمضى نحو 2.000 سنة من المعاناة في النفي، وجمعه تراثه ودينه وأحلامه بالعودة إلى وطنه التاريخي. وعلى غرار الفاتحين البابليين والآشوريين والرومان والمسلمين والمسيحيين الذين سبقوه في القدس، تحدّث بيغن بلهجة المنتصر. لكن لكي ينتصر أحد الجانبين، يجب أن ينهزم الآخر. لقد بسطت حرب **1967** السلطة اليهودية على أراضٍ احتلّها العرب مدّة طويلة وأدّت إلى قيام اسرائيل بضم القدس **الشرقية العربية. وفي معظم الأماكن، وبخاصة**

في السـشرق الأوسـط، يكـون ردّ فعل كل من يخسر أرضاً البدء بوضع الخطط لاستعادها.

زرت القـدس للمـرّة الأولى في أواسط الثمانينيات من القرن الماضي. ومن نافـذة غـرفتي في الفندق، كنت أستطيع أن أشاهد واحداً من أكثر مشاهد العالم إثارة – قبّة الصخرة المهيبة محاطة بأسوار المدينة القديمة، أقدس الأماكن في الأرض المقدّسة. كان ذلك خلال فترة هادئة نسبياً في تاريخ إسرائيل؛ فلم تكن الانتفاضة الفلـسطينية الأولى قـد بـدأت بعد. مع ذلك غمرتني شدّة الصوت، والضوء، والعاطفـة. لم يـسعني سوى التأمّل في أن التاريخ الأهمّ حدث هنا، في الشوارع الضيّقة، وبساتين الزيتون الرائعة، والتلال المحيطة.

كنيـسة القـيامة التي أعاد الصليبيون بناءها قبل 900 سنة تقريباً، هي الموقع الـذي يقـول التراث إن جسد يسوع أنـزل فيه عن الصليب. وضعت يدي في البقعة التي أخبرت أن قاعدة الصليب الحقيقي وضعت فيها. شعرت بإغراء أن أسأل كيف يستطيع أحد أن يتأكّد من هذا الشيء، ومع ذلك أحسست بالارتعاش. غير أن التجربة تقوّضت للأسف بسبب تاريخ الشجار الواضح داخل الكنيسة نفسها، إذ كانت ولا تزال بيتاً منقسماً بالمعنى الحرفي. فقد تقاتلت المجموعات المسيحية على المكان منذ تكريسه؛ واليوم ينقسم المبنى إلى مناطق تسيطر عليها ستّ مجموعات – الأرثـوذكس، والفرنسيـسكان، والأرمن، والأقباط، والأثيوبيون، والسوريون. ويحتفظ بالمفتاح الرئيسي المسلمون الذين تثق بهم الطوائف المسيحية المختلفة أكثر مما تثق إحداها بالأخرى[1].

وعلـى مقربة يوجد المكان الذي بنى فيه سليمان هيكله وأدّى بيغن صلاته. أعيد ترميم ذلك الهيكل أولاً بعد السبي الأول في بابل، ثم أعاد الملك هيرود ترميمه ثانـية. ودمّـره الرومان في القرن الميلادي الأول وسوّوا المدينة بأكملها بالأرض باسـتثناء أسوارها الخارجية، ما ترك الحائط الغربي للهيكل سليماً. هذا البناء الذي مـا زال قائماً مقدّس عند اليهود. راقبت الرجال الملتحين الذين يعتمرون القبّعات

(1) اندلع العنف في كنيسة القيامة مؤخّراً في أيلول/سبتمبر 2004، عندما التُقط فيلم للرهبان الأرثوذكس والفرنسيسكان وهم يتدافعون ويترافسون ويتلاكمون.

ويحملــون شـــالات الصلاة وهم يرتّلون أمامه ويتركون قصاصات من الورق بين حجارته. يصلّي اليهود المتديّنون لله يومياً "أن تعيد الصلاة إلى هيكلك في صهيون"[1]. ثمّــة قسم كبير من الشريعة اليهودية مخصصٌ للأضاحي التي ظلّت تقدّم طيلة قرون داخــل الهيكل. ومن الكنوز التي كان يُحتفظ بها فيه صندوق ذهبي مقفل يحتوي على الوصايا العشر ويعتقد أنها تجسّد وعد الله لإسرائيل: تابوت العهد[2].

عــند أســفل الحــائط الغربي، يوجد مسار يقود إلى منطقة مساحتها خمسة وثلاثــون فــدّاناً من النوافير والحدائق والمباني يدعوها اليهود جبل الهيكل ويعرفها المسلمون باسم الحرم الشريف. لقيت هدوءه بالترحاب بعد ضوضاء المدينة. كان صــوت المــاء يبعث على الراحة فيما يتوضّأ المصلون استعداداً للصلاة. وجدت المــسجد الأقصى بارداً من الداخل، تزيّنه العقود والأعمدة ويملؤه النور. وقد بنى المسلمون الحرم في أواخر القرن السابع. وهو يحيي ذكرى إسراء محمّد من مكّة إلى القدس (الأقصى تعني الأكثر بعداً). ووفقاً للتراث الإسلامي، بدأ محمّد معراجه إلى الــسماء من صخرة مغلّفة تحت القبّة الذهبية. وثمة أعراف يهودية متنوّعة تفيد بأن هــذه الــصخرة كانت الأساس الذي استخدمه الله لخلق السموات والأرض، أو المــذبح الذي قدّم عنده إبراهيم ابنه إسحق[3] قرباناً لله، أو مكان الاستراحة الذي حلــم فــيه يعقوب بالسلّم الذي يصعد إلى السماء. من المحزن أن الأرض المقدّسة أرض مشتهاة أيضاً. ففي أثناء الحملات الصليبية، وضع المسيحيون المنتصرون صليباً فــوق القبّة، واستخدموا الصخرة دعامة لمذبح، وغطّوا النقوش القرآنية بالنصوص اللاتينــية، وحوّلــوا المسجد الأقصى إلى مقرّ قيادة عسكرية. واليوم، يدّعي مفتي

---

(1) هــذه مــن الأميدة، أو الصلاة القائمة، وهي مجموعة من الشكر والحمد. يتّجه من يتلو صــلاة الصلاة الشكر نحو إسرائيل إذا كان خارجها، أو نحو القدس إذا كان في إسرائيل ولكن خارج القدس، أو نحو جبل الهيكل إذا كان في القدس.

(2) فقــد الــتابوت أو سُــرق أو أخفي عندما فتح البابليون القدس في سنة 587 قبل الميلاد تقريباً. وعلى الرغم من المشاهد الأخيرة لفيلم *Raiders of the Lost Ark* (المغيرون على تابوت العهد المفقود)، فإنه لم يتمّ العثور على التابوت.

(3) إسماعيل عند المسلمين، ولا يخفى على القارئ أيضاً أن المؤلّفة تخلط جرياً على ما هو معهود بين قبّة الصخرة والمسجد الأقصى. المترجم.

القــدس الأكبر أن الحرم (جبل الهيكل) وكل منشآته، بما في ذلك الحائط الغربي، أمـاكن مقدّسة للمسلمين فقط. وتسعى المجموعات اليهودية الشديدة التعصّب إلى إعادة بناء الهيكل ونقل المقدّسات الإسلامية.

عندما يجلس الدبلوماسيون في العادة للتفاوض على حدود ما، يأتون مزوّدين بخـرائط واقتـراحات للتـسوية. لكــن ذلــك ليس كافياً في الشرق الأوسط. فالإســرائيليون والفلسطينيون يهتمّون اهتماماً عميقاً بالقضايا الاقتصادية والأمنية. ويناقشون بصخب بشأن الترتيبات الأمنية، والوصول إلى الماء، وطرق المواصلات، والسيطرة على المجال الجوّي؛ لكن بالنسبة للمفاوض، هذه مسائل يمكن حلّها من خلال عملية أخذ وردّ. غير أن النقاش المثمر يتوقّف عندما يحاجّ الطرفان في أحقية مــواقفهما لا على أساس القوانين الإنسانية والسوابق، وإنما على أساس وعود الله ونواياه.

نــادراً ما بدا السلام في الشرق الأوسط بعيداً بقدر ما بدا عليه في أثناء كتابة هــذا الكــتاب في أوائــل ســنة 2006. الفلسطينيون منقسمون على أنفسهم. والإسرائيليون خلصوا إلى عدم وجود شريك يصنعون السلام معه. وينظر الكثيرون إلى المفاوضــات التي حظيت بتغطية إعلامية عالية في التسعينيات من القرن الماضي بأنهــا غلطة ناتجة عن اعتقاد ساذج بأن ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية صادقان في رغبتهما بقبول وجود إسرائيل. وأعتقد أن الحقيقة أكثر تعقيداً. ولفهم احتمالات المستقبل، تجدر مراجعة كيفية الوصول إلى الجمود الحالي.

خــلال ســنة 2000، ســنتنا الأخــيرة في الحكم، بذل الرئيس كلينتون والمفــاوض الخــاص دنــيس روس وأنــا جهوداً كبيرة مع ممثّلي الإسرائيليين والفلسطينيين لإيجاد طريقة للالتفاف على العقبات أمام تسوية سلمية. وكانت القــدس من أكثر هذه العقبات إزعاجاً. فقد أصرّ الفلسطينيون على أن المدينة المعروفة باسم القدس يجب أن تكون عاصمة دولتهم. كما طالبوا بالسيادة التامة علــى الحــرم الشريف. وفي أثناء المباحثات، استعرضنا مجموعة من التغييرات الخلاّقة على موضوعي الولاية القانونية والسلطة. بل إننا سألنا الجانبين إذا كانا يقبلان بما اعتقدنا أنه فكرة جديدة: "السيادة الإلهية" على المواقع الأكثر قداسة.

وفي أثنـــاء الــــبحث عن إلهام، اختلى الرئيس كلينتون بنفسه لدراسة أجزاء من القـــرآن والـــتوراة. وفي النهاية، اقترح ما يلي: "ما هو عربي في المدينة يكون للفلسطينيين وما هو يهودي للإسرائيليين". وذلك يعني السيادة الفلسطينية على الحرم الشريف والأحياء العربية - حيث يمكن أن يكون للفلسطينيين عاصمتهم - والسيادة الإسرائيلية على ما تبقّى من المدينة، بما في ذلك الحائط الغربي. ووافق رئيس الوزراء الإسرائيلي، إيهود باراك، على أفكار الرئيس. وبذلك قبل بإعادة تقـــسيم القدس، وهو أمر تعهّد القادة الإسرائيليون اللاحقون، بمن فيهم باراك نفسه، عدم القيام به البتّة. ووافق أيضاً على إنشاء دولة فلسطينية تتكوّن من 97 بالمئة من الضفّة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية.

لسنا بالطبع أول من يبحث عن صيغة تجلب السلام إلى القدس. ففي سنة 1192 سعى صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، وكلاهما يقود جيوشاً أنهكها المـــوت والمصاعب، للتفاوض على إنهاء الحملة الصليبية الثالثة. كانت الشروط الـــتي اقترحها ريتشارد شبيهة بشكلٍ غير عادي بتلك التي فكّرنا فيها (مع أنها تؤثّر على المسيحيين لا اليهود). فوفقاً لخطة ريتشارد، يسيطر المسلمون على قبّة الـــصخرة والمـــسجد الأقصى؛ ويحتفظ المسيحيون بمواقعهم المقدّسة؛ ويقسّم ما تبقّـــى من القدس والمناطق المحيطة بها. وفي الرسائل المتبادلة، شدّد القائدان على محـــورية المدينة المقدّسة. فكتب ريتشارد، "إن القدس بالنسبة إلينا مكان للعبادة لا يمكننا التخلّي عنه حتى إذا لم يبقَ منا سوى رجل واحد". وردّ صلاح الدين، "القـــدس... أكثر قداسة عندنا مما هي عندكم لأنها المكان الذي عرج منه نبينا إلى السماء والمكان الذي ستحشر فيه الأمة في يوم القيامة. لا تتخيل أننا نتخلّى عنها أو نبدّل موقفنا". وفي النهاية، انهارت المفاوضات وسط المكائد السياسية، والنكـــسات العـــسكرية، ومـــزاعم الـــنوايا السيئة. فانسحب ريتشارد وتُرك المسيحيون في القدس بحقوق الحجّ فقط.

بعـــد ثمانمئة وثماني سنوات، انهارت مفاوضاتنا أيضاً. فقد أظهر عرفات عناداً خلافاً لمرونة باراك، ورفض صراحة العرض الذي تقدّم به كليتون. وفي آخر محاولة لإقناعه، طلبنا مساعدة الزعماء العرب في مصر والأردن والمغرب والمملكة العربية

السعودية. كنا نأمل أن تسهّل مساندهم الموافقة على عرفات. وبالنظر إلى الوراء، لم تكن مساندهم تهمّ كثيراً. فالمصريون والسعوديون لم يضغطوا كثيراً على عرفات، وعلى أي حال فإن حكومتيهما لا تتمتّعان بمصداقية كافية في أوساط العرب لإقناعه بتحمّل المخاطر التي تنطوي عليها التسوية. وفي تفسير ذلك، لم يتردّد عرفات في عرض العذر المبيت: كان يفتقر إلى السلطة، كما قال، التي تمكّنه من تقديم تنازلات تتعلّق بالمواقع المقدّسة الإسلامية. لم يكن بوسعه التسوية أو "التذبذب" في قضايا مقدّسة عند كل المسلمين في العالم دون أن يعجّل ذلك في جنازته. والأسوأ من ذلك أنه قدّم لنا الكذبة – الشهيرة بين الدُّعاة العرب – بأن ليس لليهود مطالب في القدس لأن الهيكلين الأول والثاني بنيا في مكان آخر في الواقع. كان يمكن أن يكون عرفات أول رئيس لفلسطين معترف بها دولياً؛ لكنه آثر بدلاً من ذلك تصفيق المؤيّدين الذين امتدحوه لأنه رفض التخلّي عن أي جزء من "الأرض العربية" أو الاعتراف بسيادة إسرائيل على الحائط الغربي. وعند عودته إلى الضفّة الغربية، استُقبل بالرايات التي ترحّب به وتصفه بأنه "صلاح الدين الفلسطيني".

المسألة المطروحة للمستقبل هي هل سيقبل أي زعيم فلسطيني بما رفضه عرفات – حتى إذا عُرض؟ الإجابة يعقّدها أمر قرآني إلى المسلمين: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم... واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم". ويزيد من صعوبتها أيضاً سياسة إسرائيل القديمة ببناء المستوطنات على الأراضي المحتلّة منذ سنة 1967.

برّرت الحكومة المستوطنات الأولى في أواسط السبعينيات من القرن الماضي على أساس مخاوف أمنية محدّدة، مثل السيطرة على الأراضي المرتفعة. وبعد ذلك تولّت السلطة حكومات محافظة بقيادة مناحيم بيغن وإسحاق شامير عازمة على تحقيق "إسرائيل الكبرى" وإعادة تثبيت مطلب البلد بالضفّة الغربية بأكملها (كل يهوذا والسامرة التوراتية) وتجاهل طموحات ملايين الفلسطينيين. وقد مُنح الإسرائيليون في ظل هذه القيادة حوافز مالية لإنشاء مجتمعات في أماكن كان يعيش العرب فيها تاريخياً. وكان بيغن يسمّي الأراضي المحتلّة "بالأرض الإسرائيلية

المحـــرّرة"[1]. ودعـــا شـــامير بناء المستوطنات "بالعمل المقدّس". وقد أوضح أحد الحاخامـــات أن "خـــلاص العالم بأكمله يتوقّف على خلاص إسرائيل. ومن هنا نـــستمدّ تأثيرنا الأخلاقي والروحي والثقافي على العالم بأسره. وسيعمّ الخير الناس أجمعين ببركة شعب إسرائيل الذي يعيش على كل أرضه".

ربمـــا يعتقد الحاخام أن المستوطنات عزّزت نفوذ إسرائيل، لكن الأدلّة على ذلك مبعثرة. فقد أفسد برنامج البناء المكثّف على أرض متنازع عليها، كما أشار كـــثير من الإسرائيليين، الموقف الأخلاقي للبلد، وعمّق الغضب العربي، وساهم في بـــؤس الفلسطينيين. وفرضت المستوطنات أيضاً عبئاً لا يُحتمل على قوات الأمن الإسرائيلية التي يطلب منها حماية المستوطنين من جيرانهم الفلسطينيين المعادين الذين أفقروا. ويُحسب لرئيس الوزراء الإسرائيلي أريل شارون إدراكه الحاجة إلى خفض الـــنفقات، فأمر بانسحاب القوات الإسرائيلية والمستوطنين في آب/أغسطس 2005 من قطاع غزّة الأغبر والمكتظّ بالسكان. غير أن الخلاف على الضفّة الغربية لا يزال قائماً. وعند النظر إلى الوراء إلى العقود الطويلة من الجمود، أجدني متفقة للأسف مـــع لـــيون ويزلتير، المحرّر الأدبي لمجلّة 'نيو ربيلك': "إن فكرة إسرائيل الكبرى... كانـــت فكـــرة غبية دائماً، أخلاقياً واستراتيجيّاً. لقد عزّزت النشوة الفورية للقلّة وقدّمـــتها علـــى سلامة الكثرة في النهاية؛ وأدخلت سموم المسيحانية والصوفية في سياسة ديمقراطية حديثة".

فرضـــت المـــستوطنات تكلفـــة أخرى أيضاً. فقد طالب إيغال عامير، الشاب الإسرائيلي الذي قتل إسحاق رابين في سنة 1995، بتطبيق العقوبة الدينية على جريمته الدنيـــة. وكان حاخام شديد التطرّف قد طمأنه بأن عليه قتل رابين بموجب الشريعة الـــيهودية، لأن دعم رئيس الوزراء للسلام عرّض حقوق المستوطنين للخطر. وعندما سئل عامير إذا كان قد عمل بمفرده، أجاب لا؛ كان واثقاً بأنه عمل بمعية الله.

---

(1) بـــين 1977، عندما تسلّم بيغن منصبه، و1992، عندما ترك شامير منصبه، ارتفع عدد المـــستوطنين الإســـرائيليين في الضفة الغربية وقطاع غزّة ومرتفعات الجولان والقدس الشرقية من 57.000 (منهم 50.000 كانوا في القدس الشرقية) إلى أكثر من 240.000 مستوطن.

علـــى الرغم من أنني لم أوافق على بعض سياسات الحكومة الإسرائيلية، وبخاصة الأكثر عدوانية فيما يتعلّق بالمستوطنات، فإنني ملتزمة التزاماً كاملاً بالمحافظة على وجود إسرائيل وأمنها. ويشعر غالبية الأميركيين كذلك. لماذا؟ إننا نعلم أن المجتمعات اليهودية اضـــطهدت من أيام العبودية في مصر إلى المذابح المدبّرة في روسيا القيصرية. ونعتبر أن المحرقة تشكل فئة خاصة بها – مأساة تستعصي على الفهم، ويجب ألا تُنسى أو تتكرّر. لم نرَ في إنشاء إسرائيل إعادة تأهيل لشعب فحسب، وإنما أيضاً لفتة كياسة (لياقة) من قِـــبَل الجـــنس البشري بأكمله. ونقبل المقولة بأننا لم نطلب الكثير من العرب، الذين لديهم مدن مقدّسة أخرى وكثير من الأرض، بإفساح متّسع لشعب إسرائيل الصغير في المكـــان الوحـــيد الـــذي كان لديهم وطن حقيقي فيه. كما نرى أيضاً نوع البلد – ديمقراطية مزدهرة – الذي بناه الإسرائيليون. ويتساءل الأجانب، وبخاصة العرب، لماذا تتحالف أميركا مع إسرائيل. وعند البحث عن إجابة، يلجأ البعض إلى نظريات المؤامرة أو يـــبالغون في تقديـــر النـــسبة المئوية لليهود في الولايات المتحدة – تتراوح بحسب تخميـــنات إحدى الدراسات بين 10 و85 بالمئة، في حين أن النسبة الفعلية تقلّ عن 2 بالمـــئة. وكـــشف مسح حديث أن العرب يؤمنون بأن "اللوبي الإسرائيلي" هو المحدّد الأكثـــر نفوذاً للسياسة الخارجية الأميركية. لكن من الأدقّ القول إن الأميركيين من الطـــيف الإيديولوجي بأكمله يدعمون إسرائيل لأننا نجد في ذلك المجتمع الصفات التي نرتبط بها ونحترمها.

يهـــتمّ الأميركيون أيضاً بإسرائيل بسبب التراث الديني المشترك. ربما كانت المحرقة نقطة انعطاف في الدعم الأميركي لإقامة دولة إسرائيل، لكن جذور السياسة الأميركـــية ترجع إلى إعلان بلفور – أن هناك أرضاً موعودة وأن الإسرائيليين هم متلقو هذا الوعد. بالنسبة لدبلوماسيينا، يكمن التحدّي في التوفيق بين نقطة البداية هـــذه والحقـــوق الشرعية للفلسطينيين. وتلك مهمة دونها صعوبات جمة في كافة الظـــروف. غير أن الاعتبارات الدينية بالنسبة لبعض الأميركيين تتجاوز أي اعتبار لإنصاف الفلسطينيين. وهم مقتنعون، على أساس العديد من المقاطع التوراتية، بأن يسوع لن يعود إلا عند إعادة بناء هيكل سليمان وخوض الحرب الحاسمة بين الخير والشرّ التي وصفها سفر الرؤيا.

تتـــصوّر سلسلة من الروايات الأكثر مبيعاً قصّة تتكشّف أحداثها كما يلي. انهـــيار عام للحضارة يليه "الارتقاء الأخير" الذي ينتقل فيه المسيحيون المؤمنون إلى الـــسماء، تاركين الآخرين خلفهم[1]. وسرعان ما يظهر المسيح الدجّال مدّعياً أنه الأمـــين العـــام للأمم المتحدة. تنخدع إسرائيل بوعوده وتوقّع معاهدة سلام يعاد بموجـــبها بناء الهيكل في القدس (على الرغم من أن المسيح الدجّال يدنسه لاحقاً). يطلـــق ذلك "المحنة" التي يرمي في أثنائها الله الأرض بالأوبئة لتشجيع العصاة على إيجـــاد طـــريق الإيمان. وتحتشد جيوش بعيدة وتهاجم إسرائيل – قوة عدادها 200 ملـــيون مقاتل. تقع المعركة الفاصلة قرب بلدة مجدّو في الضفة الغربية على بعد أقلّ مـــن خمـــسين ميلاً عن القدس. وهناك يظهر المسيح ثانية هابطاً من السماء لقيادة المـــسيحيين المؤمنين و144.000 يهودي متنصّر (اليهود الوحيدين المتبقّين) إلى نصر دموي. ويلي ذلك ألف عام من حكم المسيح على الأرض.

في ســـنة 1999، كشف استطلاع للرأي أجرته مجلّة "نيوزويك" أن 40 بالمئة من الأميركيين – أكثر من 100 مليون شخص – "يؤمنون بأن العالم سينتهي كما تنبّأ التوراة، في معركة بين المسيح والمسيح الدجّال". ويعتقد تسعة عشر بالمئة من المـــستجيبين بـــأن المسيح الدجّال حيّ اليوم. ويعتقد ثلاثة عشر بالمئة في "الارتقاء الأخـــير، وبعضهم لا يزالون يعرضون ملصقات على مصدّ السيارة تحمل التحذير العميق التفكير: "تعال إلى الارتقاء الأخير، ستكون هذه السيارة بدون سائق".

لعلّ تربيتي في كنيسة كاثوليكية لا تشدّد على سفر الرؤيا، تجعلني أرى النصّ بمثابة رؤية كارثية مشكلة بكفاح المسيحيين الأوائل للنجاة من عدوانية روما أكثر مما هو خريطة ذات رموز مفصّلة. كما أنني سئمت من مشاهد المسيح الدجّال. في أثـــناء الحروب الصليبية، طمأن المستشارون الدينيون ريتشارد قلب الأسد إلى أن

(1) فـــيما يلي وصف جيري فولول الارتقاء الأخير: "ستكون راكباً في سيارة. وربما تكون السائق. وسيكون هناك العديد من الأشخاص في السيارة معك، وربما بينهم من هو غير مـــسيحي. وعـــندما يتعالـــى صـــوت البوق، تبتعد على الفور أنت والمؤمنون الآخرون المولودون ثانية في تلك السيارة – تختفي، تاركاً وراءك ملابسك والأشياء المادية التي لا يمكن أن ترث الحياة الأبدية... وتخرج فجأة سيارات أخرى يقودها مؤمنون عن السيطرة ويحدث اضطراب كلي... في كل طريق في العالم.

صلاح الدين يطابق الوصف؛ ولم ينتج ذلك الكثير من الخير. وأعلن مارتن لوثر كنغ، الذي بدأ الإصلاح الديني، أن البابا هو المسيح الدجّال؛ ومزّقت الحروب الدينية أوروبا في المئة سنة التالية. وثبّتت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية وصف نابليون؛ فتبع ذلك مزيد من الدمار والحرب. إن لغة سفر الرؤيا دراماتيكية جداً بحيث تغري المرء بإضفاء شخصيات محدّدة على الأصدقاء، وبخاصة على الأعداء. ويغرينا الإحساس المتمحور حول الذات بأن تقع ذروة التاريخ في أثناء حياتنا إذا كان للتاريخ من ذروة. فتصوّر الماضي من دوننا أمر غير صعب؛ كما أن تصوّر مثل هذا المستقبل أصعب وأقلّ إمتاعاً - لذا نبحث عن الأسباب لتصوّر شيء آخر.

ربما تسوّي المعركة الفاصلة [بين الخير والشرّ] كل الحسابات. لكن ما من شيء يقدّم العذر لاعتماد زعمائنا على تلك الفرضية لتبرير ألا نفعل شيئاً، لكي يثبت بعد ذلك خطأهم، ما يخلّف لنا كل الدمار دون أي شيء من الجنة. وتهيئة الجوّ المناسب للموقعة الفاصلة ليس سياسة خارجية يمكن الدفاع عنها. لكن يمكن الدفاع عن السلام. وربما جعل ذلك لصناع السياسة والواعظين أهدافاً متعارضة أحياناً. في كانون الثاني/يناير 1998، دعا بيل كلينتون رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، وياسر عرفات إلى البيت الأبيض. كان هدفه إقناعهما بإحياء عملية السلام التي عطّلتها الحوادث الإرهابية وتصاعد النشاط الاستيطاني. وعشية الاجتماع، تشاور نتنياهو مع قادة اليمين المسيحي الذين رحّبوا به باعتباره "رونالد ريغان الإسرائيلي" وشجّعوه - بشكل طائش برأيي - على عدم التسوية. فقد رأى الناشطون المسيحيون اليمينيون وغيرهم من منتقدي إدارة كلينتون أن انخراط الولايات المتحدة في عملية السلام تُخضع إسرائيل لضغط لا مبرّر له. ووفقاً لطريقة تفكيرهم، فإن أي سياسة تؤدّي إلى جعل إسرائيل تعيد مزيداً من الأرض إلى الفلسطينيين مخالفة للتوراة أو خطرة على أمن إسرائيل أو الاثنين معاً.

وعندما تولّى الرئيس بوش منصبه، كان مصمّماً على عدم تكرار ما اعتبره أخطاء الرئيس كلينتون. فرفض التعامل مع عرفات، وامتنع عن تعيين مفاوض دائم في المنطقة، ولم يشارك في الجهود لإيقاف العنف بين الإسرائيليين والفلسطينيين

وأدّى إلى مقـــتل أكثر من 4,000 شخص. ربما كان لنهج بوش ميزة الحفاظ على المــصادر الدبلوماسية الأميركية لأغراض أخرى، لكن كان له أيضاً ضرر التسبّب بتراجع حادّ لمكانة الولايات المتحدة في أوساط العرب والمسلمين.

إن مما يؤسف له أن القضايا التي يجب تسويتها قبل أن يصبح السلام ممكناً ازدادت، بـــدلاً مـــن أن تقلّ، صعوبة في أثناء ولاية الرئيس بوش الأولى. فقد مكّـــنت سنوات القتال مجموعة حماس المتطرّفة - وهي خصم تاريخي للسلام - مـــن أن تصبح أقوى مقارنة بمنافستها العلمانية فتح، كبرى مكوّنات منظّمات التحرير الفلسطينية. وتراجع الاقتصاد الفلسطيني، لكن إنتاجه القنابل والقذائف والصواريخ ارتفع. وأنشأ الحاجز الدفاعي الذي تبنيه إسرائيل عبر قسم كبير من الضفّة الغربية حدّاً فعليّاً رفض الفلسطينيون قبوله وصار العديد من الإسرائيليين يـــشعرون بأنهم لا يستطيعون العيش بأمان بدونه. ورفض القادة الإسرائيليون بثبات مطالب الفلسطينيين بإطلاق العرب من السجون إذا كانت أيديهم، وفقاً لرأي الإسرائيليين "ملطّخة بدمائهم"؛ وقد ارتفع عدد السجناء الآن كثيراً عمّا كان عليه في سنة 2000.

فـــتحت وفـــاة ياسر عرفات في تشرين الثاني/نوفمبر 2004 الباب أمام قيادة جديـــدة للجانب الفلسطيني. وبدا محمود عبّاس، خليفة عرفات، تغييراً مرحّباً به. وكان خلال المفاوضات في التسعينيات من القرن الماضي الفلسطيني الذي غالباً ما نلجأ إليه لإجراء محادثات صريحة. لم يخن عبّاس الثقة التي أوليت له، لكن أداءه لم يكـــن مؤثّراً. فقد شدّد على أن من الممكن إيجاد حل للمشكلات الفلسطينية عبر مفاوضـــات الأخذ والردّ. وتحدّى عبّاس، كرئيس، الإجماع الفلسطيني السابق بأن العـــنف هو الطريق الأفعل لإحراز تقدّم. وخلافاً لعرفات، لم يروّج الأوهام بشأن اســـتعادة الحكـــم العربي من نهر الأردن إلى البحر المتوسط. وكان هدفه بناء دولة فلسطينية قابلة للعيش ولا يمكن أن تتحقّق، كما يقول، إلا بوسائل سلمية.

تكمـــن المشكلة في أن عباس يفتقر إلى قاعدة سياسية صلبة، على الرغم من انتخابه بطريقة ديمقراطية. فحركة فتح، وهي المنظمة التي ورثها عن عرفات، لديها سمعـــة مكتـــسبة بالفساد، وتمزّقها الخصومات الجيلية والإيديولوجية

والشخصية. وتعقدت معضلة عبّاس بعدم إدراك الولايات المتحدة أو إسرائيل ضرورة مساعدته على النجاح. وبدلاً من ذلك، وُجّهت إلى الرئيس الفلسطيني مطالب لا يمتلك القدرة على تحقيقها. وخلّف ذلك لعبّاس أسوأ ما في الجهتين [لم يكن مع ستّي بخير ولا مع سيدي بخير]. فقد شهّر به خصومه الفلسطينيون باعتباره المرشّح المفضّل لدى إسرائيل والغرب. ومع ذلك، لم تقدّم إليه المساعدة اللازمة للوفاء بالاحتياجات السياسية للشعب الفلسطيني. ولشراء الوقت، أرجأ عبّاس الانتخابات البرلمانية من تموز/يوليو 2005 إلى كانون الثاني/يناير 2006. لكن فشل هذا التكتيك إذ تواصل انحدار شعبية فتح. وعندما جرت الانتخابات في النهاية، حصلت حماس على الأغلبية – ما أثار دهشة فتح وإسرائيل والولايات المتحدة، وربما حماس نفسها.

جرّ صعود حماس عملية السلام في الشرق الأوسط إلى النقطة التي بدأت عندها قبل خمس عشرة سنة تقريباً. فحماس، على غرار منظمة التحرير الفلسطينية سابقاً، لا تعترف بوجود إسرائيل، وغير راغبة في نزع سلاحها ونبذ العنف. ولن يكون التوصّل إلى اتفاق سلام ممكناً إلى أن تفعل ذلك. وأفضل ما يمكن الأمل به في المرحلة الفاصلة هو تعليق الأعمال العدائية. فذلك سيمكّن الجانبين من التقاط الأنفاس. سيكون التحدّي بالنسبة لحماس تنفيذ وعودها الانتخابية بتحقيق "التغيير والإصلاح". وهذه تعهّدات لا علاقة لها بإسرائيل بقدر علاقتها بتحسين الحاكمية الفلسطينية.

هناك عمل كبير ينتظر الإسرائيليين أيضاً. فقبل أن يسقط أرييل شارون فريسة للسكتة الدماغية في كانون الثاني/يناير 2006، اعتمد خطة لضمان أمن الإسرائيليين باتخاذ خطوات أحادية لفصلهم عن الفلسطينيين. وقد صمّمت هذه الخطة، التي لم يكشف النقاب عنها بشكل كامل، لضمان بقاء دولة يهودية في الغالب بترك أكبر عدد من اليهود وأقلّ عدد ممكن من العرب في الأرض التي تحتفظ بها إسرائيل. وهي تستبعد على وجه الخصوص إمكانية تقسيم القدس أو الانسحاب الإسرائيلي التامّ إلى حدود 1967. وتشمل الخطوات التي اتخذت بالفعل لتنفيذها إنشاء الجدار الأمني، وإعادة الانتشار من قطاع غزّة و"تكثيف" المستوطنات في القدس وحولها.

وسـتتطلّب الخطـوات الأصعب التالية إغلاق بعض المستوطنات في الضفة الغربية لحماية مستقبل المستوطنات الأخرى.

في مـواجهة معارضة المحافظين في حزب الليكود، أنشأ شارون حزب كديما، وهـو ائتلاف اجتذب تأييد طيف واسع من القوى السياسية. ويبقى أن نعرف إذا كـان خليفة شارون سيتمكّن من انتهاج استراتيجية متّسقة. لكن من المؤكّد أن يرجـئ بروز حماس إلى أجَل غير مسمّى الاعتراف الإسرائيلي بدولة فلسطينية، في حـين مـن المرجّح أن يبقى هدف شارون الفصل بين اليهود والفلسطينيين محور السياسة الإسرائيلية.

الـشرق الأوسط مكان نادراً ما تلتئم فيه الجراح وتُنسى المظالم، وبالتالي فإن الوقت ليس صديقاً للسلام. غير أن الوقت بالنسبة إلى الفلسطينيين سيكون ضرورياً لكـي يطـوّروا المؤسسات التي يحتاجون إليها لحكم أنفسهم على نحو مسؤول. الإدارة الفعّالـة تـتطلّب النـزاهة والمهارة والرغبة في التسوية. ولا يبدو أن هذه الـصفات موجـودة بوفرة لدى حماس أو فتح. غير أن الشعب الفلسطيني أوضح بجـلاء خـلال الانـتخابات أنه يتوقّع من قيادته أكثر مما كان يحصل عليه. ومن المشجّع أن الانتخابات نفسها كانت حرّة ونـزيهة وتنافسية. وتلك الخطوة الأولى نحـو إنشاء حكومة متجاوبة وخاضعة للمساءلة. ويلزم مزيد من هذه الخطوات. وعلـى الـبلدان والمنظّمات الخارجية أن تساعد، لكن إذا تمكّنت من القيام بذلك دون تمهيد الطريق أمام حماس والعناصر المتطرّفة الأخرى للاحتفاظ بخيار العنف.

أوحـى أكثر المعلّقين تفاؤلاً بأن مشاركة حماس في الحكومة ستجعلها أكثر اعـتدالاً. ولديّ شكوك في ذلك. فأنا أعتقد أن المكانة السياسية الجديدة للحركة سـتفاقم الانقسامات القائمة في داخلها. ويتنافس البراغماتيون مع الإيديولوجيين علـى الـسيطرة. وعلـى الولايات المتحدة أن تبذل ما بوسعها لمساعدة القوى الفلـسطينية الأكثر اعتدالاً على الغلبة، لكن نقص التدخّل الأميركي في السنوات الخمس الماضية جعلنا أقل نفوذاً ومصداقية مما كنا عليه في السابق.

لقد أحدثت التغيّرات التي طرأت على القيادة في إسرائيل والسلطة الفلسطينية على السواء قوى محرّكة سياسية جديدة في حين أنها زادت من خفوت احتمالات

السـلام علـى المدى القصير. لكن ماذا عن المدى الطويل؟ هل ماتت احتمالات السلام حقاً؟ أخشى أن يكون الجواب نعم في غياب التفكير الجديد.

كـثيرة هـي الأوقات التي أردت فيها أن أشدّ آذان المفاوضين الفلسطينيين والإسـرائيليين[1] لأعيد إليهم شيئاً من الرشد. وفي النهاية علّقت آمالي على قدرتنا علـى صياغة لغة ذكية وعادلة بحيث تمكّن القادة من الجانبين الدفاع عن أي اتفاق سلام أمام ناخبيهم. وعلى الرغم من العديد من النكسات، ما زلت أحب الاعتقاد بأن استنباط مثل هذه الصيغة يبقى ممكناً. وربما يوفّر ترتيب يتماشى مع ما اقترحه الـرئيس بيل كلينتون لكلا الطرفين مجموعة سخية من الشروط التي تلبّي ما يتوقّعه كـل منهما باعتدال. لكن هل سيكتسب منطق السلام قوة كافية لتحديد مستقبل الـشرق الأوسط؟ ربما يكون الاحتكام إلى العقل والمصلحة الذاتية الطريقة العملية الوحـيدة للتقدّم، لكن لو كان تصميم تسوية فقط معاملة عقارية حقيقية، لكان استُكمل قـبل سنوات. وإذا ما أصبحت المفاوضات أمراً عملياً ثانية، لن يمكن الاسـتغناء عن الدبلوماسية التقليدية، لكن قد يُحتاج إلى شيء إضافي: تقارب في فهمنا لما يريده الله حقاً.

كانت الحكمة التقليدية لدى المفاوضين الأميركيين في الشرق الأوسط تقضي تاريخـياً بأن قلّة الكلام عن الله أفضل. وذلك أمر مفهوم نظراً للتقلّب في المنطقة؛ لكـن لا يمكـن عزل الدين والتاريخ الذي يصاحبه عن عملية السلام. لقد أشار شـارون إلى القـدس بأنهـا "عاصـمة إسرائيل التي ستظلّ موحّدة إلى الأبد". والفلـسطينيون، علـى الرغم من انقسامهم، يتوحّدون في أنهم لن يفكّروا في حل الدولـتين دون أن تكـون القـدس عاصمتهم. ولا يمكن نقل أكبر المستوطنات الإسرائيلية في الضفّة الغربية؛ مع ذلك فإن أكثر مقترحات السلام التي قدّمها العرب تـساهلاً تـضمّ مطلب إعادة كافة الأراضي العربية التي أُخذت في حرب 1967.

---

(1) لا أريد التعليق على ما أوردته المؤلّفة في هذا الفصل أو سواه لأنني لا أعتقد أن هذا هو المكان المناسب لذلك. لكنني أودّ لو أن ألفت نظر القارئ إلى أن لفظة الإسرائيليين تسبق الفلسطينيين دائماً حيثما وردتا معاً، نظراً لأسبقية حرف I على P في الألفباء الإنكليزية، إلا هنا. ترى هل هذه مصادفة أم أمر مقصود؟ المترجم.

وكانت قسوة شارون في قتال الانتفاضة الثانية تهدف إلى إقناع الفلسطينيين بأن المقاومة ميؤوس منها. وفي أثناء الانسحاب من غزّة، ارتدى الفلسطينيون قمصاناً كُتب عليها "اليوم غزّة وغداً الضفة الغربية والقدس". لقد سيطر المسلمون على القدس منذ القرن السابع مدّة تزيد على 1300 عاماً؛ ومضى أقل من ستين عاماً - طرفة عين تاريخية - منذ أن أصبحت إسرائيل دولة. ما أشدّ ما يريده الفلسطينيون الآن - فرصة بعيدة الاحتمال (عن طريق سفك الدماء) لعيش تجربة انتصار صلاح الدين، أم فرصة حقيقية بتربية عائلاتهم بكرامة وسلام؟ هل يحلمون بأن يكونوا شهداء أم بنائين؟

لم يخشَ جيمي كارتر التحدّث في الدين عندما جمع القادة المصريين والإسرائيليين معاً في كمب ديفيد. وتمكّن بيل كلينتون من تحقيق أكبر تقدّم لأنه أدرك تاريخ الوضع وشعر بالارتياح عند الحديث عن الشؤون الدينية. لكن لن يحقّق المفاوضون في المستقبل الاختراقات المطلوبة ما لم يتمكّنوا من مواجهة مشاعر الحقّ المتصادمة لدى كل منهم ونزع فتيلها. هل هذا واقعي؟ لا أعرف. لكنني معجبة بملاحظة جورج برنارد شو بأن "الرجل العاقل يكيف نفسه مع العالم؛ والرجل غير العاقل يصرّ على محاولة تكييف العالم مع نفسه. لذا يتوقّف كل التقدّم على الرجل غير العاقل".

إذا كان بوسع المتشدّدين العثور في القرآن والتوراة على ما يبرّر النزاع الدائم، فإنني أعتقد أن بوسع الآخرين إيجاد أوامر غالبة لاتباع النقيض. ومن المبادرات المشجّعة عملية الإسكندرية التي أطلقت في سنة 2002، برعاية مركز الجمعية الموسوية للتعاون بين الأديان. الفرضية التي يقوم عليها هذا المشروع هي أنه لا يمكن تحقيق السلام بين الأمم والشعوب دون التوفيق بين الأديان والثقافات؛ وبناء على ذلك يجب تحويل قوة الدين من مصدر للعدوانية إلى مصدر للتسامح والتفهّم. وقد استخدمت مبادئ إعلان الإسكندرية - دعم السلام، واللاعنف، واحترام الأماكن المقدّسة - لحل خلاف مستحكم في سنة 2003، عندما تسلّم مقاتلون فلسطينيون كنيسة المهد؛ وآخر في سنة 2004، عندما اجتمعت السلطات الدينية الإسلامية لبحث مشكلة التحريض على معاداة السامية في المجتمعات العربية.

وتطبّق مراكز "آدم" الموجودة في إسرائيل ومناطق السلطة الفلسطينية، هذه المبادئ على أســاس روتيني. إن مؤسس هذا الجهد والقوة المحرّكة التي تقف خلفه هو الحاخام مايكل ملكيور، المقاتل الشجاع والبليغ من أجل السلام؛ ويلقى دعماً قوياً من الشيخ عماد الفالوجي، وهو من مؤسسي حماس وقد ترك الحركة لأن هجماها على المدنيين انتهاك للإسلام.

ربمـا يتعين على الواثقين بأن المعركة الفاصلة (أرماجدّون) هي ما يقدّره الله للــشرق الأوسط أن يتفكّروا في مقطع وارد في سفر أشعيا يتنبأ بوقت لا يعبد فيه الإســرائيليون الله وحدهم فحسب، وإنما العرب أيضاً في مصر وسوريا. "في ذلك الــيوم تكون إسرائيل ثالثاً لمصر وأشور، وهذا بركة في وسط الأرض. ويمنح الربّ القديــر بــركته قائلاً: 'مبارك شعبي مصر وصنيعة يدي أشور وبنو إسرائيل الذين اختــرهم'". يعبد العرب واليهود الله نفسه منذ أيام محمّد. وربما سيأتي اليوم الذي تتقدّم فيه روح عملية الإسكندرية على ما عداها، مهما بدا ذلك اليوم بعيداً. وبعد ذلــك كمـــا قـــال إسحاق رابين، سينهل الإسرائيليون والفلسطينيون "من ينابيع مــصادرنا الــروحية العظيمة لنغفر الألم الذي سبّبه أحدنا للآخر، ونــزيل حقل الألغــام الذي فرّق بيننا سنين عديدة، ونحلّ ومحلّه حقل الوفرة". وربما يأتي الوقت الذي يهتمّ فيه كلا الجانبين بتوجيه القرآن: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله".

وإلى أن يــأتي ذلــك الــيوم، ستبقى المعضلة الملازمة لوعد بلفور؛ وستختبر شخــصية الزعماء الشرق أوسطيين بانتظام؛ وسيخضع النهج السليم الذي تنتهجه الــولايات المتحدة للنقاش؛ وستواصل شعوب المنطقة العيش في خوف؛ وسيفاقم التوتّــر الحاضــر أبداً بين المسلمين واليهود والمسيحيين مواجهة تمتدّ إلى أبعد من الشرق الأوسط وتهدّد حقاً بزعزعة العالم.

الفصل العاشر

"الجهاد الأكبر"

دفع الجفاف سكان إسرائيل إلى الاحتشاد بقلق على منحدرات جبل الكرمل ليشهدوا منافسة. كان يوجد 450 كاهناً لبعل، إله الخصب عند الكنعانيين، في جانب. ووقف في الجانب الآخر إيليّا، نبي يهوه، إله إبراهيم وموسى وداود. وكان بين المتفرّجين أهاب، ملك السامرة الضعيف والعنيد. كانت المسألة المراد تسويتها إله مَن مِن الجانبين هو الأقدر. وكان البرهان يتطلّب علامة على شكل نار تشتعل بمذبح نُحر عليه ثور. بدأ أتباع بعل أولاً، فصلّوا وتمايلوا وأنشدوا وعذّبوا أنفسهم عدّة ساعات، لكن مساعيهم ذهبت سدى. فسخر منهم إيليا وقال: "اصرخوا بصوت أعلى. فربما إلهكم غارق يتأمّل، أو هو مشغول، أو في سَفَر، أو لعله نائم فيُفيق". ثم جاء دور النبي. فبنى المذبح مستخدماً اثني عشر حجراً على عدد أسباط بني إسرائيل؛ وبلّل الذبيحة بالماء، ودعا الربّ؛ ثم تراجع إلى الوراء. وخلال ثوانٍ التهمت النار الذبيحة. فسجد الذين شاهدوا ما حدث إلى الأرض وقالوا، "الربّ هو الإله؛ الربّ هو الإله".

لم تتغيّر العلاقة كثيراً بين البشر والإله بعد أكثر من 2.800 سنة. فما زلنا نبحث عن علامات ونتطلّع إلى الأحداث بحثاً عن إشارات على طبيعة الإله وغايته.

في 11 أيلول/سبتمبر 2001، التهمت النار برجي مركز التجارة العالمي. فهل كان ذلك علامة؟

قال جيري فولول في حديث إلى التلفزة بعد مرور يومين على المأساة، "الله يواصل رفع الستارة والسماح لأعداء أميركا بأن يعطونا ما قد نستحقّه. إنني أعتقد حقّاً بأن الوثنيين، ودعاة الإجهاض، ومناصري الحركة النسائية، والمثليين الجنسيين من الذكور والإناث الذين يحاولون بنشاط الإتيان بنمط حياة بديل، والاتحاد

الأميركي للحريّات المدنية، وشعب الطريقة الأميركية - كل الذين يحاولون إضفاء العلمانـــية على أميركا - إنني أشير بإصبعي إلى وجوههم وأقول، 'لقد ساعدتم في حدوث ذلك'"[1].

لم يكـــن فولوِل وحيداً في رؤية أن يد الله خلف هجمات الإرهابيين. وكان قادة القاعدة واثقين من أن نجاحهم دليلاً على مباركة الله. ويظهر فيلم فيديو أسامة بـــن لادن وأحـــد الشيوخ السعوديين يحتفلان في أعقاب الضربات، ويشكران الله علـــى "النصر المبين" ويتبادلان القصص عن رؤى الإخوان الذين تكهنوا بالطائرتين اللـــتين اصـــطدمتا في المبنيين. وهلّل الشيخ قائلاً، "سيكون أعظم جهاد في تاريخ الإسلام".

في تـــراث الـــيهود القدماء، تُعزى الانتصارات والهزائم عادة إلى إرادة الله. وهكذا يعد الربّ، "فإن أطعتم، عاديت من يعاديكم وضايقت من يضايقكم". وقد أرجع المسلمون الأوائل فضل الانتصارات العسكرية التي مكّنت من التوسّع السريع لديـــنهم إلى الله. وكان الإسبانيون الكاثوليك واثقين من أن إحرازهم إمبراطورية وراء البحار في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مكافأة من الله على اضطهاد المـــسيحيين الهـــراطقة، والمسلمين، واليهود. وعندما استعمر البريطانيون والقوى الأوروبية الأخرى إفريقيا، كانوا يعتقدون أنهم يؤدّون عمل الله. وكما رأينا، فقد ربط الأميركيون صعود بلدهم بتأييد من الله. وفي "ترنيمة معركة الجمهورية" التي ألّفـــتها جولـــيا وورد هاو بعد زيارة معسكر للجيش في الأيام الأولى من الحرب الأهلـــية، ســـاوت بـــشكل تحريـــضيّ بين قضية الإله ونضال الاتحاد ضدّ قوى الانفصاليين.

من طبيعة البشر الرغبة في رؤية أن الله يساندنا في أعمالنا، وأن غايته هي غايتنا. وغالباً ما نستمتع كأفراد بهذه النـــزوة دون التسبّب بأذى، بل إننا ربما نـــصنع بعـــض الخير. لكن الأمة (أو المجموعة) التي تعتقد بأن نجاحها أو فشلها عاقـــبة مباشـــرة لرغبات الله تستجلب على الأرجح المشاكل أو تحدثها. فعند

(1) بعد أن واجه فولوِل عاصفة من الانتقاد، قدّم اعتذاراً عن هذه الملاحظات.

الانتـــصار، قـــد تدّعـــي الأمة وزعماؤها الصلاح والفضيلة ويمتلئون بالشعور بالقـــدرة المطلقة. وعند الهزيمة قد يصابون بالمرارة ويدبّ فيهم الانقسام، حيث تلوم فئة الأخرى على التسبّب بغضب الإله. أياً يكن الأمر، فإن الأمة التي تقول إلى الله، "الأمـــر عائد إليك"، تخاطر في إهمال واجبها بالعمل لمصلحتها. وكما كتبت إميلي ديكنسون في سياق مختلف، "'الدين' اختراع رائع / عندما يستطيع البـــشر أن يـــروا / لكـــن المجاهر (الميكروسكوبات) خيار حكيم / عندما يقع طارئ".

بعد مرور وقت غير بعيد على هجمات 11 أيلول/سبتمبر، دعيت للتحدّث في كنيـــسة بـــيت الـــرجاء البريسبيتارية (المشيخيّة) الفسيحة في سانت بول، مينيـــسوتا. كانت المقاعد ممتلئة والمشاعر محتدمة. وعندما اعتليت الدرجات إلى المنـــبر، لاحظت أن المحارم قد أخرجت بالفعل. لا أذكر لحظة مماثلة من الوحدة الوطنـــية في مـــواجهة المحنة إلا بعد اغتيال جون كنيدي. لم أكن مؤهّلة لألقي عظـــة، لكـــني أردت أن أعبّـــر بقدر ما أستطيع من دقّة عمّا تعنيه هجمات 11 أيلول/سبتمبر وما لا تعنيه:

> لا أرى أي علامـــة علـــى يد الله في هذه الجرائم، ولا أي أثر لمعتقد ديني أو ضـــمير اجتماعي في دافعهم. ولا يمكن أن يكون المنفذّون مخلصين للإسلام، إذ إنهـــم خانـــوا بمـــا اقتـــرفوه تعالـــيم ذلك الدين المتسامح. إن مقترفي هذه الفظاعـــات لا يهتمّون لأمر الفلسطينيين الذين عبّر زعماؤهم عن غضبهم من هـــذه الهجمـــات وأســـفهم لها. ولا يهتمّون لأمر الفقراء، لأنهم لا يستخدمون مـــواردهم لتعلـــيم المهـــارات وإنما لزرع الكراهية. إنهم ليسوا مجانين لأنهم تصرّفوا بحسابات تنمّ عن قلوب ميتة. إنها جرائم الشرّ المطلق التي لا يبرّرها أي سبب سياسي أو ثقافي أو ديني.

غالـــباً ما نسأل في أعقاب مأساة لماذا يسمح الإله القدير والخير بوقوع مثل هذه الأحداث. يكمن جزء من الإجابة في أننا مُنحنا حرية التفكير والعمل بأنفسنا. ويستخدم بعضنا هذه الحرية للبناء، أو العلاج، أو التعليم، أو وضع الأعمال الفنية العظيمة؛ وينسف آخرون المباني. هذه أعمالنا لا أعمال الإله (ومع ذلك قد يكون

من الملائم إلقاء اللوم على الشيطان). عندما يخطف مرض أو حادث حياة طفل ما، لا يسعنا سوى التعبير عن الألم بسبب قسوة القدر وظلمه. أما بالنسبة للأعاصير والزلازل والأمواج المدية العاتية، فإنني ألقي اللوم على الطبيعة. وما تبقّى من الإجابة يتجاوز ما يمكن أن يعرفه الجميع. إننا نسير بالإيمان لا البصر، كما يجهد الوعّاظ في تذكيرنا. غير أننا نسير، ونتحمّل مسؤولية العناية بأنفسنا وحماية بعضنا بعضاً. وقد أضافت هجمات 11 أيلول/سبتمبر بعداً جديداً على ما تتطلّبه المسؤولية.

في الأسابيع التي تلت الهجمات، أثبت الرئيس بوش للمشككين أن لديه القدرة على القيادة الحقيقية. ففي خطاب أمام جلسة مشتركة للكونغرس، أوفى بوعد أطلقه قبل انتخابه بأن يكون من دعاة الوحدة. فلاحظ أن الناس في كل أنحاء العالم ردّوا على أعمال الخطف بالصلاة بالإنكليزية والعبرية والعربية؛ ولفت الانتباه إلى الحقيقة المدهشة بأن ضحايا 9/11 يضمّون أشخاصاً مما لا يقلّ عن ثمانين بلداً. وعبّر عن امتنانه إلى المنظّمات الدولية والأصدقاء في أوروبا وإفريقيا وأميركا اللاتينية وآسيا. وتعهّد الرئيس باستخدام أداة السياسة الخارجية لمواجهة "المنظّمات الإرهابية التي تمتدّ قدرتها إلى العالم"؛ وأوضح أن القاعدة تمثّل "جماعة إسلامية متطرّفة رفضها العلماء والغالبية العظمى من رجال الدين المسلمين - حركة متطرّفة تحرّف التعاليم السلمية للإسلام". وبدا أن كلمات بلسمة الجراح مصمّمة لجمع العالم معاً في معارضة القاعدة ومؤيّديها. ومن الواضح أن تلك هي الاستراتيجية الصحيحة. فلإلحاق الهزيمة بالإرهاب، تحتاج أميركا إلى مساعدة من الأصدقاء والحلفاء في كل مكان، وبخاصة من أولئك الموجودين في مجتمعات ذات غالبية عربية ومسلمة.

قدّم السطر الذروي في كلمة الرئيس خياراً واضحاً: "على كل أمة في كل منطقة أن تتخذ الآن قراراً. إما أن تكون معنا، وإما أنها مع الإرهابيين"[1]. وفي

(1) لعل الرئيس بوش عندما أصدر تحذيره كان يفكّر في تحذير يسوع، "من لا يكون معي فهو عليّ" (لوقا 11:23) ومن غير المرجّح أنه كان يحاول تذكير العالم بقول لينين في أثناء الثورة الروسية: "من ليس معنا فإنه ضدّنا".

الأسابيع التالية، لم تتردّد معظم البلدان في الاختيار.

احـــتكم حلفـــاء أميركا في منظمة معاهدة شمال الأطلسي (حلف الناتو) للمـــرّة الأولى إلى أحكـــام الدفاع المتبادل للمعاهدة وأعلنوا أن الهجمات عمل عدواني على الحلف بأكمله. وباستثناء العراق، أدانت كل الحكومات في العالم الإســـلامي، بما في ذلك إيران والسلطة الفلسطينية، الضربات. وعندما أرسلت القـــوات الأميركـــية إلى أفغانستان لطرد طالبان والقبض على القاعدة، سارع حلفاء مثل كندا واليابان وأستراليا إلى مساعدتها. ووافقت باكستان على تقديم المـــساعدة، علـــى الـــرغم من روابطها الوثيقة مع القادة الأفغان الراديكاليين. وتعهّـــدت الـــصين وروســـيا بالتضامن، وهما من الدول التي تعرّضت لتحدّي الانفـــصاليين المـــسلمين. بل إن المسلمين الذين احتجّوا في البداية على الهجوم الأميركـــي على طالبان صمتوا عندما اتّضح أن غالبية الأفغان رحّبت بالإطاحة بالمتطـــرّفين. وفي الولايات المتحدة، وقّعت مجموعة من ستّين أكاديمياً – بينهم مـــسيحيون ويهود ومسلمون وملحدون – على رسالة تدعم العملية العسكرية في أفغانـــستان، وتدعـــو إلى الدفاع عن "الأخلاق الإنسانية الشاملة" و"الحرب العادلـــة". وخـــلال الأشهر التي تلت 9/11، بدا أن الإدارة ستنجح في توحيد معظم الأميركيين والحكومات الأجنبية في معارضة التهديد المشترك.

كديمقـــراطية، كنت فخورة بالطريقة التي بها أعلن أعضاء حزبي الولاء للبيت الأبـــيض. وقـــاد أعضاء الكونغرس والمسؤولون الذين كانوا قد خدموا في إدارة كلينـــتون التصفيق والاستحسان. وكنت في كل مناسبة أقدّم مساندتي لسياسات الـــرئيس. وهلّلـــت عندما أطيح بطالبان. فعندما كنت في الحكومة التقيت بنساء وفتيات أفغانيات في مخيم للاجئين في باكستان على مقربة من ممرّ خيبر، واستمعت إلى روايـــاتهن عن الحرمان والقمع. ووعدت أولئك اللاجئات ألا تنساهن أميركا. وأملت أن يتمكّن الآن من العودة إلى ديارهن، والعيش بسلام، واحترام حقوقهن. كمـــا أنني ساندت قرار البنتاغون القبض على الإرهابيين المشبوهين واحتجازهم، مـــسلّمة بأنه سيتمّ استجواب الموقوفين والتحقيق معهم بحيث يمكن اتخاذ القرارات في الوقت المناسب بشأن كيفية محاكمتهم أو اطلاقهم

كــنت باختــصار مــن الصقور المؤيّدين للحرب. لذا عندما عارض مجلس الكنائس العالمي الضربات العسكرية في أفغانستان، خالفته الرأي. وعندما رأى غور فــيدال أن الغزو سببه النفط، اعتقدت أنه واهم. وعندما اقترحت أليس واكر أن "العقوبة الوحيدة التي تنجح هي الحبّ" بالنسبة إلى أسامة بن لادن، حمدت الله أنها كاتبة حاصلة على جائزة، لا قائدنا الأعلى.

في الأسابيع التي تلت الهجمات، عقد العديد من المعلّقين مقارنة بين ما حدث في 9/11 والــضربة اليابانــية لــبيرل هاربر في سنة 1941. كلاهما باغت أميركا، وأحــدث دمــاراً على التراب الأميركي، وشكّل بداية كفاح أكبر. مع ذلك فإن الاخــتلافات صــريحة وواضحة. في هاواي، قُصفت القوات والسفن والطائرات الأميركية عن طريق طائرات مميزة لدولة معادية، دولة لديها قوات مسلّحة نظامية وحدود محدّدة. أما مقترفو هجمات 9/11 فلم يكونوا يرتدون بدلات عسكرية، أو يــرفعون علماً، وليس لديهم قوة جوية، ولا يدينون بالولاء لأي أمة أو تحالف من الأمم. ولم تصُمّم هجماتهم لتدمير أهداف عسكرية، وإنما لقتل أكبر عدد ممكن من الأشخاص.

في شــباط/فبراير 1998، أصدر بن لادن، وقادة إرهابيون آخرون، فتوى دعا فيها المسلمين إلى قتل الأميركيين في كل مكان. ومن الأسباب التي ذكرها الــدعم الأميركــي للعقوبات على العراق، وتأييدها إسرائيل، وتواجد القوات المــسلّحة الأميركية في المملكة العربية السعودية. واتّهم الولايات المتحدة بأنها أعلــنت الحــرب على الله ورسوله والمسلمين. ولتوفير واجهة علمية، استشهد بأحكــام لرجال دين تتعلّق بالواجب الديني الذي يقضي بالتصدّي للهجمات علــى الدين. ثم دعا المسلمين جميعاً إلى المشاركة في مهاجمة "القوات الأميركية الشيطانية".

إذا وضــعنا ادّعــاءات بن لادن جانباً، نجد أنه غير مؤهّل لتعليم المسلمين واجــباتهم الدينية. بل إن مضيفه وراعيه في أفغانستان، الملا محمّد عمر، أقرّ بأن "بــن لادن ليس مخوّلاً إصدار الفتاوى، لأنه لم يكمل دراسة قرآنية إلزامية لمدّة اثــنتي عــشرة ســنة لكي يكون مؤهّلاً لمنصب المفتي. ولا يصدر الفتاوى إلا

المفتون. وبن لادن ليس مفتياً ولذلك فإن أي فتوى يصدرها غير شرعية وباطلة ولاغـــية". لم يمنع قول المُلاّ من أخذ بن لادن على محمل الجدّ. فالإسلام السني يفتقـــر بطبيعـــته إلى قائد موحّد. وليس هناك شخص أو مؤسسة تستطيع أن تـــتحدّث بمـــرجعية نيابة عن كل المؤمنين لتُنكر رسالة بن لادن بطريقة مقنعة للمهيّئين لتقبّل رسالته.

في أثناء عملي كوزيرة للخارجية، كان بن لادن هارباً ومطارداً في أحد أكثر البلدان بعداً في العالم. ووفقاً لمعلوماتنا، لم تكن أي حكومة خارج أفغانستان تدعم أنـشطته. لقـــد كان إرهابياً وقاتلاً للمسلمين، تبرّأ منه بلده الأمّ (المملكة العربية الـــسعودية) وطُرد من البلد الذي تبناه (السودان). وكنت أعلم أنه يحاول كسب تعاطـــف المسلمين في العالم، لكن بدا أنه لم يكن لديه الكثير ليغري أتباعه باستثناء فرصـــة تنفـــيس غضبهم وتفجير أنفسهم "كشهداء". غير أن الديماغوجي يشكّل خطـــراً دائماً عندما يبلغ الناس ما يريدون سماعه، ولا يلزم سوى عدد صغير فقط من الإرهابيين العازمين لإحداث مشكلة كبيرة.

لا شك أن من الهراء القول إن أميركا أعلنت الحرب على الإسلام. ففي ظل إدارة كلينتون، كانت الولايات المتحدة في مقدّمة الدفاع عن المسلمين في البوسنة وكوســـوفو، ومساعدة الديمقراطية في إندونيسيا الإسلامية، وشجب الانتهاكات الروســـية لحقوق الإنسان في الشيشان، ومحاولة التوسّط لإحلال السلام في القوقاز والـــشرق الأوســـط. وفي ظلّ كارتر وريغان، ساعدت أميركا المجاهدين في طرد القوات السوفياتية من أفغانستان.

إن إثبات النفي ليس بسيطاً البتّة، وبخاصة بالنسبة إلى جمهور مشكك؛ فكثير مـــن المـــسلمين الـــذين لا يرجون نفعاً من بن لادن يشاركونه معارضته لبعض الـــسياسات الأميركـــية. وسوف يصغون على الأقلّ عندما يتحدّث عن "تطهير" الأرض المقدّسة من غير المشركين، وإعادة حكم الإسلام إلى القدس، وإحياء الروح القتالـــية التي كانت قائمة في الأيام الأولى للإسلام. وربما يهزّون رؤوسهم عندما يقـــال لهـــم إنه يجب تحميل الأميركيين مجتمعين المسؤولية عن سياسات الحكومة الأميركـــية المرفوضـــة في الـــشرق الأوسط والخليج. وبعد التفجيرين الإرهابيين

للسفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا في سنة 1998، عرضت وزارة الخارجية 5 ملايين دولار مكافأة لقاء معلومات تقود إلى القبض على بن لادن. وحفز ذلك سيلاً من التبرّعات التي قدّمها الأثرياء العرب إلى بن لادن. وعلى الرغم من أن الحكومات الإسلامية لم تتعاطف مع دعوة بن لادن للحرب المقدّسة أو تقبلها، فإن بعض مواطنيها فعلوا ذلك.

يسعى بن لادن إلى اكتساب الدعم بالتماس مزيج من الاستياء والحسد والذنب. ويرجع إلى أحداث قديمة لم يعد يفكّر فيها سوى قلّة خارج العالم الإسلامي، لكن لا يستطيع أن ينساها العديد من المسلمين: تدمير الإمبراطورية العثمانية، واقتسام الشرق الأوسط العربي وشمال إفريقيا بين القوى المسيحية، بل وحتى طرد المسلمين (إلى جانب اليهود) من إسبانيا في السنة نفسها التي أبحر فيها كولومبوس إلى العالم الجديد. ربّما يبدو المسلمون الذين يزعمون بأن دينهم يتعرّض للهجوم مصابين بالذهان الارتيابي بالنسبة للغربيين، لكن حدود العالم الإسلامي تقلّصت كثيراً في القرون الأخيرة. وعندما دخل الفرنسيون دمشق في سنة 1920، مشى قائدهم الجنرال هنري غورو إلى قبر البطل الذي يحظى بأكبر احترام لدى المسلمين وأعلن، "ها قد عدنا يا صلاح الدين. ما حضوري هنا إلا تكريس لانتصار الصليب على الهلال". وعند استعمار الدول العربية، تعمّدت القوى الغربية رعاية تطوّر النخب العلمانية التي اغتصبت السلطة من القادة الدينيين. وفي غضون ذلك، أمضى أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي عقوداً يؤكّدون لملايين المسلمين أن الله غير موجود. وقد صوّر القوميون العرب مثل الرئيس المصري جمال عبد الناصر الإسلام بمثابة عدوّ للتقدّم. وأن الحلم الصهيوني تحقّق بمساعدة القوى الغربية على حساب العرب.

إن هدف بن لادن هو جني حصاد المرارة بزراعة هذه المظالم وغيرها من المظالم الأحدث. إنه يريد إحداث انقسام عالمي عظيم يوجد فيه المسلمون "ذوو التفكير القويم" في جانب والغرب في جانب آخر – وهو ما يجب أن نسعى لتجنبه بالضبط. يركّز بن لادن، ومن يفكّر مثله، على المظالم القديمة، لا على الفرص

المستقبلية. وعندما يرجعون إلى القرآن، لا يقرأون آيات كهذه: "عسى الله أن يجعل بينكم وبين من عاديتم منهم مودّة والله قدير والله غفور رحيم". فبن لادن وأتباعه يفضّلون بدلاً من ذلك الأوامر القرآنية عن التلويح بالحراب وقتل الكافرين. إنهم لا يعرضـــون أفكـــاراً لتحـــسين حياة الناس على الأرض أو إثرائها، وهم مشغولون بالأمجـــاد الـــتي يتوقّعون الحصول عليها في الحياة الآخرة. وأخلاقهم أمر مسلّم به بالنسبة إليهم، ووحي الله تفويض لهم بالقتل.

لقـــد أودت أحداث 9/11 الرهيبة بحياة أكثر من 3,000 إنسان. وشكل ذلـــك الـــيوم أيـــضاً بروز تحدٍّ جديد ومعقّد للأمن القومي الأميركي. وخلافاً للشيوعيين "الملحدين"، يدّعي هذا العدوّ أنه يقوم بعمل مقدّس. وتحتاج أميركا في الـــردّ عليه إلى أن تكون خلاّقة لا في ابتكار الوسائل التي تحول دون حدوث هجمـــات مماثلة فحسب، وإنما أيضاً في تطوير رسالة تقضي بنجاح على قاعدة دعم العدوّ.

الفصل الحادي عشر

"الله يريدني رئيساً"

عندما قدّم بوش في أعقاب 9/11 خياره المثير إلى العالم، كانت رسالته واضحة: لقد تغيّر العالم وستردّ أميركا. وعزّز التدخّل العسكري الذي قادته الولايات المتحدة في أفغانستان تلك الرسالة، فشتّت القاعدة وأطاح بطالبان. وكانت الخطوات التالية، كما بدا لي، واضحة: أولاً، العمل *العسكري* لمنع القاعدة من إيجاد ملاذ عبر الحدود الأفغانية في باكستان؛ ثانياً، العمل *السياسي* لبناء مؤسسات ديمقراطية في كل أنحاء أفغانستان وضمان ألا تعيد العناصر الراديكالية توطيد موطئ قدم هناك؛ ثالثاً، العمل الدبلوماسي للحصول على مساعدة جيران أفغانستان - بمن فيهم إيران وباكستان والبلدان الإسلامية في آسيا الوسطى - لتشكيل أقوى ائتلاف ممكن ضدّ القاعدة. والهدف الأهمّ هو تدمير أكبر قدر ممكن من شبكة القاعدة، وعزل ما تبقّى، ومنعها من مدّ جذور جديدة.

لهذه الغايات، كنت أتوقّع أن يتابع الرئيس إبراز الموضوعات التي أثارها بفعّالية كبيرة في الأسابيع الأولى بعد 9/11: الوحدة العالمية، وهزيمة الإرهابيين، والعمل مع الحلفاء، ومدّ اليد إلى العرب والمسلمين. لكن لم تتحقّق هذه التوقّعات. فعندما كانت مواصلة السير في الاتجاه نفسه منطقية وضرورية، عمد الرئيس إلى تغير المسار.

بدلاً من التمسّك بمهمة تحطيم القاعدة، تبنى نهجاً ذا تأثير عكسي تماماً. ففي سنة 2002، في خطابه عن حالة الاتحاد، لم يركّز على الإرهابيين وبناء الأمة الذي لم يكد يبدأ في أفغانستان، بل على ما يُدعى "محور الشرّ" - العراق وإيران وكوريا الشمالية. وفي ملاحظات عامة في وقت لاحق من السنة، لم يشدّد على الحاجة الملحّة إلى ائتلاف متعدّد الجنسيات مناهض للإرهاب، وإنما على النية الأميركية الأحادية للمحافظة على "قوة عسكرية لا يمكن تحدّيها". وعند نشر استراتيجية

الأمـــن القومـــي، أكّد الرئيس على الحقّ بمهاجمة البلدان الأجنبية، حتى في غياب التهديد الوشيك، إذا اشتبه بأنها قد تقوم بأعمال عدائية ضدّ الولايات المتحدة ذات يـــوم. وهذا هو "مذهب الاستباق" المثير للخلاف، وهو يمنح أميركا حقّاً لا تعتبره شـــرعياً البـــتّة إذا طالبت به أي حكومة أخرى. كما طلب من الكونغرس إجازة إنـــتاج جـــيل جديد من الأسلحة النووية يضاف إلى الترسانة المخيفة التي بحوزة الولايات المتحدة.

أثـــارت هـــذه الـــدفعات من الخطاب القوي صيحات الاستحسان من قبل المعجبين بالرئيس، لكنها لم تفعل شيئاً لجعل أميركا أكثر أمناً. بل على العكس من ذلـــك، عقّـــدت ما وجب أن يكون خياراً بسيطاً. لقد طلب الرئيس من كل بلد التـــصدّي للقاعدة. وحينها كان يطلب منها التصدّي للقاعدة والتصديق في الوقت نفـــسه علـــى الرؤية غير المقيدة للقوة الأميركية. وفي مواجهة هذا الخيار، تردّدت العديـــد مـــن الـــبلدان التي تشمئزّ من الإرهاب في الوقوف إلى جانب الولايات المـــتحدة. وهكذا لم تبالِ الإدارة بنصيحة تيودور روزفلت بالتحدّث بلين، وبدأت دون قصد بتحويل انتباه العالم عمّا فعله الإرهابيون إلى ما يمكن أن تفعله أميركا.

في أيلـــول/سبتمبر 2002، حظي الرئيس بوش بجمهور واسع عندما سافر إلى مانهـــاتن مـــن أجل الحضور السنوي في الجمعية العامة للأمم المتحدة. لو كنت في موقـــع يمكـــنني من تقديم النصح إليه لحثثته على حشد الأمم ضدّ القاعدة؛ وشكر الحكـــومات التي ساعدت في تعقّب الإرهابيين المشتبه بهم؛ ومناشدة رجال الدين والعلمـــاء والمـــربّين أن يؤكّدوا على عدم وجود ظروف يمكن أن تبرّر الإرهاب. إخـــتار الرئيس بدلاً من ذلك طلب مساندة محاربة صدّام حسين. وطوال الخريف، عـــندما بحـــث الـــرئيس موضـــوع القاعدة، لم يصوّر التحدّي بأنه كفاح متعدّد الجنسيات ضدّ تهديد عالمي بقدر ما صوّره بأنه حملة لتقديم الإرهابيين إلى "العدالة الأميركية"، وكأن "العدالة" وحدها لا تكفي.

وفي كانون الثاني/يناير 2003، سنحت للرئيس فرصة ثانية ليعلن عن أولويّاته مـــن خلال خطابه عن حالة الاتحاد. وهذه المرّة خصّ العراق باهتمام يعادل أربعة أضـــعاف ما خصّصه للقاعدة - فذكر صدّام حسين بالإسم ثماني عشرة مرة، ولم

يذكـــر بن لادن البتّة. ولدعم القرار الذي اتخذه بالفعل بغزو العراق، جمع الرئيس القاعـــدة والحكومة في بغداد معاً، واصفاً الاثنين بأنهما وجهان للتهديد نفسه. دفع هذا التكتيك العديد من الأميركيين إلى الاعتقاد خطأً بأن صدّام حسين يقف وراء هجمات 9/11 - وإلا لماذا نذهب إلى الحرب معه؟ كما مكّن الإدارة من اتهام من طرح أسئلة عن غزو العراق بأنه محارب ليّن للإرهاب. وهكذا انتقد وزير الدفاع، دونالـــد رامـــسفيلد، بلداناً مثل ألمانيا وفرنسا بشدّة، وهزئ منهما بعض أعضاء الكونغـــرس باعتـــبارهما خائنـــتين. وكـــان ذلك غير منصف. فقد عمل الجنود الفرنـــسيون بـــشكل دائـــم إلى جانب الأميركيين في أفغانستان، حيث كان مقرّ القاعدة، وكانت قد قادت ألمانيا قوات الأمن الدولية هناك.

في بعض الأحيان في الأشهر السابقة للحرب مع العراق، تسلّلت إلى خطاب إدارة بـــوش نـــبرة تحتفي بالانتصار. فقد فاخر المخطّطون للحرب بشأن "الصدمة والـــرهبة" اللتين يمكن أن تُحدثهما القوة العسكرية الأميركية. وتوقّع نائب الرئيس تشيني أن يتمّ الترحيب بقواتنا "كمحرّرين". وتحدّثت كوندوليزا رايس عن الخطة الأميركية لتحويل الشرق الأوسط بأكمله. وردّ الرئيس على فشله في جمع ائتلاف متعدّد الجنسيات أكثر إثارة للإعجاب بحدّة قائلاً، "قد نكون الوحيدين المتبقّين في مرحلة ما. ذلك يناسبني. فنحن أميركا".

خلال هذه الأشهر، نجحت الإدارة في تعبئة دعم العديد من الأميركيين، فيما أقـــنعت طـــوني بلـــير رئيس وزراء بريطانيا العظمى وبضعة قادة أجانب آخرين بالمـــساهمة بقـــوات في قوة الغزو. لكن ما دخل أي من ذلك في ربح الحرب على الإرهاب؟ كان ذلك السؤال فائق الأهمية لأنه إذا كان هدف أميركا الصحيح عزل الإرهـــاب، فإن للقاعدة هدفاً أيضاً. فقد اتّبعت استراتيجية استمالة كل المسلمين الـــذين يعارضون السياسات الأميركية إلى جانبها، أو إلى حالة من الحياد الملتبس. وسعى بن لادن إلى ربط نفسه، بالكلام، بمسعى الفلسطينيين إلى استرجاع الأرض المقدّسة وكفاح العرب لمقاومة غزو الإمبرياليين المسيحيين للعراق واحتلاله. وهذا الارتباط بين الهجمات على الإسلام والاحتلال الأجنبي حاسم، إذ نادراً ما تكون الاعـــتقادات الدينية فحسب الدافع للذين يقفون خلف التفجيرات الانتحارية.

فحمـــلات الإرهاب المنظمة تصمّم في الغالب الأعمّ لفرض الانسحاب من أرض متنازع عليها. وقد جعل صليل السيوف الأميركية مهمة القاعدة أسهل مما ينبغي.

في الأســـابيع الـــتي تلـــت 9/11، كان الرأي العام متعاطفاً مع الولايات المـــتحدة بـــشكل كاسح. وفي غضون سنتين، كانت قد ظهرت صورة مختلفة تمامـــاً. ففـــي إندونيسيا أكبر دولة إسلامية في عدد السكان، تحوّل الموقف من أميركـــا مـــن تأييد 75 بالمئة لها في سنة 2000 إلى معارضة 83 بالمئة لها في سنة 2003. وأصـــبحت الأغلبـــيات في العديد من البلدان الإسلامية تخشى من أن تكـــون الـــولايات المـــتحدة عازمة على مهاجمتها. وفي باكستان ذات الموقع المحـــوري، انخفـــض التأيـــيد للحرب التي تقودها أميركا إلى 16 بالمئة. وبقيت مستويات التأييد في سنة 2005 متدنية بشكل مثير للقلق: 12 بالمئة في الأردن، و17 بالمئة في تركيا، و31 بالمئة في لبنان.

كمـــا أن الدوافع الأميركية في محاربة الإرهاب لا تعتبر صادقة. فالعديد من الأشـــخاص، لا في المجـــتمعات الإسلامية فحسب، يعتقدون أن الأهداف الحقيقية لأميركـــا هـــي الـــسيطرة على النفط، وهزيمة المسلمين، وتقديم مصالح إسرائيل، والهيمـــنة علـــى العالم – مثلما تزعم القاعدة. وأفادت لجنة استشارية تابعة لوزارة الخارجية أن الولايات المتحدة لا تعتبر في العديد من البلدان "منارة للأمل بقدر ما تعتـــبر قـــوة خطـــرة يجب مواجهتها"، وأن الغالبيات العظمى في مصر والمغرب والمملكة العربية السعودية ترى في "جورج دبليو بوش تهديداً أكبر للعالم من تهديد أســـامة بن لادن". وربّما يبدي المؤرّخون حيرتهم ذات يوم من قدرة إرهابيين لا دولة لهم ومطاردين على التنافس بطريقة مقنعة مع القائدة الأقوى للعالم في تشكيل التصوّرات العامة والنقاش.

علـــى غرار بيل كلينتون من قبل، كرّر الرئيس بوش عدّة مرّات بأقصى قدر مـــن الصدق أن الولايات المتحدة غير منخرطة في صدام للأديان. وهو يعرف أن التلمـــيح ضمناً بأن لأميركا علاقة فريدة مع الله دبلوماسية سيئة، وبخاصة في هذا الـــوقت العاصـــف. غير أن طريقته في الكلام أحياناً تقوّض نواياه. مع ذلك فإن خطاب الرئيس، وإن يكن من النمط الذي كان يستخدمه بعض الرؤساء السابقين،

يشكل مثالاً متطرّفاً، مشبعاً بالإحساس بالمهمة ومليئاً بالصور الدينية. فلا غرو أن ينصت للقاعدة عندما تنتقده بعنف باعتباره صليبياً جديداً.

علـــى ســـبيل المثال، كرّر الرئيس عدّة مرّات أن واجب أميركا هو "تخليص العـــالم من الشر" – وذلك عمل مستحيل على الفانين. وقد أعلن أن "غاية أميركا تـــتجاوز اتباع آلية عمل ما. إنها تريد تحقيق نتيجة: إنهاء التهديدات الرهيبة للعالم المتحضّر". وفي كلمته الشهيرة "المهمة أنجزت" في أيار/مايو 2003، في أعقاب غزو العـــراق، استشهد بأشعيا، "فتقول للأسرى اخرجوا! وللذين في الظلام اظهروا". ربما كان ذلك مجرّد تنميق خطابي، لكنه ذو دلالة معينة. لقد كان الرئيس يتحدّث عـــن ثمار العمل العسكري الأميركي؛ وكان أشعيا يتحدّث عن هبة الله بالخلاص الأزليّ. وعندما ألقي القبض على صدّام حسين، رأى الرئيس أن أميركا تنفّذ عمل الله بإعادة الحرية إلى الشعب العراقي. وعندما سأله أحد الصحفيين إذا كان والده يوافـــق علـــى الحرب على العراق، قال، "إنه الأب الذي من غير المناسب التماس القـــوة مـــنه. هناك أب أعلى أحتكم إليه". وحتى قبل أن يعلن عن ترشّحه للبيت الأبيض، أسرّ للإنجيليين "أعتقد أن الله يريدني أن أكون رئيساً"[1].

تكمـــن الـــصعوبة بالطبع في أن إدارة بوش سعت إلى ممارسة القيادة على أساس أخلاقي؛ وقد حاولت كل إدارة أن تفعل ذلك بالفعل. لكن المشكلة هي أن الخطـــاب اقتـــرب من تبرير السياسة الأميركية بمصطلحات دينية صريحة – وذلك مماثل للتلويح بعلم أحمر أمام ثور. وهذه هي بالضبط الأرضية التي تفضّل القاعـــدة القتال عليها. عندما تكون القيادة الأميركية قوية، تستطيع الولايات

(1) فـــي مقابلة في برنامج Meet the Press (لقاء مع الصحافة) على محطة إن بي سي، في 27 آذار/مـــارس 2005، سئل ريتشارد لاند من مؤتمر المعمدانيين الجنوبيين إذا ما كان الاقتـــباس صحيحاً. فردّ، "إنه صحيح، ولكن غير كامل. ووسائل الصحافة لا تنفكّ تصرّ علـــى إيراده ناقصاً، ما يغيّر السياق بأكمله. لقد قال، وذلك عقب قدّاس صبيحة تنصيبه الولاية الثانية كحاكم، وكان القسّ الميثوديّ قد ألقى عظة مثيرة للمشاعر عن أن 'لله غاية لحياتك وخطة لحياتك'، فتوجّهت إليه والدته وقالت، 'إنه يتحدّث عنك يا جورج'. ثم عاد إلى مقرّ الحاكم والتقى بعدد منا وقال، 'أعتقد أن الله يريدني أن أكون رئيساً، لكن إذا لم يحدث ذلك، فلا بأس به

المــتحدة أن تجمع العالم معاً للتصدّي لقتل الأبرياء. لكننا لن نتمكّن من توحيد أحد حول الاقتراح بأن الاختلاف مع الرئيس الأميركي يعني اختيار التشاجر مع الله.

مع أن من عادة الرئيس بوش الإشارة إلى القتال ضدّ الإرهاب بأنه معركة بين الشرّ والخير، هل التناقض واضح حقّاً إلى هذا الحدّ؟ إذا لم تكن القاعدة شرّاً، فليس هــناك شــرّ. لكـــن من هو الخير الكامل؟ كأميركية فخورة، عليّ الاعتراف بأن الإجابة النـــزيهة بأي معنى دقيق يجب ألا تكون نحن. ربما يكون لدى قادتنا أفضل القلــوب؛ لكن سواء أكنا نقاتل الإرهاب أم نسعى لتحقيق هدف آخر، غالباً ما تكــون دوافعـــنا غير نقية، وتخطيطنا غير محكم، ومعلوماتنا غير كاملة، وتشوب أفعالنا أخطاء الإهمال والتفويض. وينطبق ذلك على أي مرحلة من مراحل التاريخ الأميركـــي، وفي تجربة كل أمة أخرى إلى حدّ ما. بل إن يسوع الناصري، عندما خاطبه غريب بالقول "سيدي الصالح"؛ أجاب، "لماذا تدعوني صالحاً؟ لا صالح إلا الله وحـــده". وفي محاربة الإرهاب، يمكننا الإشارة بدقّة أكبر إلى المواجهة بين الشرّ و"الخـــير تقـــريباً"، أو بـــين الشر و"غير الرديء"، أو بين الشرّ و"فعل أفضل ما تستطيع". أو ربما يجدر بنا تبني صيغة أبراهام لينكولن – قتال بين الشرّ و"الخير كما يهبنا الله أن نرى الخير".

أشـــرت إلى هذه النقطة في كلمة ألقيتها في ربيع سنة 2004، وأضفت، "لا أقـــول ذلك لأنتقد الرئيس، إذ أعتقد أنه حاول على العموم أن يتوخّى العناية في اســـتخدام الكلمات، ولأنني أميل إلى الإدلاء ببيانات متعجرفة كأي شخص آخر. إنـــنا جمـــيعاً نـــتوق إلى تصديق ما نريد تصديقه، وما يجعلنا نشعر بالارتياح إذا صدّقناه. لكن المعتقَد لا يقود إلى الحكمة دائماً. وفي العالم المتفجّر اليوم، يجدر بنا أن نجد طريقة للبدء بإخماد الحرائق القديمة بدلاً من إيقاد حرائق جديدة".

فـــشل إخـــلاء نفسي من المسؤولية في ثني الأوصياء على إعلام الرئيس من الإســـراع لنجدته. ففي اليوم التالي، سمّاني مقدّم البرنامج الحواري شون هانيتي من محطّـــة فوكس نيوز، "القائدة اليسارية الحادّة الصوت" وسأل بطريقة بلاغية، "هل ذلك لأن لدى الليبراليين رغبة شديدة في العودة إلى السلطة بحيث يقولون أي شيء

في هـذه المـرحلة". ورأى أحـد زملاء هانتي بيسمة استهزائية أن خطّي لمحاربة الإرهاب هي "غناء كومبايا[1] بالعربية".

كما قد رأينا، الرئيس بوش ليس أوّل قائد أميركي يربط أجندته بأجندة الله. فقـد فعـل الـشيء نفسه مؤيّدو إلغاء العبودية، وحركة الحقوق المدنية، وجهود مكافحة الفقر والمرض. غير أنه تكتيك يجب استخدامه بحذر، لا سيما في الظروف الحالـية، وتلـك ميزة لم تظهر كثيراً في مؤتمر الحزب الجمهوري في سنة 2004. فعندما أعلن الرئيس المشارك للحزب الجمهوري في أيوا بأن GOP[2] تعني 'الحزب الرسمي لله '"، أكّد البرنامج السياسي للجمهوريين في تكساس على أن "الولايات المتحدة الأميركية أمة مسيحية". وجمعت اللجنة القومية الجمهورية التبرّعات لتقدّم إلى الـرئيس "درع الإله". واستشهد نائب الرئيس تشيني بالمؤرّخ الذي كتب، "لا بدّ من أن النجوم في السماء تراقصت عندما أنشئت أميركا". وأعلن الرئيس بوش في خطـبة قبوله الترشيح، "على غرار الحكومات التي سبقتنا، لدينا دعوة من وراء النجوم للوقوف مع الحرية".

يفخـر الـرئيس بـوش بالمعـتقد الذي يضعه في أحكامه عن الخير والشرّ، وبتصوّراته عمّا يريده الله وما لا يريده. وهو يرى أن هذا المستوى من اليقين صفة لازمـة للـرئيس. فقد أبلغ الجمهور في خريف 2004، "يجدر بكم أن تعرفوا ما تؤمـنون به وإلا تخاطرون بأن يتلاعب بكم تملّق الأصدقاء أو جوقة المنتقدين جيئة وذهاباً". وتابع يقول، "من المهم أن يكون الرئيس الأميركي متّسقاً، إذ يجب عليه أن يستند في قراراته إلى المبادئ والقناعات الجوهرية التي لن تتنازلوا عنها".

مـن ذا الـذي يناقش في ذلك؟ لا شك في أن على القادة أن يتحلّوا بالثقة بالـنفس، لكن ثمة خط فاصل دقيق بين الثقة وادّعاء الفضيلة والصلاح. الثقة تأتي

---

(1) Kumbaya، أغنـية كتـبها الأب مـارفن ف. فراي في الثلاثينيات من القرن الماضي، عنوانها الأصلي come by here (زرنا) وهي ترتبط بالوحدة والقرب. وقد عادت الأغنية فـي سـنة 1946 من إفريقيا مع عائلة من المبشّرين الذين جالوا على أميركا ينشدونها بنصّها الأنغولي الشهير الآن – المترجم نقلاً عن موسوعة ويكيبيديا.

(2) مختصر God's official party. على أن GOP أصلاً هي الحروف الأولى لعبارة Grand Old Party أي الحزب القديم الكبير (الحزب الجمهوري). المترجم.

مـــن سعي المرء إلى تعلّم كل ما يستطيع عن مشكلة ما؛ ويأتي ادّعاء الصلاح من مـــيل إلى الاعتقاد بأن المرء تعلّم كل ما يمكن تعلّمه. القائد الواثق يصدر أحكاماً جازمـــة بـــشأن ما هو أفضل، لكنه يتقبّل الحاجة أيضاً إلى مراجعة القضايا إذا ما ظهـــرت أي معلومات جديدة؛ والقائد الذي يدّعي الصلاح يقاوم أي معلومات تتناقض مع ما يعتقده بالفعل.

مـــن واجب القيادة أن تعمد إلى التمييز الأخلاقي، ومن الطبيعة البشرية أن تفكّر بالأشياء المطلقة؛ لكن يُنصح بالتزام الحكمة. فقلّة منا، هذا إذا وُجد، لديهم رؤية أخلاقية تامة (20 – 20). إذا كنا واثقين من أننا على حقّ، فمن غير المرجّح أن نقـــوم باستكشاف البدائل أو وضع الخطة (ب) تحسّباً لفشل الخطة (أ). وربّما نكـــون مقتنعين جداً بجدارة قضيّتنا بحيث نهمل مسعى إقناع الآخرين. وربما نصرّ كـــثيراً علـــى تحقيق الأهداف الصحيحة بحيث نخفق في انتقاء الوسائل الصحيحة. والـــتاريخ مليء بالمشروعات التي فشلت على الرغم من الاعتقادات الراسخة لمن أطلقهـــا. لقد قادت اعتقادات الرئيس بوش الجوهرية أميركا بعد 9/11 إلى الغزو والاحـــتلال المطوّل لبلد ليس له أي علاقة بهجمات 9/11. ووسّعت هذه الخطوة الهـــوّة الفاصلة بين المسلمين والولايات المتحدة، وقدّمت حياة جديدة إلى القاعدة، وجعلت إلحاق الهزيمة بالإرهاب الدولي تحدّياً أكثر صعوبة.

الفصل الثاني عشر

العراق: عواقب غير مقصودة

كتب القديس أغسطين، "ثمة فارق عظيم تُحدثه الأسباب والسلطات التي يأخذ بموجبها البشر على عاتقهم خوض الحرب".

بعد 1600 عام تقريباً، في آذار/مارس 2003، حاول الكاردينال بيو لاغي إقناع الرئيس بوش بعدم تنفيذ خطّته لغزو العراق. وحذّر الكاردينال، وهو مبعوث من الفاتيكان، من وقوع إصابات بين المدنيين وتضرّر العلاقات بين المسيحيين والمسلمين؛ وأكّد أن من غير الأخلاقي أو القانوني مهاجمة أي بلد ولو كان للإطاحة بنظام كريه كنظام صدّام حسين. لكن الرئيس بوش لم يتزحزح عن موقفه. وقال إن الحرب، "ستجعل الأمور أفضل".

في كلمة ألقيتها في الأسبوع نفسه، رأيت أنه "حتى إذا كان هناك مبرّر كاف لغزو العراق، فإن قيام أميركا بشن الحرب في هذه الظروف وفي هذا الوقت ربما لا يجانب الحكمة". وعبّرت عن خشيتي من أن يؤدّي نشوب حريق كبير إلى الانتقاص من الجهود للقبض على أسامة بن لادن وأن تستغلّ القاعدة ذلك لتجنيد الإرهابيين. وحذّرت من أن الانقسامات الداخلية في العراق ستعقّد بدون شك الأوضاع بعد النزاع. وكنت قلقة أيضاً من الافتقار إلى الدعم الدولي، حيث قلت إنه على الرغم من أن الولايات المتحدة تستطيع ربح الحرب دون الحصول على مساعدة كبيرة، فإنها بحاجة إلى مقدار كبير من المعونة لإنشاء ديمقراطية مستقرّة. ومع أنني أحسب أن بعض الأشخاص في الحكومة، وبخاصة في وزارة الخارجية وفي أوساط عسكريينا، لديهم آراء مماثلة، فقد ذهبت تحذيراتي وتحذيرات الكثيرين غيري سدى.

لم تكن شكوكي في حكمة الحرب تستند إلى أي أوهام بشأن صدّام حسين. فعندما كنت في الحكومة أكّدت شخصياً أن الضربات العسكرية المحسوبة مبرّرة

لمعاقبة العراق على إخفاقاته العديدة، بما في ذلك عدم رغبته في التعاون مع أعمال التفتيش عن الأسلحة التي تقوم بها الأمم المتحدة. والآن رأيت من خارج الحكومة – على أساس البيانات الاستخبارية التي درستها سابقاً – أن العراق ربما يمتلك أسلحة كيميائية وبيولوجية، لكنه لا يمتلك وسائل إطلاقها بفعّالية خارج حدوده. لم تكن هناك إشارات على أن البلد استأنف صنع الأسلحة النووية. لكن لا بدّ من الإقرار أيضاً بعدم وجود سبب للاعتقاد بأن صدّام حسين لن يحاول القيام بذلك إذا أتيحت له الفرصة. غير أنه كان محبوساً في قفص – ثعلباً ليس لديه طريق لدخول قن الدجاج. فقد حُظر على الجيش العراقي شراء أسلحة ثقيلة وكان محاطاً بقوات متفوّقة؛ بل إن القسم الأعظم من مجاله الجوي كان خارج نطاق سيطرته. كما حُذّر صدّام بأنه سيمحى من الوجود إذا حاول غزو بلد ما ثانية. وكقاعدة عامة، الأشخاص الذين يبنون تماثيل لأنفسهم لا يكونون انتحاريين. وبعد أكثر من عقد من الاحتواء، لم يكن العراق في موقف يسمح له بمهاجمة أحد.

في سنة 2001، قدّم كولن باول، وزير الخارجية الأميركية في ذلك الوقت، موجزاً دقيقاً للوضع. فقال عند إشارته إلى العقوبات، "لقد نجحت بصراحة". ولاحظ أن صدّام "لم يطوّر أي قدرة كبيرة فيما يتعلّق بأسلحة الدمار الشامل. وهو غير قادر على عرض قدرته أمام جيرانه. لذا فإن سياساتنا قد قوّت أمن جيران العراق في الواقع، وهذه هي السياسات التي سنحافظ عليها". غير أن باول لم يتكهّن كم من الوقت ستستمر هذه السياسات. ففي أوائل سنة 2002، كان قد قرّر الرئيس بوش التخلّي عنها والإعداد للغزو بدلاً من ذلك.

يورد تراث "الحرب العادلة" سلسلة من العقبات التي يجب إزالتها قبل الحكم بشرعية القرار ببدء نزاع. وتشمل هذه (1) القضية العادلة، (2) النية السليمة، (3) السلطة الصحيحة، (4) الأمل المعقول بالنجاح، (5) التوازن المؤاتي بين الخير المتحقّق مقارنة بالأذى الذي تتسبّب به. عندما اتضحت نوايا الإدارة، انضمّت جوقة من السلطات الدينية إلى الفاتيكان في المحاجّة بأن الغزو المزمع لا يرقى إلى هذه المعايير. فقد رأى أسقف شيكاغو الميثودي، "أنه لا توجد طريقة لقراءة معايير 'نظرية الحرب العادلة' التي يمكن أن تبرّر هذه المغامرة الطائشة. إن ذلك ليس دفاعاً عن النفس. ولم

تستنفد كل الخيارات الأخرى. والدمار المتصوّر لا يتناسب البتّة مع عدوان صدّام حسين الأصلي. ولن تتمّ حماية المدنيين الأبرياء – لا سيما النساء والأطفال".

حذّر بطرس السابع السكندري، ثاني بطاركة الكنيسة الأرثوذكسية مرتبة، من أن غزو العراق "سينظر إليه على أنه هجوم على الإسلام" وسيكون له "عواقب غير عادلة ذات مدى بعيد وأجل طويل". وناشدت اللجنة التنفيذية للمؤتمر العالمي للأديان والسلام بغداد الامتثال لقرارات مجلس الأمن الدولي، لكنها عبّرت عن خوفها من "احتمال أن يؤدّي العمل العسكري ضدّ العراق إلى حدوث كارثة إنسانية طويلة الأجل، وزيادة عدم الاستقرار في المنطقة، وإذكاء الميول المتطرّفة الخطرة". واقترحت شبكة بروتستانتية، كول تو رنيُوال (دعوة إلى التجدّد) بديلاً للحرب من ستّ نقاط، بما في ذلك توجيه لائحة اتهام إلى صدّام حسين أمام محكمة دولية، وأعمال التفتيش القسرية، والإغاثة الإنسانية، وتشديد التركيز على التهديد الذي يشكله المفجّرون الانتحاريون.

تجاهل مؤيّدو الإدارة هذه البدائل، وردّوا بأن هجمات 9/11 جعلت المعايير التقليدية للحرب العادلة شيئاً من الماضي. ورأوا أن الولايات المتحدة معرّضة لهجوم مفاجئ يشنه عدوّ ينشد الموت وبالتالي لا يمكن ردعه. وأثاروا احتمال حدوث تعاون بين صدّام حسين والقاعدة (أو ربما وجود هذا التعاون بالفعل)، وأن صدّام في موقع يمكّنه من تزويد الإرهابيين بأسلحة رهيبة. وحتى إذا لم تستطع الولايات المتحدة أن تثبت بأن العراق يمدّ يد العون إلى القاعدة، فإن ذلك لا يعني بأن العراق لا يساعد القاعدة. وقال دونالد رامسفيلد، "إن غياب الدليل ليس دليلاً على الغياب". وكانت هذه المقولات كافية لكسب تأييد الجماعات المسيحية واليهودية المحافظة والتي بعضها معتدلة[1].

عند تقديم الحجّة، أشار مسؤولو الإدارة إلى "الخطر المتجمّع" الذي شكله النظام العراقي. بل إن كوندوليزا رايس استحضرت صورة سحابة الانفجار النووي

---

(1) وصفت الجمعية الوطنية للإنجيليين على سبيل المثال الغزو المقترح بأنه دفاع عن النفس. ووافق اتحاد اليهودية الإصلاحية على دعم العمل العسكري، لكن بعد أن تستكشف أولاً كل الخيارات الاخرى لحل مشكلة امتلاك العراق اسلحة دمار شامل

كتحذير من أن عدم قيامنا بالهجوم قد يؤدّي إلى إبادة نووية. وقد تأثّرت شخصياً بالعرض الذي قدّمه الوزير باول أمام مجلس الأمن الدولي. وبوجود مدير وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه)، جورج تنيت، إلى جانبه، قدّم باول سيلاً من المزاعم، بما في ذلك التأكيد - الذي أذهلني - بأن العراق يمتلك أسطولاً من مختبرات الأسلحة البيولوجية المتحرّكة. كانت شهادة قوية، لكن الأخبار الأكثر إثارة - بما في ذلك المختبرات المتحرّكة - كانت كاذبة، دون أن يعلم باول ذلك. فقد لفّق المنفيّون العراقيون، لا سيما مخبر يحمل الاسم السريّ كيرفبول (Curveball)، هذه القصص الخيالية بغية دفع أميركا إلى الحرب[1]. وسرعان ما عرفنا بعد ذلك أن لا وجود لأسلحة الدمار الشامل.

من الواضح بالعودة إلى الوراء أن الحكومة العراقية كانت خطراً متناقصاً بالنسبة للجميع إلا الشعب العراقي. ولا شك في أنها لم تكن تشكل خطراً وشيكاً على أميركا أو أي من حلفائها. وليس هناك أي دليل على أنها تحالفت مع القاعدة. لم يكن هناك أي مبرّر لدى إدارة بوش التي كانت قد كسبت نصراً دبلوماسياً عن طريق الضغط بنجاح من أجل عودة المفتّشين عن الأسلحة إلى العراق، لكي تبطل ذلك النصر بفرض نهاية مبتسرة لأعمال التفتيش هذه. كانت الولايات المتحدة تفتقر إلى "السلطة الصحيحة" للذهاب إلى الحرب مع العراق. فليس بوسعها الادّعاء بأنها عملت على فرض إرادة مجلس الأمن الدولي عندما عارضت غالبية المجلس خطة الرئيس. ووفقاً لرواية بريطانية رسمية عن المباحثات مع المسؤولين الأميركيين في صيف 2002، "أراد بوش إزاحة صدّام حسين عن طريق عمل عسكري يبرّر بالارتباط بين الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل. لكن تمّ إعداد الاستخبارات والوقائع بما يتناسب مع السياسة".

(1) يبدو من كل الروايات أن الوزير باول بذل جهداً كبيراً لضمان دقّة المعلومات التي ينقلها إلى الأمم المتحدة. وقد طرح الأسئلة الصحيحة، لكن المشاكل نشأت من الإجابات التي تلقّاها. ففي أيلول/سبتمبر 2005، في مقابلة مع برباره وللترز بمحطّة إيه بي سي، قال باول، "كان هناك بعض الأشخاص في أجهزة الاستخبارات ممن عرفوا في ذلك الوقت أن بعض هذه المصادر غير صالحة، ويجب عدم الاعتماد عليها، لكنهم لم يصرّحوا بذلك. وقد أحزنني ذلك".

حققت الحرب باكراً أحد أهدافها القيمة - إزاحة صدّام حسين عن السلطة. لكن سرعان ما اتضح أن ثمن هذه "المهمة المنجزة" بُخس بشكل فاضح. فقد توقّع المسؤولون في الإدارة أن تكون الحرب والانتقال اللاحق سهلين وغير مكلفين وخاليين من المخاطر. ولأنهم لم يتوقّعوا حدوث مشاكل، أهملوا التخطيط لها. ففي جلسة إطلاع قبيل الغزو، جلست بصبر فيما كان القادة المدنيون لوزارة الدفاع يشيرون إلى خرائطهم ويحملون التوقّعات. رفعت يدي وسألت، "كل ذلك جيد، لكن أين خطّتكم لما بعد الحرب"؟ بدلاً من الإجابة، أبلغني المسؤولون ألا أقلق، فقد جرى التفكير في كل شيء وسيكون على ما يرام. كانوا جميعاً واثقين ثقة فائقة. بالنظر إلى سجلّ صدّام حسين، يمكنني على الأقلّ أن أقبل أن هناك أسباباً تدعو للذهاب إلى الحرب. لكنني لم أتفهّم قرار القيام بذلك في هذا الوقت، بدون قوات كافية، وبدون العتاد المناسب، وبدون وجود استراتيجية واقعية لاستعادة النظام، وبدون تحليل جادّ للبيئة التي سيطلب من المقاتلين والمقاتلات الأميركيين المخاطرة بأنفسهم فيها.

تميز أداء الجيش الأميركي في العراق بالمهارة والشجاعة. غير أن إدارة البنتاغون للاحتلال كانت مأساة من الأخطاء. فقد انهار الوضع الأمني منذ البداية؛ وولدت إعادة الإعمار الاقتصادي ميتة؛ وانبعثت رائحة محاباة الأقارب الكريهة من عملية التعاقد؛ ونفّر نهج الإدارة الأحادي الحلفاء؛ وارتفعت التكاليف الإنسانية والمالية ارتفاعاً كبيراً. فعند وضع هذا الكتاب، كان عدد من قُتل من قوات الائتلاف يزيد على 2.400، وعدد من جُرح 16.000. وأُصيب كثير من الجرحى بعجز دائم. وقُتل أيضاً عشرات الآلاف من المدنيين العراقيين الأبرياء. وبالإضافة إلى ذلك، كان يمكن استخدام أكثر من 250 مليار دولار لمحاربة القاعدة، أو إعادة البناء بعد الكوارث الطبيعية، أو لأغراض ضرورية لو لم تبتلعها العراق. في غضون ذلك، انتشر الجيش الأميركي، بما في ذلك حرسنا الوطني ووحدات الاحتياط، إلى حدّ مفرط ينذر بالخطر.

من معايير الحرب العادلة "النية السلمية"، وهو ما تستحقّ عليه الإدارة علامة نجاح. لقد كان الرئيس صادقا دون شك عندما أبلغ السفير البابوي بأنه يعتقد أن

الحرب "ستجعل الأمور أفضل". بل إنه كان شديد الإيمان بصحّة آرائه بحيث أهمل استـــشارة الأصدقاء في الداخل والخارج. وفيما يلي تسلسل منطقه كما تدلّ عليه بياناته: (1) الخير والشرّ موجودان في العالم، (2) صدّام حسين شرّير، (3) لذا فإن إزاحـــته خير، (4) العراق الديمقراطي الجديد سيكون نموذجاً تحتذيه البلدان العربية الأخرى. تكمن المعضلة الرئيسية لهذا التفكير فيما أغفل – التعقيدات التي أحدثها التاريخ والدين.

لم يكن التفويض الذي ثبّت السلطة البريطانية في الشرق الأوسط في أعقاب الحـــرب العالمـية الأولى محدوداً بفلسطين، بل امتدّ أيضاً إلى ثلاث ولايات تابعة للإمـــبراطورية العثمانية المتفكّكة حديثاً: واحدة تتكوّن من الإثنية الكردية بالدرجة الأولى، والثانـــية من العرب السنة، والثالثة من العرب الشيعة. وكانت هذه المناطق واقعـــة علـــى طول نهري دجلة والفرات، اللذين شكل واديهما مهد بلاد ما بين النهرين القديمة. ولأغراض الإدارة، جمع البريطانيون الولايات المتميزة معاً في كيان واحد هو العراق.

علـــى غـــرار القـــادة الأميركيين بعد ثمانين عام ونيف، توقّع البريطانيون أن يرحّب بهم رعاياهم الجدد بحرارة، فالبريطانيون في النهاية حرّروا شعب المنطقة ممن اضطهدهم مدّة طويلة. وقد التقى القائد البريطاني، الفريق السير فريدريك مود، مع المسؤولين المحليين وقال لهم مطمئناً، "إن جيوشنا لا تدخل مدنكم وأراضيكم فاتحة أو عـــدوّة، وإنمـــا محرّرة... [وإننا نرغب في] أن تحقّقوا الازدهار كما في الماضي، عـــندما كانـــت أراضـــيكم خصيبة، وعندما قدّم أسلافكم للعالم الأدب والعلوم والفنون، وعندما كانت بغداد إحدى عجائب العالم".

فـــشلت كلمـــات الجنرال المنمّقة في تهدئة الخواطر. فلا مصلحة للعراقيين في إحلال سيد مسيحي محل سيد مسلم، وهم يريدون أن يحكموا أنفسهم. وفي صيف 1920، اســـتعر التمرّد في أنحاء واسعة من البلاد. فقطع المتمرّدون خطوط السكك الحديديـــة، وهاجمـــوا القـــرى، وقتلوا جنوداً بريطانيين. ردّ البريطانيون بقسوة، فاســـتخدموا القنابل والغاز السامّ، وقتلوا المتمرّدين والمدنيين على السواء. رفضت السلطات الشيعية العراقية التي قادت التمرّد التسليم. وعندما تمكّن البريطانيون من

استعادة النظام في النهاية، أقاموا ملكية دستورية حابت الأقلية السنية، وهمّشت الشيعة وخلّفت لهم المرارة. أما بالنسبة لنفط العراق، فقد قسّم بين المصالح البريطانية والفرنسية والهولندية والأميركية.

على الرغم من أن الانتداب البريطاني انتهى رسمياً في سنة 1932، فإن العراق بقي خاضعاً لحماية التاج حتى سنة 1958، عندما أطاحت مجموعة منشقّة من الضبّاط بالملكية. وأوصل انقلاب لاحق صدّام حسين إلى الرئاسة في سنة 1979. تعامل صدّام – وهو سنّي علماني اتبع أسلوب جوزيف ستالين في القيادة – بوحشية مع كل من عارضه أو ساءله، وكان شرساً جداً تجاه الشيعة والأكراد.

عنى هذا التاريخ أن القوات الأميركية واجهت في ربيع 2003 – عند سقوط بغداد – شعباً منقسماً بحدّة ولديه شكوك عميقة بالغرب ومعادياً بالفطرة لمشهد قوة عسكرية مسيحية إلى حدّ كبير تحتلّ مدينة كانت لمدّة قرون عاصمة الإسلام في العصر الذهبي. فلا عجب إذاً أن تفشل النوايا الطيبة والكلمات المنمّقة ثانية في تهدئة الخواطر.

ربما يعدّ غزو العراق – وما تلاه – في نهاية المطاف من أسوأ كوارث السياسة الخارجية في التاريخ الأميركي، على الرغم من أننا نأمل مخلصين خلاف ذلك. فقد أصبح قرار الهجوم بالفعل دراسة حالة عن العواقب غير المقصودة. فمن العجيب مثلاً أن يتوقّف نجاح مقامرة إدارة بوش الكبرى في الشؤون العالمية على استمرار سعة صدر آية الله الإيراني المولد في الخامسة والسبعين من العمر والذي يعاني من مرض في القلب. فعندما قلبت إزاحة صدّام حسين السياسة في العراق رأساً على عقب، حلّت محل الأقلية السنية المهيمنة منذ مدّة طويلة أغلبية شيعية مقموعة منذ عهد بعيد، وأوسع قادتها نفوذاً آية الله العظمى السيستاني.

خلافاً لرجال الدين الشيعة في إيران الذين يصرّون على ممارسة السلطة السياسية، ينتمي السيستاني "الزاهد" إلى التراث الشيعي السائد الذي يبقى فيه رجال الدين منأى عن الحياة العامة الروتينية، مع أنهم يحتفظون بحقّ استعمال سلطتهم في الأوقات الحاسمة. فمنذ سقوط بغداد، أدّى السيستاني دوره بشكل خلاّق. وبدلاً من تكرار خطأ التمرد صراحة على قوة عسكرية غربية قوية، توصّل

السيستاني إلى طريقة تجعل المحتلّين يعملون لصالحه. ففي سنة 2003، عندما كشفت الـــولايات المتحدة النقاب عن خطة متعدّدة المراحل للعراق تقضي باختيار جمعية وطنـــية ووضع مشروع دستور، تصدّى السيستاني لها - لا لأنها ديمقراطية بل لأنها ليست ديمقراطية بقدر كافٍ. فقد كان الأميركيون يريدون عملية خاضعة للسيطرة تـــضع القواعد قبل إجراء الانتخابات. ورأى السيستاني أن قيام ممثّلين غير منتخبين بوضع مسوّدة الدستور أمر غير مشروع، وأصرّ على أن تتمّ الانتخابات أولاً. وبعد محاولـــة تجاهل مطلبه في البداية، ثم بعد الفشل في التوصّل إلى تسوية، لم يكن أمام المـــسؤولين الأميركيين - بالنظر إلى كل حديثهم عن الديمقراطية - إلا الرضوخ. وضمن دعم آية الله لاحقاً للانتخابات نجاحها على الرغم من تهديدات الإرهابيين، بل إنه أفتى بوجوب مشاركة النساء في الانتخاب سواء قبل أزواجهن بذلك أم لا. وتمكّـــن المرشّـــحون المفـــضّلون لدى السيستاني من إلحاق الهزيمة بسهولة بأولئك المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالولايات المتحدة.

يعمـــل آية الله السيستاني مثلما عمل أسلافه منذ قرون، باستثناء أنه يستخدم شـــبكة اتصالات أوسع بكثير. وهو زاهد، يعيش في بيت صغير في مدينة النجف الـــشيعية، ويمـــسك عـــن التحدّث أو الوعظ على الملأ. ويرفض أيضاً الاجتماع بالمسؤولين الأميركيين بشكل مباشر. وتعزّز صورته حلقة من المستشارين الماهرين، وتوسّـــع نفـــوذه شـــبكة مـــن المنظّمات الاجتماعية والخيرية التي يشرف عليها. والسيـــستاني ليس قوياً بالقدر الذي يمكّنه من فرض أجندة وطنية عراقية، لكن لا تستطيع أي فئة أخرى تحقيق أهدافها بدون موافقته. وسيستخدم نفوذه لضمان أن يلعـــب الإسلام دوراً بارزاً في تشكيل المجتمع والقانون العراقي. وسيتكرّر اختبار حكمة السيستاني فيما يتنافس المسلمون المحافظون، المقموعون طويلاً، مع المعتدلين ودعاة حقوق المرأة لتحديد مقدار تسامح العراق الجديد وتنوّعه.

يعتـــبر مقتدى الصدر من أكثر القادة الشيعة إثارة للخلاف، ومنافساً نوعاً ما للسيستاني، وهو رجل دين شاب ذو نسب عائلي مثير للإعجاب. فقد حظي جدّه الأكبر بالشهرة لقيادته الشيعة ضدّ البريطانيين في عشرينيات القرن العشرين. وكان والـــده الـــذي اغـــتاله مجرمو الحكومة في سنة 1999 شخصية دينية بارزة أيضاً.

والصدر عازم على التمسّك بتراث عائلته في التمرّد، لكن يبدو أنه لم يحسم أمره بشأن أفضل السبل للقيام بذلك. وقد اتبع استراتيجية متقلّبة، حيث يدعو أحياناً ميليشيا المهدي غير المحكمة التنظيم إلى مهاجمة قوات التحالف، ويتخذ أحياناً موقفاً دفاعياً، ويتعهّد في أحيان أخرى بنبذ العنف وانتهاج السياسة. ويعتبر دوره حاسماً لأن أسلوبه الديماغوجي يجعله أكثر شعبية من أي شخصية أخرى في أوساط المحرومين ببغداد، شيعة وسنّة. وهذا الموقف يمكّن الصدر من الإدلاء "بصوت مرجّح": اختيار المساعدة في جمع البلد معاً أو تمزيقه. لذا فإنه يعتبر اختباراً حاسماً للتقدّم العراقي. فإذا ارتبط اسمه بتعزيز الوحدة الوطنية، يكون هناك ما يدعو إلى التشجّع. وإذا ارتبط اسمه بتفجّر اشتباكات جديدة، فذلك يوحي بتعاظم المخاطر.

كسب الشيعة والأكراد السلطة عند الإطاحة بصدّام حسين، فيما فقدها العرب السنّة. فبعد الهيمنة على المؤسسات الحاكمة للبلد أكثر من ثمانية عقود، أصبح السنّة فجأة في الخارج. ففي سنة 2003، سرّح المسؤولون الأميركيون الجيش العراقي وحظروا احتفاظ أعضاء الحزب الحاكم القديم بمناصبهم العامة. حرمت هذه الخطوات غير الحكيمة البلد من هيكلية أمنية جعلت عشرات الآلاف من السنّة عاطلين عن العمل فيما لم يكن هناك سوى القليل من الأعمال البديلة. وأصيب العديد من العرب السنّة بالذهول لتراجع مكانتهم. وبعضهم يعتقد اعتقاداً حقيقياً أنهم يشكلون غالبية الشعب العراقي، حتى اليوم، على الرغم من أن الخبراء متوافقون على أن نسبتهم قريبة من 20 بالمئة.

يفتقر السنّة إلى قائد ذي مكانة مماثلة لمكانة السيستاني. فقد اغتيل بعض الناطقين الأبرز باسمهم؛ وبعضهم ملوّثون بارتباطهم السابق بصدّام حسين؛ وبعضهم الآخر منفيّون سابقون ليس لديهم أتباع كثر. دعا الأكثر نفوذاً بينهم إلى مقاومة الاحتلال على الرغم من أن هناك اختلافات بشأن مقدار العنف الذي يمكن تبريره. في غضون ذلك، قدم عدد غير محدّد من الإرهابيين المجندين من الدول العربية السنية إلى العراق مدفوعين باحتمال شن الحرب على الأميركيين (أي المسيحيين أو الملحدين)، والإيرانيين (أي الشيعة)، والعملاء اليهود الذين يزعمون أنهم يريدون نهب بلدهم ومحاربة دينهم. وأكثر هؤلاء الأجانب شهرة الإرهابي

الأردني المولد أبو مصعب الزرقاوي الذي اكتسب سمعة سيئة عن أعمال الخطف والإعدامات الدامية التي نشرت على الإنترنت. وعلى الرغم من الاعتقاد بأن الزرقاوي خطّط بعض أكثر الهجمات إثارة في العراق، فإن عشرات العصابات ادّعت المسؤولية عن التفجيرات الانتحارية، والهجمات على القوى الأمنية، وأعمال القتل والتخريب. وعند أخذ هذه المجموعات معاً، فإنها تشكل تمرّداً متعدّد الرؤوس لا ينفكّ حجمه يكبر فيما يستنزف موارد البلد ويهدّد بإغراق العراق في نزاع طائفي دائم التوسّع. أظهر التمرّد مقدرة مخيفة على امتصاص الخسائر دون فقد القدرة على تنفيذ الجرائم، ويرجع ذلك جزئياً إلى أنه شديد اللامركزية. لا يملك المتمرّدون فرصة لإعادة تثبيت السيطرة السنية على العراق، لكن لا يبدو أيضاً أنه يمكن هزيمتهم عسكرياً، إلا إذا تشاجروا فيما بينهم وبدأوا يقاتلون بعضهم بعضاً. ويظهر أن أجندهم تقوم على محاولة إخراج الائتلاف من البلد وقتل كل من تعاون معه. وكما قال أحد المفجّرين الانتحاريين المتدرّبين لمجلة "تايم"، "الخطوة الأولى هي إخراج الأميركيين من العراق. وبعد تحقيق ذلك، يمكننا العمل على التفاصيل الأخرى".

يصف القادة الأميركيون المواجهة في العراق على أنها معركة بين قوى الحرية والطغيان، في مسعى غير ناجح للتقليل من البعد الديني. ليس كل من في البلد متديّن بالطبع، كما أن الملايين منشغلون جداً في معيشتهم اليومية بحيث لا يوجد لديهم كثير من الوقت للشواغل الأخرى، لكن الدين مركزي لهوية معظم العراقيين. ومنذ سقوط بغداد، أظهر القادة الدينيون بشكل متكرّر قدرتهم على إنزال أعداد كبيرة من الأشخاص إلى الشوارع لصالح قضية مفضّلة. لقد تسامح غالبية العراقيين مع التواجد الأميركي في البداية لأن السيستاني أمر بذلك. وترجع مقاومة العديد من العرب السنّة بشكل جزئي إلى أن هيئة العلماء المسلمين، وهي مجموعة سنية بارزة، ادّعت أن المقاومة واجب ديني. وعلى الرغم من أن معظم المتديّنين العراقيين ليسوا متعصّبين، فإن بعضهم كذلك. ومن الممكن التقاط صحيفة في أي يوم تقريباً وإيجاد أخبار عن أشخاص يقولون إنهم مستعدّون للموت (أو القتل) إذا أمرهم بذلك إمامهم. على سبيل المثال، أبلغ مصطفى جبّار، وهو شاب

في الثالثة والعشرين ولديه طفل صغير وحيد، صحفياً بأنه وزوجته مستعدّان "لتزنير الطفل بالألغام وتفجيره" إذا طلب منهم مقتدى الصدر ذلك.

ومن المفارقات العديدة للسياسة الأميركية أن إدارة بوش، على الرغم من مبادراتها المستندة إلى الدين، ترتاح إلى العمل مع الزعماء العلمانيين أكثر بكثير من العمل مع القادة العراقيين (والأحزاب السياسية العراقية) الذين يعتبر الدين لديهم مركزياً. وينطبق ذلك حتى إذا كان القادة الدينيون ذوي توجّه معتدل ومتقبّلين للأهداف الأميركية على العموم.

ظهر دليل على ذلك في أثناء الاستعدادات للجولة الأولى من الانتخابات في كانون الثاني/يناير 2005. فقد عمل المعهد الوطني الديمقراطي، الذي أرأسه، مع الأحزاب السياسية العراقية بشكل مباشر وهي تعدّ لهذا الحدث التاريخي. وقد صمّمت برامجنا لمساعدة الأحزاب على فهم الجوانب التقنية للعملية الانتخابية، وتنظيم أفكارها وتعميمها، وجمع لوائح الناخبين، وضمان فرص مشاركة المرأة. وكانت قدرة المعهد على أداء وظيفته في مكان ينخره النزاع كالعراق تتوقّف (في ذلك الوقت والآن) على حياده. فلا يمكن أن يُنظر إليه على أنه يدعم فئة على أخرى.

لهذا السبب، ذُهلتُ حين علمت بوجود خلاف في وزارة الخارجية بشأن تقديم عشرات الملايين من الدولارات كمساعدة عينية لصالح الأحزاب العلمانية. وما إن علمنا بأمر هذه الفكرة الخطيرة، حتى قدّم كن وولاك (رئيس المعهد الوطني الديمقراطي) ولِس كامبل (مديره للشرق الأوسط) احتجاجاً. فذكّرا الإدارة، إلى جانب ممثّلين عن منظّمات أخرى تروّج للديمقراطية، بأن الهدف الأساسي للسياسة الأميركية هو مساعدة الشعب العراقي في انتخاب حكومة شرعية وتنصيبها. وإذا ما فضّلنا فريقاً على آخر فسنؤكّد كل الشكوك بشأن نوايانا، ونظهر خطابنا عن الديمقراطية بمظهر أحمق، وإثارة أسئلة جديدة عن موقفنا من الإسلام. وحذّر المعهد من أن الإدارة إذا مضت قُدُماً في تنفيذ مثل هذا المخطّط، فسيتعين عليه النظر في تعليق برامجه لأن مصداقيته ستتحطّم ولن يعود بالإمكان احتمال الوضع الأمني – وهو متوتر بالفعل.

نـــوقش اقتراح دعم مرشّحين معينين بشكل جدي مدّة أشهر قبل أن يرفضه كـــبار المسؤولين في وزارة الخارجية في النهاية. مع ذلك أثيرت أفكار مماثلة تتعلّق بالانتخابات اللاحقة. وبحسب علمي، لم تُقدم وزارة الخارجية أو أي هيئة فيدرالية علـــى تنفيذ مثل هذه الخطط. ثمة إغراء لمحاولة ترتيب نتائج مرضية لنا، بالنظر إلى كـــل مـــا اســـتثمرته الـــولايات المتحدة في العراق. لكن إما أن نكون مؤمنين بالديمقـــراطية، وإمـــا أن لا نكون مؤمنين بها. لقد كان إرسال الأميركيين للقتال والمـــوت في العراق فكرة مثيرة للشكوك في ظل كل الظروف. أما أن نطلب منهم تقديم مثل هذه التضحية فيما نقوم نحن بتخريب الديمقراطية فإنه أمر معيب.

كـــان غزو العراق يهدف إلى إظهار القدرة الأميركية، وأثبت بدلاً من ذلك حدود تلك القدرة. فقد ذهب الرئيس بوش إلى الحرب لأنه يعتقد أن القيام بذلك ضروري للحفاظ على سلامة أميركا. ولم يكن يرمي بذلك دون شك التسبّب بما يحـــدث هناك: تحوّل تاريخي في القوة النسبية للمسلمين السنّة والشيعة لا في العراق فحـــسب، وإنما في كل أنحاء المنطقة. فإقامة حكومة دائمة في العراق تشير إلى المرّة الأولى في الـــتاريخ التي يحكم فيها الشيعة دولة عربية بارزة. ويشعر المسؤولون في العواصم السنية الكبرى للمملكة العربية السعودية والأردن ومصر بالقلق من ظهور "هـــلال" شـــيعي يمتدّ من البحرين إلى إيران فالعراق وسوريا ولبنان. وفي اجتماع بواشـــنطن في ربـــيع 2005، عبّـــر الملك عبد الله، عاهل الأردن، لي عن قلقه من احـــتمال أن يحل الصدام بين السنّة والشيعة محل النـــزاع بين العرب والإسرائيليين كمشكلة أساسية في الشرق الأوسط. لقد كان السنّة يتمتّعون بالتفوّق داخل الدين الإسلامي طيلة ألف عام. وسيكون الميزان في المستقبل أكثر تعادلاً، ولا يعرف أحد علـــى وجه اليقين ما يمكن أن يعنيه ذلك. غير أن الملك عبد الله حذّر من السماح للـــشيعة الـــراديكاليين في إيـــران والعـــراق بأن يقدّموا أنفسهم بأنهم المتحدّرون الـــشرعيون من محمّد. وعلى الرغم من أن المعتدلين في كلا الجانبين سيسعون إلى كـــبح جماح المتطرّفين، فإن علينا التنبّه من احتمال حدوث نـــزاع – من التقاتل اللفظي إلى الاغتيالات والتحريض، وفي نهاية المطاف التسابق على الأسلحة النووية بين السنّة والشيعة.

من العواقب، غير المقصودة أيضاً، المرتبطة بالحرب صعود النفوذ الإقليمي لإيران، التي يعيش آلاف من مواطنيها في مدينتي النجف وكربلاء العراقيتين المقدّستين. فكثير مــن زعماء العراق الجديد أمضوا سابقاً سنيناً في إيران، وأنشأوا معها علاقات وثيقة. وهــناك تبادل للزيارات الودية العالية المستوى بين طهران وبغداد، مقارنة بالعلاقات الباردة مع العواصم العربية السنية؛ وتمّ التعهّد بالتعاون، حتى في مجالي الأمن والدفاع. كما أن قوات الميليشيا الشيعية التي تسيطر على الأمن في جنوب العراق متحالفة فعليّاً مــع إيــران، التي أطلقت العنان لأجهزتها الأمنية والاستخبارية. وقد أزاحت الحرب صدّام حسين، عدوّ إيران اللدود. واليوم يشتبك خصمان إضافيّان من خصوم إيران، الــولايات المتحدة والمتطرّفون السنّة، في مواجهة دامية. وفي إيران نفسها، حقّق محافظ متديّن ذو آراء شديدة العداء لإسرائيل فوزاً مفاجئاً في الانتخابات الرئاسية التي جرت في سنة 2005. وهكذا من الصعب أن يتصوّر المرء تسلسلاً مؤاتياً أكثر للأحداث من وجهة نظر رجال الدين في إيران.

لو كان بوسع المخطّطين الأميركيين فعل ما يشاؤون، لكان تمّ حلّ الميليشيات الــشيعية - والميليشيات الكردية في الشمال - منذ مدّة طويلة أو دمجها في الجيش الــوطني. لكن لا يبدو أن ذلك سيحدث قريباً، هذا إذا كان سيحدث أصلاً. وثمة خطر من التفكّك التامّ للعراق بدلاً من التوحّد. فمع أن الأكراد يرضون، في الوقت الحاضر، باستقلال ذاتي واضح التحديد، فإن الأولوية لديهم - وهدفهم النهائي - هــي كردستان المستقلّة. وقد انتظر الشيعة الجنوبيون سنتين للإعلان عن اهتمامهم رسمــياً في إنشاء منطقة مستقلّة ذاتياً ذات حقول نفطية خاصة بها، وميناء (البصرة) على الخليج، وحكومة ذات صلاحيّات وامتيازات منفصلة عن بغداد. وعلى الرغم مــن أن السياسة الدينية والإثنية تلعب دوراً كبيراً في هذه الطائفية، فإن المال يلعب دوراً أيــضاً. فعــند ممارسة السيطرة على الحدود، يصبح لدى الميليشيات المختلفة فرصة كبيرة للتهريب. وبحيازة ولاية قانونية على النفط، يأمل القادة في المناطق في الحصول على صفقات مربحة مع المستثمرين الأجانب. وإذا تُرك وسط البلاد ضعيفاً وفقــيراً، فــإن ذلك يشكل تسديد حساب عن عشرات السنين التي استغلّت فيها العاصــمة المناطق . غير ان تقسيم العراق إلى ثلاث مناطق غير متساوية لن يكون

مقبولاً بالنسبة إلى صناع السياسة الأميركيين، لأنه سيقسّم المنطقة أيضاً ويعمّق التوتّر بين العرب السنّة والشيعة ويعقّد العلاقات بين تركيا والأكراد. كما أن العراق المقسّم سيفتقر إلى صفتي الاستقرار والديمقراطية اللتين تمكّنان القوات الأميركية من الانسحاب في تاريخ مبكّر، واثقة من أن مهمتها أنجزت. لذا يحثّ المستشارون الأميركيون القادة الشيعة والأكراد على وقف التحدّث عن الانفصال والتركيز على العمل مع العرب السنّة على بناء بلد واحد موحّد. ولن ينجح هذا المشروع إلا إذا اقتنع ما يكفي من العراقيين بأن ذلك مرغوب فيه وممكن، بالنظر إلى الانقسامات السابقة والجرائم الحالية.

ويضاف إلى هذا الخليط الوضع الذي يواجه الأقلية المسيحية في العراق، ويبلغ تعدادها ما يقرب من مليون نسمة يتوزّعون على الأشوريين والكلدان والكاثوليك والأرمن والسريان. وبما أن المسيحيين يرتبطون بالولايات المتحدة في نظر المسلمين المتشدّدين، فقد قُصفت العديد من كنائسهم. مع ذلك عقد معظم المسيحيين العراقيين العزم على عدم الخضوع للخوف، لكن هرب الآلاف منهم. وتفاقمت المشكلة التي تواجهها الطوائف المسيحية بسبب الإرساليات التبشيرية التي تتبع الجنود الأميركيين بحماسة إلى العراق.

في أعقاب معركة بغداد، توقّع المدير التنفيذي للجمعية الوطنية للإنجيليين أن "يصبح العراق مركزاً لنشر تعاليم المسيح إلى إيران وليبيا وكل أنحاء الشرق الأوسط. لقد قال الرئيس بوش إن الديمقراطية ستنتشر من العراق إلى البلدان المجاورة. وسيسمح لنا العراق الحرّ بأن ننشر تعاليم المسيح في البلدان التي تصدّنا قوانينها".

الطوائف المسيحية في العراق قديمة قدم المسيحية نفسها. وبحسب أسقف بغداد الكاثوليكي، "إن طريقة وصول الوعّاظ إلى هنا... مع الجنود... لم تكن أمراً جيداً. أعتقد أنهم كانوا ينوون تحويل المسلمين إلى المسيحية، على الرغم من أن المسيحيين لم يفعلوا ذلك منذ 2.000 عام". ما من أحد لديه نوايا أفضل من المبشّرين الراغبين في المغامرة في مناطق معادية، وقلّة يتحلّون بشجاعة أكبر من شجاعتهم. لكن نظراً للظروف السائدة في العراق، فإن مجرّد تصوّر التبشير بالمسيحية لا يساعد السياسة الأميركية، كما أن التبشير ليس طريقة لخفض المخاطر التي تواجهها القوات الأميركية.

على الرغم من العديد من العواقب غير المقصودة للغزو الأميركي، فإن إدارة بوش تصرّ على أن بوسعها مع ذلك الوفاء بتعهّد الرئيس "بجعل الأمور أفضل". ولسبر أغوار ذلك، حضرتُ اجتماعاً في البيت الأبيض في 5 كانون الثاني/يناير 2006، لكل وزراء الخارجية والدفاع السابقين الذين لا يزالون على قيد الحياة. لقد كانت مجموعة مميزة، ولديها من الخبرة ما يكفي لأن تشعر بأنها لا تزال تتمتّع بشيء من الشباب. اجتمعنا في غرفة روزفلت، حيث استمعنا إلى حديث حاسم من الرئيس أعقبه تقرير عبر الفيديو من سفيرنا في بغداد. وعندما تبين أن الفيديو غير مسموع جزئياً، تذكّرت كل الأعطال التقنية التي كانت تقاطع اجتماعاتنا عندما كنت في الوزارة. فحتى في البيت الأبيض في القرن الواحد والعشرين، نتوقّع في بعض الأحيان من التكنولوجيا أكثر مما نستطيع الحصول عليه.

فيما كنا جالسين هناك، وزّع الموظّفون لدى الرئيس كرّاساً يعرض اقتباساً متفائلاً عن العراق نقلاً عن نائب الرئيس تشيني ومجموعة من الأحاديث التي تشير إلى المكاسب السياسية والعسكرية التي حققناها. وبعد تقرير آخر، من القائد العسكري الأميركي في العراق، مُنحنا فرصة التحاور مع الرئيس. ناقش وزراء الدفاع السابقون - وهناك الكثير منهم وصولاً إلى روبرت مكنمارا - التكتيكات العسكرية مع الرئيس وعبّروا عن قلقهم بشأن تأثير الانتشار الطويل في الخارج على قواتنا المسلّحة. وعندما حان دوري، شكرت الرئيس على الاجتماع وانضممت إلى الآخرين في التعبير عن الأمل بنجاح قواتنا. وأشركته في قلقي بشأن تراجع الموقف الأميركي في العالم، ومقدار تزايد صعوبة التعامل مع المخاطر في أماكن أخرى من العالم بسبب العراق. شكرني الرئيس على أفكاري لكنه تحدّى انتقاداتي أيضاً. ثم انتقلنا إلى المكتب البيضاوي لالتقاط صورة فوتوغرافية للمجموعة. لقد كان اجتماعاً مهذّباً، لكن أخشى أنه لم يكن مثمراً.

على الرغم من أن السياسة الأميركية عانت من العديد من النكسات في العراق، فإن الإدارة لا تزال تتحدّث عن "النصر". في الحقيقة، ربما لم تتوفّر الفرصة قطّ لنوع النصر الواضح الذي تحقّق في حرب الخليج الأولى. فلا يزال مستقبل العراق كئيباً بعد أكثر من ثلاث سنوات على الغزو. وثمة شعور في ذلك البلد وفي

الولايات المتحدة على السواء بأن جيش الائتلاف - بمجرّد تواجده - قد يؤدّي إلى توحـيد التمرّد وإبقائه بقدر ما يؤدّي إلى تدميره. بل إن تدريب الجيش والشرطة العراقيين يمكن أن ينقلب إلى ضدّه إذا لم يمنح هؤلاء ولاءهم إلى القادة الذين يمثّلون الـبلد بأكملـه. ثمة خطّ دقيق، ولكن مهم، بين إنشاء جيش وطني حقيقي ومجرّد تعليم الكثير من الأشخاص الذين لا يحبّون بعضهم بعضاً كيف يستعملون السلاح.

افترضـت الولايات المتحدة بغزوها العراق مسؤولية أخلاقية في مساعدة العراق علـى أن يـصبح ديمقراطية مسالمة وعقلانية. فالعراق الموحّد الذي لديه قيادة شرعية والقادر بمفرده على توفير الأمن لشعبه يعتبر - في هذه المرحلة - إنجازاً كبيراً. ولا تزال تلك النتيجة قابلة للتحقيق إذا بدأ التمرّد في التفكّك ومزّقته الخلافات على التكتيكات والأهـداف. وثمة أمل أيضاً في انخراط العديد من العراقيين من كافة أجزاء الأمة للمرّة الأولى بشكل علني في النشاط السياسي والتنظيم ومناقشة ما نوع المجتمع الذي يريدونه لبلدهم. فالديمقراطية وسيلة قوية لبعث الأمل. غير أن الذين يهيمن الخوف على حياتهم يمكـن أن ينظروا إلى احترام الحقوق السياسية للخصوم على أنه خطر جداً. فقد عاش شـعب العراق عقوداً من الخوف - من صدّام حسين والآن من الاضطرابات وانعدام الـيقين الـذي تلاه. وما يبقى من الاستراتيجية الأميركية هو تعزيز الأمل من خلال أعمال حكومة تمثيلية والوعد - في نهاية المطاف - باقتصاد مزدهر. والسؤال الذي ما زال ينتظـر إجابـة هـو هل يمكن أن تنجح تلك الاستراتيجية في وجه العديد من الـتحدّيات السياسية والأمنية، وعلى ضوء الخوف الذي يشعر به العديد من العراقيين تجاه الغرباء وبعضهم بعضاً على السواء؟

بـتجاهل نصيحة الخبراء، قامر الرئيس بوش بنجاح غزو العراق على الرغم من التعقيدات التي يشكلها الدين والتاريخ، وغياب مبرّر "الحرب العادلة" المقنع، وما نتج عـن ذلك من افتقار إلى الدعم الدولي. ولتبرير الرهان، بالغ في المخاطر التي تشكلها الحكـومة العراقية والمنافع التي يحقّقها إقصاء صدّام حسين. والأدهى من ذلك أنه وعد القوات الأميركية "بتقلّص التهديد الإرهابي لأميركا والعالم لحظة نـزع سلاح صدّام حسين". وتبين في الواقع أن الغزو والاحتلال زادا ذلك الخطر.

الفصل الثالث عشر

مواجهة القاعدة

أمضيت جانباً كبيراً من النصف الأول من حياتي بعد البلوغ في دراسة الحكومات الشيوعية. فقد كانت تحكم نصف العالم في أوج مجدها بين الخمسينيات وأوائل الثمانينيات من القرن الماضي. كما أن الأفكار التي تقف خلف الشيوعية تتمتّع بجاذبية قوية عندما تقدّم بشكل ذكي. فهي بالنسبة إلى كثير من الفقراء تعد بالتخلّص من انعدام الأمن في الحياة اليومية: حقّ العمل، والتعليم، والرعاية الصحية الجيدة، ومكان للإقامة، وتغذية أساسية، على أن تموّل جميعها باقتصادات كفوءة تستند إلى تخطيط مركزي.

ولتأمين المناصرين، كان دعاة الشيوعية بحاجة إلى شرّير تظهّر صورتها في مقابله؛ فاختلقوا واحداً برفع صورة مسلية عن الغرب – فلم يصوّروا حضارة مميزة بازدهارها النسبي وحريّتها وإنما بالعرقية والجريمة والمخدّرات والبطالة والاستغلال. وفي الشؤون العالمية، ندّدوا بالغرب على أنه إمبريالي وعدواني، يسلب البلدان الأقلّ تقدّماً لجني المنافع لشركاته المتعدّدة الجنسيات. حظيت هذه الأضاليل بقبول العديدين في أنحاء نائية من العالم. ففي النهاية، خضع معظم إفريقيا وآسيا والشرق الأوسط مدّة طويلة للهيمنة الاستعمارية؛ وضخّت الموارد الطبيعية لهذه المناطق واستُخرجت وجنيت دون أن يعود على الشعوب المحلية فائدة كبيرة. مع ذلك فشلت الشيوعية لأن أفكارها لم تنجح عند التطبيق العملي. وفي أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، لم يعد باستطاعة القادة الشيوعيين الادّعاء بأنهم يشكلون مجتمعات تسودها المساواة أو ينشئون محطّات طاقة اقتصادية "تدفن" الغرب. عندما بدأ النظام بالانهيار، تمّ ذلك بسرعة كبيرة.

خلافاً للماركسين لا يدّعي قادة القاعدة وحلفاؤها طرح فلسفة اقتصادية متماسكة؛ ولايعدون اتباعهم بأعمال أفضل، أو رعاية صحية، أو بيوت – على

الرغم من أن بعض الإرهابيين الناشطين تشاجروا بشأن مثل هذه البنود. ولا تقصد القاعـــدة أن تكون كل شيء لكل الناس، فهدفها هو السيطرة على أحد الأديان. وخلافـــاً للثورة الروسية عام 1917، لا تدير القاعدة أي حكومة أو أرضاً محدّدة؛ لكـــنها على غرار الشيوعية، تمكّنت من اجتذاب الدعم لأنها تفسّر المعاناة وتوجّه الغضب نحو أهداف تستحقّها كما يبدو لبعض الأشخاص على الأقلّ.

إن أقوى مقولات القاعدة هي أن المسلمين يتعرّضون للهجوم في كل مكان، وأن مـــن واجـــب المـــسلمين الصالحين الرد بالقتال. ويقارن الإرهابيون القوات الأميركية في أفغانستان والعراق بحشود المغول التي اجتاحت هذه المناطق في القرن الـــثالث عـــشر، وأنـــزلت الخراب بالسكان، ونهبت كنوز المسلمين، ودمّرت المساجد. ولا يؤمن بهذه الأطروحة - أي أن الإسلام يتعرّض للهجوم - المتطرّفون وحـــدهم؛ بل على العكس، أصبح هذا الأمر قريباً من الحكمة التقليدية في الدول العـــربية وذات الغالبـــية الإســـلامية. ولا يُعتقد أن المسلمين مهدّدون من القوات الأميركـــية فحسب، وإنما من الصهاينة الذين تسلّحهم الولايات المتحدة في الشرق الأوســـط، ومن الأنظمة المتواطئة في القوقاز، وآسيا الوسطى، وكشمير، والصين، والبلقان، وإندونيسيا، والفيليبين، وتايلاند، وأنحاء من إفريقيا. والأكثر إذلالاً كما يُـــزعم أن العالم العربي تقوده حكومات مرتدّة باعت أنفسها لأميركا أو اعتنقت إيديولوجيات ملحدة مثل البعثيين في سوريا أو العلمانيين في تركيا - إيديولوجيات علـــى نقـــيض مـــع النسخة الإسلامية عن "المدينة على جبل" أو "الأمة الواحدة الخاضـــعة لله". وتُعتبر القيم الثقافية الإسلامية أيضاً معرّضة للخطر بانتشار النفوذ الغـــربي الـــذي يُنظر إليه بأنه مادّي، وإباحي، وسطحي. وتسود هذه الصورة عن العـــالم على وجه الخصوص في أوساط الشبّان القلقين والعاطلين والذين يشعرون بالمرارة.

الـــرئيس بوش مولع بالقول إن القاعدة ترتكب الأعمال الإرهابية لأنها "تكره الحرية". وقد ردّ أسامة بن لادن عليه بقوله إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم تهاجم القاعـــدة "الـــسويد على سبيل المثال". وهو على غرار الرئيس بوش يرسم صورة الصدام بين المُدافع الخير والمعتدي الشرّير، ولكن مع عكس الأدوار. في سنة 2004،

خلصت إحدى الهيئات الاستشارية لوزارة الدفاع إلى أن "المسلمين لا 'يكرهون حرّيتنا'، وإنما يكرهون سياساتنا". وأفادت الهيئة بأن "الأعمال الأميركية وتسلسل الأحداث أدّت إلى زيادة سلطة المتمرّدين الجهاديين والميل إلى التصديق على شرعيتهم في أوساط المسلمين. وما كان شبكة هامشية تحوّل اليوم إلى حركة تمتدّ على اتساع المجتمع". ومثلما كانت الشيوعية تجتذب فقراء العالم كوسيلة لتحدّي لغرب، لم يعد كثير من الناس يحكمون على القاعدة على أساس من هي بقدر من هو الذي تقاتله.

ولكي يضفي قادة الإرهابيين قوة عاطفية على قضيّتهم، فإنهم يرجعون إلى أيام محمّد، عندما أعلن المحاربون المسلمون عن إيمانهم وأبعدوا المنافقين والكفّار. وشكلت أحداث 9/11 اختراقاً نفسياً يُحتفى به بأنه "الغزوة المباركة التي حطّمت الأميركيين الكفّار الحمقى ودفعت العديد من الشبان إلى الاستيقاظ من سباتهم العميق". وفي الوقت المنقضي منذ ذلك التاريخ، ارتفعت وتيرة التفجيرات الانتحارية ارتفاعاً عظيماً؛ وازداد عدد المجموعات التي تمارس هذه الأعمال المقيتة من ستّ إلى أكثر من ثلاثين.

لقد حان الوقت كما يقول الإرهابيون لكي يظهر المسلمون الصادقون أنفسهم عبر أعمالهم ويحجزوا لهم مكاناً في الجنة بالمشاركة في الجهاد المقدّس. ويُستغرى المحاربون المحتملون بوعدهم بالمتع الدنيوية وتوقّع السماح لهم باختيار سبعين صديقاً وفرداً من أفراد العائلة للانضمام إليهم في الجنة. هذه العقلية الساذجة تصبح أخطر بكثير بحصولها على تقانة القرن الواحد والعشرين. فثمة آلاف المواقع على الإنترنت التي تمجّد مآثر "الشهداء"، وتنتحب على تحويل المسلمين إلى ضحايا، وتجتذب مجندين جدداً. وهكذا تعلن إحدى المجلات على الإنترنت، "أخي المجاهد، ليس عليك السفر إلى بلاد أخرى للانضمام إلى معسكرات التدريب العظيمة. يمكنك بمفردك في بيتك أو مع مجموعة من إخوانك، البدء بتنفيذ برنامج التدريب". وعلى غرار مشجّعي كرة القدم، وجامعي القطع النقدية، يتجمّع الجهاديون في مجتمعات افتراضية متعدّدة الجنسيات لتقاسم الحماسة المشتركة لديهم. وينمو الفضول بالنسبة لبعضهم، إلى التزام بالعمل. ويمكن أن تتمّ

الارتـباطات بـشبكة مجـندي الإرهابيين الغامضة التي تعمل في أنحاء من الشرق الأوسط وجنوب آسيا ووسطها، وشمال إفريقيا، وأوروبا، وفي أميركا بالتأكيد.

منذ 9/11، ألحقت الجهود المضادّة للإرهاب بقيادة الولايات المتحدة أضراراً فادحـة بشبكة القاعدة. فقد قُتل عشرات القادة أو ألقي القبض عليهم، وفكّكت معـسكرات الـتدريب، وأغلقت الخلايا، وأحبطت هجمات مزمعة. وأصبحت الاتصالات الآن أكثر صعوبة، وصار على المتآمرين العمل بحذر شديد. وكما قال الرئيس بوش، "عندما يمضي الإرهابيون أيامهم ولياليهم في السعي لتجنب الموت أو الاعتقال، يصبحون أقلّ قدرة على التسلّح والتدرّب والتخطيط لهجمات جديدة". لكـن يظهر على نحو مخيف أن المتطوّعين يتقدّمون ليحلّوا محل الذين ألقي القبض عليهم أو أجبروا على التواري. ففي تشرين الثاني/نوفمبر 2005 على سبيل المثال، غـادر المتمرّدون للمرّة الأولى العراق لتوجيه ضربة إلى الأردن، حيث قتلوا سبعة وخمـسين شخـصاً محتشدين في حفل زفاف في أحد الفنادق. ووفقاً لتقييم أجرته وكالـة الاسـتخبارات المركزية، ربما يثبت العراق أنه أرضٌ أكثر فعّالية لتدريب الإرهابيين مما كانت عليه أفغانستان في الثمانينيات من القرن الماضي، إذ إن العراق يشكل مختبراً حقيقياً للقتال في المدن. ويخشى الخبراء من تدريب كوادر الإرهابيين القـادمين من دول كثيرة على الاغتيال والخطف وصنع القنابل ومهاجمة الأهداف الحـصينة. ويقـول كلـود مونيكيه، المدير العام للمركز الأوروبي للاستخبارات الاسـتراتيجية والأمـن، "إننا ننتظر الآن ظهور جيل جديد من الإرهابيين؛ أولاد كانـوا بـين الثانية عشرة والخامسة عشرة من العمر في 11 أيلول/سبتمبر 2001، ولـزمهم سنة أو اثنتين لتحقيق التقدّم الإيديولوجي نفسه الذي يقود إلى العنف، والذي استغرق الأجيال الأكبر منهم عشر سنين أو أكثر".

إذا أريد إلحاق الهزيمة بالقاعدة وحلفائها، يجب بصراحة إغلاق خط التجميع هـذا. ويتطلّب ذلك انتصاراً سياسياً حاسماً مثل الانتصار الذي حقّقته الديمقراطية على الشيوعية.

ثمـة ميزة في امتناع أي حكومة على الأرض عن احتضان القاعدة صراحة. ومـن أسـباب ذلك أن القاعدة تريد أن تستبدل نظام الدول الوطنية القائم حالياً

بحكومة دينية واحدة - خلافة - تحظى بولاء المسلمين جميعاً. ومن النادر أن يدعم نظام حلّ نفسه. غير أن روغان القاعدة ومرونتها تعادل هذه الميزة. ففي أثناء الحرب الباردة، كان بوسعنا قياس تقدّمنا على خريطة توضح من هي الدول التي تنتمي إلى الكتلة السوفياتية، والدول المنتمية إلى العالم الحرّ، والدول غير المنحازة إلى أي منهما. أما قياس التقدّم اليوم فليس بسيطاً مثل إعداد لائحة بالأشرار وشطب كل من يقتل أو يلقى القبض عليه منها. فثمة مجندون جدد ينضمّون إلى شبكة تزداد اتساعاً وانتشاراً، حيث تتشكل مجموعات تلهمها القاعدة لكنها لا تعتمد عليها للحصول على التوجيه أو الموارد. وكما اشتكى دونالد رامسفيلد، "إننا نفتقر إلى المقاييس لنعرف إذا كنا نربح الحرب العالمية على الإرهاب أم نخسرها. هل نعتقل من الإرهابيين أو نقتلهم أو نردعهم وتثنيهم أكثر مما يجند منهم رجال الدين المتطرّفون ويدرّبون وينشرون ضدّنا"؟ يذكّرني سؤال رامسفيلد "بالأفاعي والسلالم"، وهي لعبة لعبتها وأنا طفلة وألعبها اليوم مع أحفادي؛ فعندما تظن أنك متقدّم تسقط على أفعى وتنزلق إلى أسفل، ويتعين عليك أن تبدأ التسلّق ثانية[1].

في العقد الماضي، استثمرت الولايات المتحدة مليارات الدولارات لإعادة هيكلة هيئات الاستخبارات، وتدريب قوات الأمن، وتحسين قدرات المراقبة في الخارج، وتعزيز الدفاع عن الوطن. وكل ذلك ضروري؛ بل يجب فعل المزيد. غير أننا في الحقيقة لم نتوصّل إلى أفضل السبل لمواجهة التهديد الإرهابي. فالتطبيق التقليدي للقانون غير كاف، في حين أن النظريّات العسكرية عن النزاع المنخفض الشدّة والقتال غير المتكافئ غير ملائمة. وقد سعى الناطقون باسم الإدارة إلى طمأنتنا بالإشارة إلى أعداد قادة القاعدة الذين قتلوا أو ألقي القبض عليهم. لكن ما مغزى ذلك، كما تسأل مذكّرة رامسفيلد؟ القاعدة ليست عصابة إجرامية يمكن القبض عليها في الطرقات أو جيشاً يمكن سحقه في ميدان القتال. إنما تشبه

(1) نشأت لعبة الأفاعي والسلالم قبل قرون عديدة في الهند. وفي هذه اللعبة الهندوسية، ترتبط كل أفعى بخطيئة (مثل السرقة أو الكذب) ويرتبط كل سلّم بفضيلة (الصبر، الرزانة ويرمز الوصول إلى النهاية إلى السعي للفوز بالجنة أو نيرفانا. وتفتقر النسخا الاحداث التي اعيدت تسميتها "المزالق والسلالم" إلى هذا البعد الأخلاقي.

فيروساً ينتشر من شخص مصاب إلى آخر، ويصبح أكثر وبالاً مع كل "إثم" - حقيقي أو مزعوم - ترتكبه الولايات المتحدة.

ويستتبع ذلك أن على القادة الأميركيين أن يقلّلوا من الأعمال التي يستطيع الإرهابيون استغلالها لكسب المنضوين، لكننا نجد صعوبة في القيام بذلك. فقد أدّت هجمات 9/11 إلى إثارة غضبنا الجماعي، ويضيف مشهد الأعمال الوحشية التي تُرتكب ضدّ الجنود الأميركيين والمدنيين العراقيين مزيداً من الحدّة إلى مشاعرنا. الإرهابيون يريدون إثارتنا، وهم ينجحون في ذلك. لننظر في المشاعر التي عبّر عنها عقيد متقاعد في الجيش الأميركي، فيما كان يتحدّث أمام منتدى الدين والأمن في واشنطن في خريف سنة 2004:

> علينا في إحدى الجبهات... أن نلقي القبض على أكبر عدد ممكن من الأعداء ونقتلهم، ونظهر لهم أننا أكبر قوة في العالم وأبغضها وأشرسها، وما من شيء يمنعنا من تحقيق مهمتنا... وفي الجبهة الأخرى أن نستهدف القادة بشكل غير مباشر. علينا... أن نفصلهم عن الأشخاص الذين يتبعونهم، وأن نجعل قاعدة دعمهم الداخلية تنهار. علينا أن ننقل هذه الحرب ذات الجبهتين إلى الهجوم... في كل أنحاء العالم. وعلينا محاربة الإسلام المتشدّد والراديكالي... من إفريقيا إلى جنوب شرق آسيا، وأميركا الوسطى والجنوبية وأوروبا الشرقية.

أتوقّع أن يتقبّل العديد من الأميركيين هذه الكلمات. وقد شاركت في عشرات من الاجتماعات عن الإرهاب منذ 9/11 ولم أسمع من أحد شيئاً غير أن ردّنا يجب أن يكون قاسياً؛ لا شك في أن الهدفين اللذين حدّدهما العقيد - النجاح العسكري وعزل الأشرار - صحيحان تماماً. ففصل نواة الإرهابيين الصُّلبة عن قاعدة دعمها أمر ضروري، لكن كيف نفعل ذلك؟ بمحاربة "الإسلام المتشدّد والراديكالي" أينما كان؟ تلك وصفة لإنهاك جيشنا، وزيادة نفور الرأي العام العالمي، وإحياء المزاعم بأننا نريد إعادة خوض الحروب الصليبية. إن ذلك هدف واسع جداً حقاً.

هناك ملايين المسلمين الناشطين سياسياً والمؤمنين بالتفسير الضيّق للإسلام. ومعظم هؤلاء الأشخاص مناهضون للغرب، وغير ديمقراطيين في تفكيرهم

ومرعوبون من الوجود الأميركي في العراق، ومعادون لإسرائيل، وتوّاقون إلى فرض آرائهم الأخلاقية على الآخرين، على الرغم من أنهم مختلفون لولا ذلك؛ لكنهم لا يكونون إرهابيين إلا إذا ارتكبوا أعمالاً إرهابية أو سهّلوها. وعلينا مجادلة أخصامنا الإيديولوجيين بكل الحجج المتاحة لنا، لكن لا داعي لأن تهاجم حكومتنا الآخرين استناداً إلى معتقداتهم. ومثلما لم نطلق النار على الشيوعيين لأنهم شيوعيون، لن نعرف السلام قطّ إذا وقعنا في شرك اعتبار كل مسلم ذي آراء سياسية غير مقبولة عدوّاً أخلاقياً. إن عدوّنا ليس الإسلام أو أي شكل من أشكال الإسلام، بل عدوّنا القاعدة وكلّ أشكالها. أما بالنسبة إلى الشعار الجسور بأن الجيش الأميركي كبير وبغيض وشرس و"لن يوقفه شيء"، فإنه ليس الطريقة لإقناع الغالبية الصامتة الإسلامية بالوقوف في وجه الإرهاب. بل على العكس من ذلك، مثل هذا التفاخر يمكن أن يوفّر الدعم إلى تأكيد الإرهابيين بأن لديهم الحقّ أيضاً "ألا يوقفهم أي شيء".

سيهزم الإرهاب على طريقة القاعدة عندما يفهم الأشخاص الأشدّ ميلاً إلى تصديقها أن مقولاتها المركزية ما هي إلا أكاذيب. لا يمكننا أن نتوقّع ممن يرون أنفسهم بأنهم حماة للإسلام أن يتخلّوا عن الصورة التي رسموها لأنفسهم. لكن يمكننا الأمل بإقناع مزيد منهم بأن مهاجمة الأبرياء في الحافلات والقطارات والطائرات ليست طريقة للدفاع عن الإسلام. ويجب ألا يكون إيصال هذه الرسالة صعباً. فقتل المدنيين والأطفال والمسلمين الآخرين باسم الإسلام مزيج غني جداً من النفاق والهرطقة. غير أن الاتصالات عبر الخطّ الثقافي الفاصل بائسة. ووفقاً لدراسة رعتها وزارة الخارجية، "المشكلة الحاسمة في الدبلوماسية الأميركية العامة تجاه العالم الإسلامي لا تتعلّق 'بنشر المعلومات' أو حتى صياغة الرسالة 'الصحيحة' وتقديمها. بل هي مشكلة مصداقية بالدرجة الأولى. فليس هناك أي قدر منها – لا يوجد للولايات المتحدة اليوم أي قناة اتصال عاملة مع عالم المسلمين والإسلام".

ما الذي أحدث هذا الانهيار؟ عندما تحدّث العقيد عن مهاجمة "الإسلام المتشدّد والراديكالي كان في ذهنه الوحوش البشرية في العراق وفي مكان آخر الذين يقطعون رؤس الابرياء وينسفونهم. وبالإمكان فهم غضبه، فكلّنا نشاركه

أيــاه. لقــد أدان القادة المسلمون المسؤولون في كل أنحاء العالم قتل الأبرياء بهذه الطــريقة أو غيرهــا. لكـــن العديد من المسلمين يركّزون أيضاً على وجوه غير المحـــاربين، ومـــن بيـــنهم نـــساء وأطفال، الذين يُقتلون عرضاً في أثناء العمليات العـــسكرية الأميركية. ويقدّر عدد المدنيين الذين قتلتهم قوات الائتلاف في العراق بـــين 30.000 و100.000. وإذا أخذنا في الحسبان أيضاً الآلاف الذين جرحوا، أو دمّرت بيوتهم، أو اضطربت حياتهم بسبب العمليات العسكرية الأميركية، يجب ألا نعجب من المواقف المريرة التي نشأت.

ويـــوجد في ذهن المسلمين أيضاً سوء معاملة السجناء في العراق وأفغانستان وغوانتنامو. لا شيء يمكن أن يقدّم عذراً للإساءات في أبو غريب ومرافق الاعتقال الأميركية الأخرى. ربما يرى بعضهم أنها لا تترك أثراً كبيراً على مقياس الاعتداءات الوحـــشية التي ارتكبها الإنسان على مرّ العصور، ولا تقارن بالكثير من الفظاعات الـــتي ارتكبـــتها القاعدة والمتمردون العراقيون. غير أن هناك سبباً يبرّر لماذا وصف وزير خارجية الفاتيكان فضيحة السجن "اعتداء على الله" و"ضربة أشدّ خطراً على الولايات المتحدة من 9/11".

مـــن الأسهل التفكير في قضية التعذيب من حيث المبدأ أكثر من الممارسة. فمن يذكـــر مـــنا فيتنام يذكر أيضاً مطالب السلطات الأميركية بأن تلتزم فيتنام الشمالية باتفاقيات جنيف فيما يتعلّق بمعاملة أسرى الحرب. ومنذ أن جعل جيمي كارتر حقوق الإنـــسان أولوية للولايات المتحدة، ووزارة الخارجية تنتقد بشدّة الحكومات الأجنبية على احتجاز السجناء سرّاً، أو حرمانهم من الإجراءات القانونية، أو رفض السماح لهم بالاتصال بالمنظمات الإنسانية. ووفقاً للرئيس بوش، فإن إساءة معاملة السجناء ليست الطريقة التي تتّبعها في أميركا. لكن الحقيقة أكثر تعقيداً. ففي أعقاب 9/11 على وجه الخـــصوص، لم يكن المسؤولون الأميركيون في مزاج يسمح لهم باتباع الدقّة القانونية، ولم يفعل الرأي العام الأميركي الكثير لمساءلتهم على ذلك. فقد أنتج غضبنا من انهيار الـــبرجين سؤالاً ضمنياً: لمَ لا نلحق الألم بالأعداء الذين يريدون تدميرنا، وبخاصة إذا كـــان القيام بذلك يتيح لنا الحصول على معلومات يمكن أن تنقذ حياة الأبرياء؟ فقد اســـتخدمت الـــسلطات في الفيليبين كما يقال التعذيب قبل عقد من الزمن لإجبار

المشبوهين على الكلام، وأحبطت بالتالي مخطّطاً لخطف الطائرات. كما أن الثقافة الشعبية تحترم كثيراً الشخصية التي جسّدها جون واين أو كلينت إيست وود: الرجل الصُّلب الذي يجعل الأشرار يدفعون الثمن دون اعتبار للقوانين.

في سنة 2005، استخدم بطل المسلسل التلفزيوني الشهير "24" التعذيب مراراً للحصول على معلومات لحماية أميركا من الهجمات الإرهابية. وفي هذا المسلسل، صُوّر الرئيس بأنه ضعيف عندما رفض إجازة التعذيب. وعندما احتجّ على ذلك أحد المحامين المدافعين عن حقوق الإنسان، أظهر بأنه مغفّل وشرّير. وهيّئت الظروف لصالح التعذيب: كان الشخص المُساء إليه شرّيراً بشكل واضح، والمعلومات المكتومة حيوية، والوقت مهم، والمعذِّب، الوسيم والشجاع، "يؤدّي عمله فحسب". إذا وضعنا ألاعيب التلفزة جانباً، يستطيع العديد منا - إذا كنا صادقين مع أنفسنا - أن يتصوّر على الأقلّ ظروف الحياة الواقعية التي يبدو فيها استخدام التدابير القسرية لاستخلاص المعلومات مبرّراً.

اجتذب هذا السؤال، منذ 9/11، الكثير من اهتمام الخبراء في الأخلاق والقانون. فأثار الأستاذ ألان ديرشوفتز من جامعة هارفرد الانزعاج بالدعوة إلى نظام يمكن فيه أن يجيز قاضٍ التعذيب، مثل التنصّت، عندما يقدّم إليه سبب موجب[1]. ومن غير المرجّح أن تتقدّم مثل هذه الفكرة بعيداً. فأميركا، على غرار معظم البلدان، تدين التعذيب. وفي 2003 و2004، ظهرت مذكّرات عن وزارة العدل يبدو أنها تضفي الشرعية على التعذيب، لكن سرعان ما نأت إدارة بوش بنفسها عن ذلك التفسير. وسنبقى من حيث المبدأ معارضين ثابتين للتعذيب. أما في الواقع فقد تكون مشاعرنا مختلطة.

هذا ليس جيداً بالقدر الكافي. وعلينا أن نفكّر في القضية مليّاً. أولاً، الحياة الواقعية لا تشبه مسلسل "24". فمن الوهم الاعتقاد بأن التعذيب وسيلة فعّالة على

(1) لا يدعو ديرشوفتز إلى التعذيب. بل يرى بدلاً من ذلك أن من المرجّح أن تنخرط السلطات في ممارسته في الحالات القصوى ومن الأفضل لها أن تفعل ذلك في إطار نظام قانوني من أن تفعله خارجه. وقد كتب في جريدة "لوس أنجلس تايمز" في 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2001، "إذا كنا سنمارس التعذيب، فيجب أن يجيزه القانون".

العمـــوم للحصول على معلومات دقيقة. ربما ينجح التعذيب أحياناً، لكنه لا ينجح عادة. فقد لاحظ نابليون قبل أكثر من مئتي عام أن "العادة البربرية التي تتيح ضرب الرجال المشبوهين لأنهم يخفون معلومات سرية يجب إبطالها. فطالما اعتُرف بأن هذه الطريقة لاستجواب الرجال، بتعذيبهم، لا تنتج شيئاً مجدياً".

ثانياً، هذا الجدال، كما رأى جون مك كين، لا يتعلّق بشاكلة أعدائنا، وإنما بـــنا نحن. فإذا علّلنا التعذيب تعليلاً منطقياً أو وضعنا استثناءات في ظروف خاصة، فـــسيفعل الجميع ذلك. وستشير الحكومات التي تسيء إلى السجناء بشكل روتيني إلى الولايات المتحدة لتبرير أعمالها. وسيضعف موقفنا المصرّ على المعاملة الإنسانية للأميركـــيين في السجون الأجنبية. وستُعرف أميركا بأنها بلد يعذّب الناس أو يهيّئ للآخرين القيام بذلك. لأي غرض؟ لهزيمة الإرهابيين؟ سيكون التأثير معاكساً تماماً. لقد أبقى غوانتنامو بعض الإرهابيين من صفّ 2002 عاطلين، ولكن على حساب توسيع صفّ 2006 إلى حدّ كبير. كان يجب إغلاق مركز الاعتقال هناك منذ زمن طـــويل. أمـــا بالنسبة إلى أبو غريب، فقد كان أكبر هدية يمكن أن يتلقّاها دعاة القاعدة.

إن مـــا يثير الرعب بشكل غير عادي أن العديد ممن أسيئت معاملتهم أبرياء علـــى مـــا يبدو أو ليسوا في موقف يتيح لهم معرفة الكثير. وثمة بشاعة شديدة في مشهد الحرّاس الأميركيين وهم يفعلون أقصى ما بوسعهم لإذلال الرجال العرب أو إيـــذائهم لأن لديهم القدرة على القيام بذلك ولأنهم بحاجة إلى التسلية. وفيما كان معظم الجنود الأميركيين يسعون لبناء جسور التفاهم والصداقة مع المسلمين، كان الحرّس والمستجوبون - ومن أصدر إليهم الأوامر - يظهرون ازدراء للثقافة العربية وحقـــوق الإنـــسان الأساسية. ويبدو أن أفعالهم مصمّمة لمفاقمة شعور العديد من المسلمين بأنهم ضحايا يخضعون للهجوم.

من الصعب علينا نحن المؤمنين بصلاح أميركا الاعتراف بالأخطاء، لكن هذه الإساءات خطيرة ولا يمكن إصلاحها بعقوبات خفيفة توقّع على أصحاب المراتب الدنـــيا مـــن سلسلة القيادة. يجب أن تتمّ مساءلة القيادة العليا، وإلا سيصبح من المـــستحيل فعليّاً علينا تلطيف التصوّر السلبي جداً الذي كوّنه العديد من المسلمين

عن الولايات المتحدة. فمنذ ظهور الصور الفوتوغرافية الأولى عن أبو غريب، وزّعت كرّاسات في المجتمعات العربية تظهر هذه الصور المخزية إلى جانب صور الأطفال الفلسطينيين والعراقيين الموتى. وينصّ العنوان فوق الصور، "أين هم الرجال؟ من سيثأر لكرامتنا"؟ وأخشى في منطقة ذات ذاكرة طويلة أن تذكي هذه الصور العنف ضدّ الأميركيين على مدى أجيال قادمة.

أعرف من التجربة أن عسكريينا يبذلون جهوداً مضنية لتجنب وقوع إصابات بين المدنيين. وفي الوقت نفسه، يستطيع القادة السياسيون أن يزجّوا بقواتنا المسلحة في أوضاع يكون وقوع إصابات كبيرة فيها بين المدنيين أمراً محتوماً. ويمكن أن تحوّل النتيجة النجاح العسكري إلى هزيمة سياسية. وكما في فيتنام، ربما تمّ كسب المعارك، لكن لم تُكسب الحرب. وبدون استراتيجية سياسية فعّالة، لا تستطيع الولايات المتحدة إلحاق الهزيمة بالقاعدة.

يجب أن تبدأ تلك الاستراتيجية بالثقة. فليس لبن لادن وأتباعه بضاعة حقيقية يعرضونها على أحد. لقد منحتهم هجمات 9/11 الرؤية وأتباعاً لا يستحقونهم ولن يكون بوسعهم المحافظة عليهم إذا لم نرتكب مزيداً من الأخطاء. من واجبنا تسليط الضوء على عدميتهم ووحشيتهم وأكاذيبهم. وإذا قمنا بذلك، فسنجتذب في النهاية الدعم الذي نحتاج إليه. غير أن الثقة لا تقدّم عذراً للرضى. وعلينا مناقشة حجّتنا أمام أصعب جماهير المستمعين.

خلصت اللجنة الوطنية الأميركية بشأن هجمات 9/11 إلى ما يلي:

> إن بن لادن والإرهابيين الإسلاميين يعنون بالضبط ما يقولون: أميركا بالنسبة إليهم هي أصل الشرّ، و"رأس الأفعى"، ويجب أن تهتدي إلى الإسلام أو تدمّر. وهي ليست في موقف يتيح للأميركيين المساومة أو التفاوض. ولا يوجد معها أي أرضية مشتركة – ولا حتى احترام للحياة – يبدأ عليها الحوار. ولا يمكن إلا تدميرها أو عزلها تماماً.

اللجنة محقّة دون ريب في وصف بن لادن وصحبه بأنهم يستعصون على العلاج، ومع ذلك فإن اللجنة تبلغنا بأن قرار شن هجمات 9/11 لم يتخذ بالإجماع. فقد [illegible] أن الملا عمر، زعيم طالبان، عارض ضرب الولايات

المتحدة مخافة انتقامها. وأيد المدير المالي للقاعدة موقف الملا عمر. وقال العالم الديني الأبــرز في القاعــدة إن الهجمــات مخالفة للقرآن. وقد افترق المعلّم الروحي لأبي مــصعب الزرقاوي، زعيم المتمرّدين الأجانب في العراق، عن أبي مصعب بسبب قــضية التفجيرات الانتحارية ضدّ المدنيين. لا تعني هذه الاختلافات في الرأي أن على الغرب السعي "للتفاوض" مع القاعدة، بل تعني أن هناك تنوّعاً في الآراء ضمن شبكات الإرهابيين، ويجب علينا أن نبذل ما في وسعنا لاستغلاله.

إن كــثيراً مــن المجندين كإرهابيين، وربما معظمهم، لا يصغون للحجج القانونــية أو مناشــدات الــضمير، لكن يبقى بعضهم "فاعلين عقلانيين" كما تعلّمت وصفهم في الجامعة. وقد يكون من الممكن إقناعهم بأن قتل غير المحاربين يــسيء إلى الإسلام بدلاً من أن يحميه، أو ربما يصعب عليهم أكثر من غيرهم تــرك العائلة والأصدقاء، أو يمكن أن يكونوا مدفوعين بأهداف محلية بالدرجة الأولى وليس لديهم اهتمام كبير مهاجة الولايات المتحدة أو الغرب بأكمله. بل إن بعضهم قد يتأثّر بعروض العمل أو غيرها من المنافع المادية. ولا يساعدنا البتّة أن نعامــل شبكات الإرهاب ككتلة واحدة متراصّة. فهم على غرار المجموعات الأخرى يضمّون أفراداً يجب عدم التخلّي عنهم دون كفاح. ففي اليمن، تحدّى العلماء الإسلاميون منذ سنة 2002 أعضاء القاعدة المسجونين لمناقشة تكتيكاتهم علــى ضــوء القــرآن، وأقنعوا أكثر من 350 منهم بنبذ العنف والتعاون مع الــسلطات. ويوضــح القاضي حمود الحيتار، الذي فكّر في هذا المسعى، الأمر قــائلاً، "إذا درســت الإرهاب في العالم، فستدرك أن ثمة نظرية فكرية وراءه، ويمكــن بالفكــر هزيمة أي نوع من الأفكار العقلية". بعبارة أخرى، إن أفضل طريقة لإلحاق الهزيمة بفكرة رديئة هي مواجهتها بفكرة حسنة.

من المهم أن الإسلام يشدّد كثيراً على القانون. ففي سنة 2005، عقد 180 عالماً مسلماً من خمسة وأربعين بلداً (منها الولايات المتحدة) يمثّلون ثماني مدارس فكــرية إســلامية مؤتمراً عن "الإسلام الحقّ" في عمّان. وكان هدفه التشكيك بمــصداقية المتحمّــسين الذين يصدرون الفتاوى دون أن يكونوا مؤهّلين للقيام بــذلك، ويسعون إلى تبرير العنف ضدّ المسلمين الآخرين بالتقليل شأن الضحايا

باعتبارهم مرتدّين. وقد سعى العلماء إلى ردّ التجاوزات التي يرتكبها الإرهابيون عليهم وتطبيق الشرع الإسلامي بطريقة تكشف الفجوة المتوسّعة بين ادّعاءات الإرهابيين المقدّسة وأفعالهم غير المقدّسة. وفي النهاية، هذه هي الطريقة لهزيمة الإرهاب، بتوحّد المسلمين الحقيقيين لحماية الإسلام من المجرمين الذين يحاولون أن يسرقوه.

إن مواجهة القاعدة تتطلّب كل الأدوات المتوفّرة للسياسة الخارجية، بما في ذلك أجهزة الاستخبارات والجيش. فلا شك في أنه ستأتي أوقات تسنح فيها فرصة انكشاف أهداف إرهابية ويجب عندئذ استخدام القوة المميتة. لكن من الخطأ الاعتقاد بأن الإرهاب تهديد عسكري بالدرجة الأولى. فلو كان كذلك، لانهزم منذ زمن طويل. إنه تحدٍّ سياسي ونفساني بالدرجة الأولى ويجب مواجهته بتعابير سياسية ونفسانية. فما من شيء تفعله الولايات المتحدة سيخفّف الكراهية التي يشعر بها بعض العرب والمسلمين، لكن ليس من الضروري تغيير تفكير الجميع.

ووفقاً لفاكلاف هافل، "لم تهزم الشيوعية بالقوة العسكرية، وإنما بالحياة، والروح الإنسانية، والضمير ومقاومة التلاعب بالبشر". بعبارة أخرى، هُزمت لأن من يواجهونها تمكّنوا من استجماع النواحي الأفضل للطبيعة البشرية لكشف أكاذيبها وإنهاكها. مع ذلك، ربما ينجح الإرهابيون أحياناً في اختراق الحواجز المصمّمة لدرئهم. لكنهم لن يتمكّنوا من النجاح قطّ، ما لم نسمح لهم، بفصلنا عن القيم التي تحمل مفتاح سقوطهم ونجاحنا على المدى الطويل.

لقد عُرضت نهاية الحرب الباردة على التلفزة. وفي أثناء جلوسي في مكتبي، شاهدت طلاباً يرقصون على الحطام العظيم لجدار برلين والحشود الصاخبة المحتفلة في العواصم الحرّة الجديدة لأوروبا الوسطى والشرقية. وأذكر على وجه الخصوص فرحتي بمشهد في ساحة ونسلاس ببراغ، حيث قبل فاكلاف هافل وغيره من أبطال "الثورة المخملية" الدعوة إلى قيادة تشيكوسلوفاكيا إلى زمن الاستقلال والحرية. حدّثت نفسي في ذلك الوقت قائلة، "قُضي الأمر، الحمد لله".

كيف يمكن أن تنتهي مواجهتنا مع الإرهاب؟ بشكل مختلف تماماً، كما يفترض المرء. قد تقع أحداث مثيرة. ربما عندما يجد هذا الكتاب طريقه إلى

النشر، نشهد القبض على بن لادن أو وفاته. وفي العراق، ربما يصبح الزرقاوي شيئاً من أخبار الماضي. لا شك في أنه ستتواصل الهجمات، والاعتقالات، وأعمال التفكيك. لكن من غير المرجّح أن نشهد ما يكافئ الاحتفال في ساحة ونسلاس. وأشك في أن نتمكّن من تشغيل تلفزاتنا ذات يوم ونقول، "قضي الأمر". ففي أسوأ الحالات سنشهد قرع طبول الهجمات المتواصلة (ربما تشمل بعضها أسلحة بيولوجية أو نووية) ضدّ لائحة متوسّعة من الأهداف. وربما نشهد تحوّل مزيد من المناطق، وقد تكون بلداناً بأكملها، إلى ملاذات للتطرّف العنيف. ويمكن أن نشهد انقسام الإسلام بين أتباع دين مسالم وأولئك الذين سمّمت الكراهية عقولهم.

وسنشهد العكس في أحسن الحالات: انخفاضاً في عدد الهجمات، وتقلّص المناطق التي يحظى فيها الإرهاب بالدعم، ورصّ الصفوف عند المسلمين. وإذا حدث ذلك، فستنتهي مواجهتنا بحدث مخيب للآمال: سيصوّر بن لادن أو خليفته فيلم فيديو يهدّد فيه بحرقنا، ولن يعرضه أحد، لأن الإرهابيين يفتقرون حتى إلى قدر يسير من التأييد الشعبي. هل سنصل إلى هذه المرحلة؟ لن تتّضح الإجابة عن هذا السؤال إلا بالتدريج وستستند إلى الأحداث في منطقة واسعة تمتدّ من أرخبيل الملايو إلى جبال القوقاز إلى ساحل شمال إفريقيا. وسيكون العالم العربي، حيث ظهر الإسلام، المنطقة الأهم، وستكون المملكة العربية السعودية البلد الذي من المرجّح أن يحظى اتجاهه بأكبر الأهمية.

الفصل الرابع عشر

المعضلة السعودية

"إنني خائفة"، قالت إحدى السعوديات في صيف 2004. "فليس هناك رؤية واضحة إلى أين يتّجه بلدي. إننا نريد التقدّم، لكننا نريد أيضاً أن نعيش مثلما عاش المسلمون الصالحون قبل 1.400 سنة. ونريد التغيير، لكننا نعتقد أن التغيير طريق يؤدّي إلى جهنّم. ونريد أن يكون للناس دور في قيادة البلاد، لكننا لا نريد الديمقراطية. ونريد الحوار مع الغرب، لكن وعّاظنا يقولون كل يوم جمعة إن كل الغربيين أو غير المسلمين مصيرهم جهنّم".

لقد أعلن مؤسّس المملكة العربية السعودية وموحّدها الملك عبد العزيز بن سعود في وقت مبكّر من القرن العشرين: "لن تبقى مملكتي إلا بقدر ما تبقى بلداً صعب المنال، حيث لن يكون للأجنبي أي هدف، بعد تحقّق مهمته، سوى الخروج". وأكّد بيان أصدرته العائلة الملكية الحاكمة في وقت مبكّر من القرن الواحد العشرين نقيض ذلك: "إننا جزء من هذا العالم ولا يمكننا الانفصال عنه. لا يمكننا أن نكون متفرّجين فيما يتقدّم ما تبقّى من العالم نحو نظام عالمي جديد".

منذ وقوع هجمات 11 أيلول/سبتمبر، ظهر ما يعادل مكتبة صغيرة من الكتب والمقالات في الغرب ترى أن المملكة العربية السعودية شرّ – هي مكان ولادة الإرهاب الذي يُرتكب باسم الإسلام، ومُحدث له، ومموّله. وكما يوحي الاقتباسان الواردان أعلاه، قد يكون مصطلح "مرتبك" مناسباً أكثر من "شرّ".

لم يحاول أي بلد القفز بشكل فجائيّ إلى العصر الحديث أكثر من المملكة العربية السعودية. وليس هناك سوى قليل من البلدان الأقل استعداداً نفسياً للقيام بهذه القفزة. فالثقافة السعودية متأثرة كثيراً بالوهّابية، وهي حركة سنّية مُتطرّفة في التزمُّت نشأت في القرن الثامن عشر وترسّخت بقوّة عندما فتح آل سعود شبه الجزيرة العربية في عشرينيات القرن العشرين. وسعى مؤيدو المذهب الوهّابي إلى

العودة إلى ما اعتبروه الإسلام الحقيقي الصافي[1]. وفرضوا نوعاً من الزيّ الوطني - الأبيض للرجال والأسود للنساء - ومنعوا الموسيقى، وأفرغوا البلد من كثير من تنوّعها الإقليمي والثقافي. وكانت النتيجة مجتمعاً خاضعاً لسيطرة صارمة تراقب الشرطة المُتديِّنة أماكنه العامة، ويمنع فيه العرض العام للعاطفة (حتى العاطفة العائلية) بين الجنسين، ويحظر الرقص، ولا يسمح للنساء بقيادة السيارة في الأماكن الحضرية. وتتمحور هويّة المملكة على مكانتها كراعية للمسجدين الحرام في مكّة، حيث ولد الرسول، والمدينة حيث توفّي ويوجد قبره. توحي هذه المكانة بالفخر وكذلك بالتشديد على الخضوع. كما أن طقوس العبادة لدى المسلمين الشيعة مقيّدة ومحظورة على غير المسلمين. ولا يمكن دفن البالغين غير المسلمين على التراب السعودي. ويبحث تسعون بالمئة من الكتب المنشورة في السعودية موضوعات دينية، ويتلقّى معظم الخرّيجين الجامعيين شهادات في الدراسات الإسلامية. ولا يوجد في البلد دستور مكتوب غير القرآن[2]. وغاية البلد أن يكون جزيرة للنقاء منفصلة عن ابتذال الغرب وغير ملوّثة به.

ومع ذلك فإن المملكة العربية السعودية تتربّع على ربع احتياطيّات العالم من النفط، وهي نعمة ونقمة في آن معاً جعلت السعوديين على تماسّ حميم ومادي جداً مع البلدان الصناعية. وطالما وفّر النفط مقداراً من الثروة، وقد ضاعفت صدمة الأسعار في السبعينيات من القرن الماضي هذه الثروة مرّات عديدة. ووقّع روّاد الأعمال الغربيون التوّاقون إلى انتهاز الفرصة عقوداً بمليارات الدولارات مع السعوديين في مجالات الإنشاءات والتكنولوجيا والخدمات. وفيما تراكمت أموال النفط، أصبح الأمراء السعوديون شخصيات مألوفة في الملاهي الليلية، يرتدون الملابس العصرية، وترتدي زوجاتهنّ أزياء المصمّمين. وقبل ذلك بعقدين، ربما كان الأمير منهم يعيش في بيت متواضع من الطين، فيه مكان مخصّص لاستقبال عامة

(1) بما أنه أصبح لمصطلح وهّابي دلالات سلبية، يفضّل العديد من معتنقيه أن يدعوا بالسلفيين، أي التابعين الذين يسعون إلى اتخاذ الأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين قدوة لهم.

(2) غير أن السعوديين وضعوا في سنة 1992 "النظام الأساسي للحكم"، وهو مماثل للدستور في بعض الأوجه.

الناس وتلقّي التماساتهم. أما في الحقبة الجديدة، فقد بنى الأمير نفسه قصوراً فخمة ملأها بأغلى الأثاث والأدوات الكهربائية، وأحاطها بأسوار عالية.

هـددت الـثورة الإيرانية في سنة 1979 بإفساد الحفل. فما إن تسلّم آية الله لخميني السلطة، حتى دعا إلى التمرّد على الحكومة السعودية التي وصفها بأنها "غير إسـلامية". وأصبح التهديد حقيقياً في تشرين الثاني/نوفمبر من ذلك العام، عندما نفّـذ متشدّدون حركة احتجاج دراماتيكية وأخذوا رهائن في الحرم المكيّ. وندّد المتمـرّدون بالعائلة الحاكمة باعتبارها فاسدة وطالبوا بإزاحتها. وفي أعقاب حصار دام ثلاثـة أسـابيع، شـنّت قوات الأمن السعودية هجوماً مركّزاً فقتلت بعض المتمـرّدين وأوقفت الباقين، الذين قُطعت رؤوسهم فيما بعد. سعت الحكومة بعد ذلـك إلى إعـادة كسب ولاء المؤسسة الدينية بمنحها الإشراف التام على التعليم وتخـويلها سـلطة مـراقبة سلوك المواطنين والزوّار. فأصبح القانون الاجتماعي الـسعودي أكثـر تقييداً، وزاد من سلطات العناصر المحافظة جداً في المجتمع. وقد تعـزّزت هذه الاتجاهات بوجود العلماء المتطرّفين القادمين من سوريا ومصر هرباً من عدائية حكومتيهما العلمانية، حيث أحضروا معهم التزاماً بالراديكالية الإسلامية الجامعـة الـتي اتـبعت نهجـاً أكثر نشاطاً وتوجّهاً سياسياً من الأجندة التقليدية للوهّابيين.

في هـذه الأثناء، حوّلت فورة أسعار النفط المملكة العربية السعودية إلى دولة رفـاه قصوى. ففي أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، كان يحقّ لكل سعودي الـرعاية الـصحية والتعليم العالي المجانيين. وكان يحق للمتخرّج من الجامعة منحة مقدارها 50.000 دولار لبدء مؤسسة أعمال صغيرة. وعند البلوغ، كان كل شاب يتلقّـى قطعة أرض فضلاً عن قرض إنشائي بقيمة 80.000 دولار. وكان الكهرباء والمـاء يقـدّمان بـدون رسوم. وتوقّع السعوديون ومرشدوهم أن تدوم الأوقات الجـيّدة، لكـنها لم تدم. فتراجع البلد بسبب عدم التخطيط إلى الأمام واعتماده التبذير – وارتفاع المواليد.

تـضاعف عدد السكان السعوديين بين 1981 و2001. وإذا واصلت النساء الـسعوديات الحمل بالمعدّل الوسطي الحالي (سبعة لكل منهنّ)، فسيتضاعف عدد

السكان ثانية في سنة 2020. وعندما يخرج هؤلاء الشبّان بحثاً عن عمل، سيخيب أمل العديد منهم. فقد ارتفعت البطالة إلى 20 بالمئة، وانخفض الناتج الفردي عمّا كان عليه قبل أربعين عاماً. كان نصيب الفرد السعودي من عائدات النفط يعادل 22.000 دولار في سنة 1980، فانخفض إلى 4000 دولار في سنة 2004 على الرغم من الارتفاع القياسي للأسعار. واتخذت المدن السعودية التي كانت متلألئة شكل المدن في أماكن أخرى، حيث تشوّهها ضواحٍ قذرة وأحياء فقيرة مكتظّة.

وفيما تصاعدت الضغوط الاجتماعية، بدا التباين بين نمطي الحياة الغربي والإسلامي ظاهراً للجميع. وأدى انتشار ظاهرة التلفزة الفضائيّة، إلى جانب صور معاناة العرب والمسلمين إلى تزايد المشاعر المعادية للغرب. وخلال التسعينيات من القرن الماضي، تمركزت القوات الأميركية في الأراضي السعودية لردع صدّام حسين عن غزو الكويت ثانية. وكان هذا التدنيس المتصوّر للأرض المقدّسة بمثابة سبب لإعلان الحرب بالنسبة لأسامة بن لادن والقاعدة.

اكتسب التقاء هذه العوامل معاني جديدة بعد 11 أيلول/سبتمبر. فجأة لم تعد المملكة العربية السعودية – التي ولد فيها خمسة عشر من الخاطفين التسعة عشر – تتلاءم مع الصورة النمطية للمجتمع الثريّ والنظامي. ومنذ ذلك الوقت شهد آل سعود حصاراً من كل الجوانب. ففي حين يتّهم بعض الأشخاص في الغرب العائلة المالكة بدعم الإرهاب، فإن القاعدة تدينها بالتواطؤ مع الغرب. وتقول القاعدة إن الملكية غير شرعيّة؛ ويثير خطاب الرئيس بوش عن التحوّل وإحلال الديمقراطية في الشرق الأوسط التساؤل نفسه، إذا أخذ إلى مداه المنطقي. ويواجه النظام في الداخل ضغوطاً للتوسّع في الانفتاح السياسي من النساء اللواتي لا يحقّ لهنّ الانتخاب، والمفكّرين الإصلاحيين، والأقلية الشيعية، والشبّان المحبَطين. وتقاتل العناصر الدينية المحافظة أي تغيير يمكن أن يقلّل من نفوذها. ويبدو أن الجميع تقريباً يريدون إبراز صوتهم في كيفية إدارة البلد ولمصلحة من.

وقد وجدت الحكومة السعودية نفسها وسط حقل ألغام. وللخروج منه، عليها أن تعزل كل رجال الدين الذين يوفّرون المبرّر للإرهاب وتشكّك في مصداقيتهم. وعليها تحديث اقتصادها، وتوفير مئات الآلاف من فرص العمل

الجديـــدة، وإعـــادة تقييم موقفها من المرأة. وعليها تقديم إجابات مقنعة للنقّاد في الغرب دون أن تبدو كأنها تثبّت مزاعم القاعدة بأنها قريبة جداً من الغرب. وتلك مهمة شاقّة على مجتمع تتراوح أعمار أكثر زعمائه قوّة بين السبعين والثمانين، وقد تربّوا على توقّع حياة منعزلة نسبيّاً تقوم على العادات القديمة والحقائق البسيطة.

هـــل كانت الحكومة السعودية مسؤولة عن 9/11؟ لا. هل هي متحالفة مع القاعدة؟ بالطبع لا. هل هي شرّيرة لأن مجموعات من المواطنين السعوديين غادرت الـــولايات المتحدة في رحلات بطائرات مُستأْجَرَة (تشارترد) بعد بضعة أيام على وقـــوع 9/11؟ لا وفقاً للجنة المستقلّة للتحقيق في 9/11، والتي وجدت أن مكتب التحقـــيقات الفـــيدرالي (إف بي آي) تفحّص كل راكب وأنه "لم يغادر أحد ذو ارتباطات بالإرهاب على متن هذه الرحلات". القادة السعوديون متحفّظون وليسوا راديكالـــيين، والأهمّ من ذلك أنهم يقدّرون الاستقرار. غير أن العلاقة بين الثقافة السعودية وصعود القاعدة تتجاوز مسألة هل الحكومة نفسها متورّطة في الإرهاب. من الأسباب التي تدعو إلى القلق مقدار المساعدة التي قدّمها المال السعودي الخاص لتمويل العمليات الإرهابية. ومنها أيضاً هل لعب القادة السعوديون دون قصد دور الدكتور فرانكشتاين بإنشاء وحش لا يستطيعون السيطرة عليه.

في ســـنة 1986، غيّر الملك فهد عاهل المملكة العربية السعودية لقبه رسمياً من "جلالـــة الملـــك" إلى "خـــادم الحـــرمين الشريفين". وكان الملك فهد (توفّي في آب/أغسطس 2005) فخوراً بما يثير أعصابي بالضبط - الدعم الذي قدّمته حكومته إلى المؤســـسات الإسلامية في الخارج، بما في ذلك أكثر من 1,500 مسجد، و200 جامعة، و2,000 مدرسة. فالسعوديون على ثقة بأن دينهم هو الدين الحقّ وبالتالي لا يجدون عدم انسجام في تقديم المعونة إلى دينهم في الخارج، وفي الوقت نفسه منع ممارســـة الـــشعائر الدينـــية الأخـــرى في بلدهم. وفي مناقشاتنا، كان المسؤولون الـــسعوديون يفخرون بمكانة المملكة كحامي الإسلام والمدافع عنه. ويعكس ذلك إحـــساسهم بالاستثنائية وأن من واجبهم نشر دينهم. لكن إذا كان ذلك مصدراً مناســـباً للفخـــر لم لا يتوقّف على كيفية تفسير ذلك الدين ومن يفسّره. وخلال اجتماعاتي مع السعوديين قبل 9/11، كانوا يردّون بسخط ونقمة على أي إيحاء بأن

شـبكات الإرهـاب الإسلامية تزداد قوّة، وينظرون إلى هذه المزاعم بأنها محاولة لتشويه سمعة الإسلام.

علـى ضوء ما قد حدث منذ ذلك الوقت، ينبغي للسعوديين أن ينظروا إلى مسؤولياتهم من منظور آخر. صحيح أن بعض الكتّاب في أميركا وأوروبا وإسرائيل قد شوّهوا المعتقدات الإسلامية والسياسات السعودية، فيما يتكلّمون بتعالٍ ومباهاة دون أن يخفوا تحاملهم (تزمُّتهم) على الثقافة العربية. غير أن الضرر الحقيقيّ اللاحق بالإسـلام يأتي من القتلة الذين يتنكّرون كمسلمين أتقياء، ما يشوّه دينهم ويظهره بصورة بشعة. وإذا كان كانت السعودية تريد أن تكون قائدة الدفاع عن الإسلام، فهؤلاء هم الأعداء الذين يجب أن تهزمهم أولاً.

في الرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، كان الإنكار الردّ الفعل الأولي على هجمات 9/11. وعلى الرغم من دور أسامة بن لادن وجنسيّة معظم خاطفي الطائـرات، لم يشأ المسؤولون السعوديون الاعتراف بأن للقاعدة تواجداً كبيراً في المملكة. ورأوا أن ذلك حملة علاقات عامة وليس أمناً. ثمّ في 12 أيار/مايو 2003، وقعت ثلاثة تفجيرات إرهابية في الرياض وأوقعت خمسة وثلاثين قتيلاً. وفي تشرين الـثاني/نوفمبر هزّت تفجيرات إرهابية مجمّع وحدات سكنية هناك. وفي أيار/مايو 2004، قـتل مسلّحون اثنين وعشرين شخصاً في مجمّع سكنيّ لعمّال صناعة النفط في الخُـبر. وفي الشهر التالي، اختطف الإرهابيون في الرياض أيضاً بول جونسون، وهـو مقاول أميركي، وأعدموه. وفي كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه، هاجم مسلّحون القنصلية الأميركية في جدّة وقتلوا خمسة موظّفين.

لم تستطع حتى السلطات السعودية تجاهل مثل أعمال العنف هذه، فاعتقلت الحكـومة مـئات المشتبه بأنهم إرهابيون، وخاضت اشتباكات مع خلايا مرتبطة بالقاعـدة، واسـتولت على وثائق سفر غير مشروعة مخبّأة وقنابل يدويّة وبنادق. وأقـرّت الحكـومة السعودية أخيراً – ضمنيّاً على الأقلّ – بالارتباط بين ما كان يحـدث في شوارعهم وما يدرّس في المساجد. وقد طُلب من 3.500 إمام الالتحاق بـبرامج إعادة تعليم مصمّمة لتعزيز التسامح في الإسلام. وحُثّ رجال الدين على الـوعظ عـن مخاطر المبالغة في الدين. وأزيلت مقاطع تحضّ على العنف ضدّ غير

المسلمين من الكتب المدرسيّة. وسنّ السعوديون بضغط من الولايات المتحدة قوانين لكبح غسل الأموال وتتبّع تدفّق الأموال السعودية إلى الجمعيات الخيرية المشبوهة.

الصحافة السعودية بعيدة عن أن تكون حرّة، لكنها تشكّل منبراً لنقاش متزايد النشاط ضمن حدود. وتختلط خُطب هجاء إسرائيل بالنقاشات المتأمّلة للذات عن معنى الإسلام وواجباته. وكتب مدير تحرير إحدى الصحف اليومية، وهو من أصدقاء بن لادن في الطفولة، مهاجماً من يستخدم القرآن لشجب المسيحيين واليهود. وهاجم العديد من كتّاب الأعمدة القاعدة لمحاولتها تصوير الإسلام كأنه دين حرب. وقد أعلن عبد الرحمن الرشاد، المدير العام لقناة العربية الإخبارية الفضائية:

> لا شك في أن المسلمين ليسوا جميعاً إرهابيين، لكن مما لا شك فيه أيضاً، ومما يؤلم كثيراً، أن معظم الإرهابيين مسلمون... لا يمكننا أن نتسامح في أوساطنا مع من يخطف الصحافيين، ويقتل المدنيين، ويفجّر الحافلات؛ لا يمكننا القبول بهم كأن لهم صلة بنا، أياً تكن المعاناة التي يزعمون أنها تبرّر أعمالهم الإجرامية. هؤلاء هم الأشخاص الذين لطّخوا سمعة الإسلام وشوّهوا صورته.

على المستوى الرسمي، يدين المسؤولون السعوديون بشدّة الإرهاب باعتباره "جريمة عالمية ترتكبها عقول شرّيرة تكنّ كرهاً شديداً للإنسانية". ويظهر رجال الدين في المملكة بشكل منتظم على التلفزة لشجب الإرهاب باعتباره مناقضاً للإسلام. هذه الإعلانات تلقى ترحيباً، لكننا لن نرتاح حتى نقتنع بعدم استخدام الأموال السعودية والمبادئ السعودية لرعاية جيل لاحق من المجنّدين في القاعدة. ومن المحبط أن المسؤولين السعوديين يصرّون على إنكار حصول المتطرّفين العنيفين على دعم كبير في بلدهم. وقد أجري استطلاع خاص للآراء في المملكة ووجد أن 49 بالمئة يدعمون أفكار بن لادن. ومما لا يقلّ إزعاجاً عن ذلك أن أكثر من أربعة وعشرين رجل دين سعودياً بارزاً، يحاضر معظمهم في جامعات تدعمها الدولة، أصدروا فتوى في تشرين الثاني/أكتوبر 2004 تدعو العراق "إلى الدفاع عن نفسه، وعن كرامته، وأرضه، ونفطه وحاضره، ومستقبله، في وجه الائتلاف الإمبريالي،

مــثلما قاوم الاستعمار البريطاني في الماضي". ورأى الموقّعون أن "الجهاد ضدّ المحتلّ فرض على كل قادر"[1]. فلا غرو في أن العديد من المفجّرين الانتحاريين في العراق قدموا من المملكة العربية السعودية.

في شـــباط/فبراير 2005، شاركتُ في منتدى جدّة الاقتصادي. وعُقد الحدث في قاعـــة احـــتفالات ضخمة، وبدا الحضور كأنهم بحر من الرجال الذين يرتدون عباءات بيضاء. وكان في أحد جوانب القاعة جدار من مرايا، ما يزيد من الانطباع بـــضخامتها. في ملاحظاتي هنّأت السعوديين على قرارهم بإجراء انتخابات بلدية تنافـــسية (كانت في طور الإنجاز في ذلك الوقت) وقلت إنني آمل بأن تمنح النساء حـــقّ الاقتـــراع في المملكـــة العربية السعودية بسرعة أكبر مما جرى في الولايات المتحدة.

فوجـــئت بـــأن كلماتي قوبلت بعاصفة من التصفيق. لكن عندما نظرت إلى الحضور أمامي، لم يكن أحد يصفّق. لم يولّد بحر الرجال أي موجة. بدلاً من ذلك، كان التصفيق صادراً من خلف المرايا، حيث كانت النساء السعوديات مجتمعات. كنّ منفصلات عن الرجال كما هي العادة وغائبات عن الأنظار - لكن بوسعهنّ الوصول إلى الميكروفونات وإسماع أصواتهنّ. فعندما زعم وزير العمل السعودي أن النـــساء راضيات عن سياسة الفصل بين الجنسين في أماكن العمل ولا مصلحة لهنّ في الـــسماح لهنّ بقيادة السيارة، سألت النسوة لماذا يعتقد ذلك؛ وعندما أشار إلى كـــمّ من البريد الإلكتروني الذي يتلقّاه، سألن عن عنوان بريده الإلكتروني. النساء يـــشكّلن نـــصف أعداد السعوديين الملتحقين بالجامعات، لكن أقل من عشر القوّة العاملة. وعاجلاً أم آجلاً، سيجد أولئك النساء المتعلّمات - وهنّ ذخر وطني هائل - مجالاً أوسع للتعبير خارج بيوتهنّ.

(1) شـــجب السفيران السعوديان في الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى البيان الصادر في 5 تشرين الثاني/نوفمبر 2004. وشجب العديد من كتّاب الأعمدة السعوديين الفتوى إذ يبدو أنهـــا تـــشجّع شـــبّان بلدهم على الذهاب للقتال في العراق. وامتدح المؤيّدون البيان لأنه يحضّ على الوحدة بين السنّة والشيعة في العراق وينثني عن العنف ضدّ غير المحاربين، بمن فيهم الأجانب مثل الصحافيين وعمّال المعونة.

في أثـناء النقاش بجدّة، نهض أحد الرجال السعوديين ليطمأنني بأن سياسات بلـده تجـاه المرأة تستند إلى رغبة بالاحترام لا القمع قائلاً، "إننا نعتقد بأن النساء يجلـسن عـند أبواب الجنّة. ولا نرمي إلا إلى تكريم نسائنا وحمايتهنّ". قلت إنني أتفهّم ذلك وإنني لا أعتقد بأن الغرب يمتلك كل الأجوبة. وأضفت قائلة، "غير أنني أعـتقد بحـقّ الشعب في اتخاذ الخيارات الأساسية. لو كان للنساء بدائل فربما قرّر العديـد مـنهنّ العيش كما هنّ عليه الآن. لكن يجب أن يكون للنساء، بقدر ما يكـون للـرجال، فرصة اتخاذ القرار عن أنفسهنّ. إنهنّ راشدات، ولسن أطفالاً، ويجـب معاملـتهنّ وفقاً لذلك. ممّ أنتم خائفون أيها الرجال؟ ليس هناك من له مصلحة في إشعال حرب بين الجنسين".

في سنّ المراهقة، عندما كنت أذهب في أوّل مواعيدي مع الشبّان الذين لديهم سيارات، كان والدي يصرّ على اللحاق بنا بسيارة العائلة. النظام السعودي مفرط في الحماية على نحو مماثل، باستثناء أن الوالد يركب في السيارة إلى جانب الشاب، فيما الفتاة في المقعد الخلفي، من وراء حجاب.

أتـيحت لي الفرصة في أثناء زيارتي لتجديد صلتي بوليّ العهد الأمير عبد الله؛ كـان ذلك قبل ستّة أشهر من خلافته الملك فهد الذي كان يعاني من المرض منذ مـدّة طويلة. على الرغم من أن الملك عبد الله في أوائل الثمانينيات من العمر، فإنه مـا زال محتفظاً بالقوّة الجسدية والحيويّة. ولديه شاربٌ كثيف ولحية على الذقن، وكلاهمـا لا يزال أسودَ؛ وطريقة هادئة موقّرة بالحديث. عندما أخبرته بأنني أقوم بتأليف هذا الكتاب، ابتسم موافقاً، وأشار إلى نسخة القرآن ذات الغلاف الأخضر بجانبه على مكتبه.

في أثـناء الـبحث، أشار بوضوح إلى خوفه من الصورة المشوّهة التي ألحقها بعض الأشخاص بالإسلام الذي وصفه بأنه دين السلام والرحمة. وقال إن المسيحية والـيهودية والإسلام تجتذب جميعاً حصّتها من العناصر المتطرّفة، وإن هناك بعض المـسيحيين المحـافظين الذين يشعرون بالحاجة إلى اختلاق أزمة من أجل التسبّب بوقـوع المعـركة الفاصلة. تساءلت إذا كان القرآن يمنع المسلمين من التخلّي عن أرض حكـموها ذات يـوم فقال إنه لا يوجد شيء صارم باستثناء بعض المناطق

والأماكن المقدّسة. سألته، "في هذا المجتمع الشديد التمسّك بالدين، ما الدور الذي تعتقد أن الله يلعبه في إدارة المملكة"؟ أجاب، "الإيمان ثابت، لكنك لا تلجأ إلى الله قبل أن تستشير أصدقاءك ومستشاريك والجمهور والبلدان الأجنبية. وبعد ذلك تتّكل على الله لمساعدتك في اتخاذ القرارات الصحيحة، وتدعو أن تكون النتيجة مرضية". وعندما سألته عن العراق، تجهّم قليلاً وقال، "ربما يجدر بنا أن نغيّر الموضوع".

في هذه الزيارة الأخيرة إلى المملكة العربية السعودية، وجدت اختلافاً مذهلاً عن الزيارات السابقة. لقد كان الموقف السائد أن كل المسائل المهمة مقرّرة بالفعل. واليوم كل شيء متغيّر؛ والمناخ السياسي الذي طالما كان راكداً أصبح حيّاً بالتفكير والنقاش؛ واكتسبت السياسة السعودية خصائص مثيرة.

في السنوات الماضية، استجاب آل سعود إلى دعوات الإصلاح بدون الخضوع لها، مقسّمين التقدّم في أضيق شرائح. وقد تتسارع الخطى بسبب دور الملك عبد الله الجديد. فحينما كان لا يزال وليّاً للعهد، رعا سلسلة من الاجتماعات الوطنية بشأن حقوق الأقليات الدينية والنساء، وأنشأ مركزاً للحوار وأجاز إجراء انتخابات بلديّة تنافسية. وبعد أن أصبح ملكاً، أمر غرفة التجارة والصناعة بجدة بأن تسمح بترشّح النساء لعضوية مجلس إدارتها، واختيرت امرأتان. وخصّص 3.3 مليار دولار لتحديث نظام التعليم السعودي ومناهجه. وفي الجانب الاقتصادي، قد أدخل المملكة العربية السعودية في منظمة التجارة العالمية، وذلك إنجاز يستطيع استخدامه لتبرير تدابير مكافحة الفساد، وإعادة تنظيم البيروقراطيّة الخاملة في البلاد، وإجراء تحسينات تعليمية في موضوعات علمانية مثل الهندسة والعلوم والرياضيات.

ولعل الأكثر إثارة أن الملك عبد الله عفا بعد أيام على اعتلائه العرش عن ثلاثة ناشطين حكم عليهم بالسجن لمدّة ثمانية عشر شهراً لأنهم دعوا إلى دستور جديد. وكان ذلك بمثابة صدّ للمسؤول الذي أمر باعتقالهم، الأمير نايف، وزير الداخلية. فطالما عمل الأمير نايف على تعزيز أجندة المحافظين الدينيين. الملك عبد الله مصلح حذر في بلد يمكن أن يبدو فيه أي نوع من الإصلاح جذريّاً. وهو يتبع التروّي ومقيّد بتقليد عائلي يقضي باتخاذ القرارات بالإجماع، ومن المرجّح ألاّ تسفر

سياســـاته عـــن سلسلة من الخطوات الجريئة، وإنما عن تقدّم (تبديل) غير مباشر وبطـــيء في بعـــض المجـــالات - الانتخابات ومزيد من الخيارات للمرأة، والتغيير الاقتصادي - قبل التوقّف قليلاً للوقوف على النتائج.

ربما يتبيّن أن المعضلة السعودية والتحدّيات المرتبطة بها بالنسبة للغرب عسيرة، لكـــن لا بـــدّ مـــن مواجهتها مع ذلك. فموقع البلد الاقتصادي كمصدر للنفط وصـــاحب القـــول الفـــصل في أسعاره سيستمرّ طويلاً بعد أن تنفد الاحتياطيات النفطـــية لـــدى معظم المورّدين الآخرين. ولا يزال للقادة الدينيين كلمة مسموعة بـــشأن الطـــريقة المتّـــبعة في تعليم المسلمين السنّة الصغار كيفية النظر إلى العالم. وسيـــضغط الكونغرس والرأي العام والصحافة على القادة الأميركيين لكي يتخذوا مـــوقفاً صُلباً من السعوديين في القضايا المتعلقة بالإرهاب. غير أن النفوذ الأميركي تراجع عما كان عليه سابقاً. فلم يعد السعوديون يعتمدون على الخبرة التكنولوجية الأميركـــية؛ وتراجعت أهمية أميركا كزبون للنفط بتزايد ما تشتريه بلدان أخرى. وســـيقلّ عدد السعوديين الراغبين في التعرّض للمهانة للتمكّن من دخول الولايات المـــتحدة، وســـيقلّ عـــدد الأميركيين الذين يسافرون إلى المملكة، ما لم تنحسر المخـــاوف الأمنـــية الحاضـــرة. وستقلّ وتيرة الاتصالات بين العسكريين من كلا الجانـــبين. وإذا تواصـــلت التـــصوّرات السلبية لدى الجانبين، لن يكسب القادة الأميركيون والسعوديون الكثير على الصعيد السياسي من مساعدة بعضهم بعضاً.

غـــير أن الـــسعوديين لا يـــشعرون بالارتياح للدور الذي ألبسهم إياه بعض الأشـــخاص، حيث وصفهم أحد الكتّاب بأنهم "نوع من قلب السواد الزيتيّ ومنبع نظام القيم العدائية الموحش". وما من شك في أنهم سيسرّون بالعودة إلى زمن أكثر استرخاء، عندما كان البلدان في جانب واحد في أكبر المعارك وتمكّنا من الالتفاف علـــى الخلافـــات المتعلقة بالشرق الأوسط. علينا تشجيع السعوديين على استعادة ذلـــك النوع من العلاقة بالمثابرة في جهودهم للتخلّص من القاعدة، ومنع وصول الأمـــوال إلى الإرهابيين، وانتهاز كل فرصة لتذكير مواطنيهم ومن يدين بدينهم في الخـــارج بأن قتل الأشخاص العزّل من السلاح مخالف للقيم العربية وليس طريقة للفوز بالجنّة.

تــدور المعــركة الفلسفية في المملكة العربية السعودية حول نوع البلد الذي يرغب فيه شعبها: هل يريدون حصناً منعزلاً يتحكمه التقاليد المحافظة أو بلداً حديثاً (وإن يكن متديّناً) منفتحاً على العالم وجزءاً لا يتجزّأ منه؟ هناك بعض السعوديين التوّاقين إلى استكشاف حدود ما يسمح به الإسلام، لكن هناك آخرون عازمون على فرض أكبر عدد ممكن من الحدود. لا عجب إذاً أن يجد العديد من السعوديين أنفســهم عاجزين عن الاصطفاف بوضوح في هذا الجانب أو ذاك. ثمة إقرار واسع بالحاجة إلى التحديث، وكذلك بالخوف من فقدان السيطرة. وتلقى النقاشات وما يــصاحبها مــن آمال ومخاوف صدى في أنحاء كثيرة من العالم العربي وكثير من المجــتمعات الإســلامية الأخــرى. والاضطراب الناتج ناشئ عن المواجهة المهمة والمعقــدّة بين فكرتين عميقتين: إن كل السلطة تأتي من الله، وإن السلطة الشرعية على الأرض تأتي من الشعب.

الفصل الخامس عشر

الديمقراطية العربية

في تموز/يوليو 1957، أعلن جون ف. كنيدي، وكان في ذلك الوقت سناتوراً شاباً من ماساتشوستس، أن "القوّة الأقوى في العالم اليوم ليست الشيوعية أو الرأسمالية أو الصواريخ الموجّهة - بل رغبة الإنسان الأزلية في الحريّة والاستقلال".

وتابع يقول، "العدوّ العظيم لتلك القوّة الهائلة للحريّة يدعى الإمبريالية، لعدم وجود مصطلح أدقّ. لذلك فإن أهمّ اختبار للسياسة الخارجية الأميركية اليوم هو كيفية مواجهة تحدّي الإمبريالية، وما الذي نقوم به لدعم رغبة الإنسان في الحريّة".

في وسط الحرب الباردة، حدّد كنيدي - بشكل ملفت للنظر - أن الإمبريالية لا الشيوعية هي الاختبار الأول للسياسة الخارجية الأميركية. وقد فعل ذلك فيما كان المقاتلون الجزائريون في سبيل الحريّة يخوضون كفاح حياة أو موت للاستقلال عن فرنسا، ما دعا القادة الفرنسيون إلى التنديد "بتدخّله الطائش" في شؤونهم. ووافق رجل الدولة الأكبر سنّاً في الحزب الديمقراطي، أدلاي ستيفنسون، على ذلك واصفاً خطاب كنيدي بأنه "رهيب"، و"دعوة إلى الفوضى"، وتهديد لحلف شمال الأطلسي. لكن الاستقلال كان فكرة آن أوانها، وحقّقت الجزائر استقلالها في سنة 1962. في ذلك الوقت كان كنيدي رئيساً، وعازماً على وقوف الولايات المتحدة بحزم إلى جانب الحريّة للشعوب المستعمَرة في كل أنحاء العالم النامي، وكان قسم كبير منها مسلماً. وعندما تحدّث كنيدي عن رغبة الإنسان في الحريّة، كان يعني حنين الأمم إلى التخلّص من الهيمنة الخارجية. لكن الاستقلال لا يوفّر ضمانة بأن يكون الشعب حرّاً من القمع الذي تمارسه حكوماته، فإنشاء ذلك النوع من الحريّة تحدّ منفصل بل أصعب أحياناً.

في تشرين الثاني/نوفمبر 2003، أعلن الرئيس بوش أن الولايات المتحدة ستتّبع "استراتيجية مباشرةً لإحلال الحريّة في الشرق الأوسط". ورأى بوش، فيما كان

يتحدّث أمام جمهور محتشد للاحتفال بالذكرى العشرين للمؤسسة الوطنية للديمقراطية، أن "الاستقرار لا يمكن شراؤه على حساب الحريّة. وما دام الشرق الأوسط مكاناً لا تزدهر فيه الحريّة، فسيبقى موقعاً للركود، والاستياء، والعنف الجاهز للتصدير. ومع انتشار الأسلحة، يمكن أن يُلحق ذلك ضرراً كارثياً ببلدنا وبأصدقائنا، وسيكون من الطيش القبول بالوضع الراهن".

رحّبت بخطاب الرئيس، باعتباري مناصرة قديمة للديمقراطية ووافقت على مقدّمته المنطقية. فكثير من البلدان التي نالت استقلالها عن الحكم الاستعماري استبدلت طغياناً أجنبياً بالطغيان المحلي. والشرق الأوسط هو المنطقة الوحيدة التي لا يزال فيها رؤساء الحكومات (مقارنة برؤساء الدول) يستمدّون سلطتهم من نَسَبهم. وإذا كان الرئيس بوش جاداً في تحدّي ذلك التقليد، فبوسعه تغيير العلاقات بين الولايات المتحدة والحكومات والشعوب العربية على مدى عقود قادمة.

غير أن مساندة الديمقراطية في الشرق الأوسط أسهل قولاً من الفعل. فقد كُشف النقاب عن الخطة الأصلية لوزارة الخارجية لإحلال الديمقراطية في العالم العربي أمام الصحافة قبل استشارة الحكومات في المنطقة، وتلك زلّة دبلوماسية تسبّبت باحتجاجات ومزاعم بالتعجرف. في المغرب في كانون الأول/ديسمبر 2004، عقدت حكومات عربية وغربية "منتدى المستقبل" لبحث الحاجة إلى التغيير الديمقراطي، لكن في حين تحدّث المسؤولون الأميركيون عن فتح العملية السياسية، شدّد القادة العرب على الحاجة إلى إنهاء الاحتلال الأميركي للعراق وحل النزاع الإسرائيليّ الفلسطيني. وكانت وجهة النظر الأميركية، في ذلك الوقت ولا تزال، أن التطرّف ينتج عن الإحباط السياسي وأن الناس يصبحون إرهابيين لأنهم غير قادرين على تحقيق التغيير بوسائل أخرى. ويصرّ القادة العرب على أن الإرهاب ناتج عن الغضب من الأعمال الأميركية، لا نتيجة للممارسات العربية غير الديمقراطية – وأن الطريق لتحقيق الاستقرار هو تغيير السياسات الأميركية. وهذا الرأي ليس محصوراً بالأمراء والملوك العرب. ففي دبي في كانون الأول/ديسمبر 2005، التقيت بمجموعة من الشابات المسلمات، معظمهنّ يرتدين الأسود من أعلى رؤوسهنّ إلى أخمص أقدامهنّ، فعبّرن عن آراء أنثوية بالطبع. وعندما أشرت

إلى أن الوضع الراهن في الشرق الأوسط خطير، وقفت إحداهنّ وأشارت إلى "أنه لم يكن خطيراً إلى أن جاءت الولايات المتحدة وجعلته كذلك".

في منطقة تزدهر فيها نظريّات المؤامرة، تنتشر الشكوك على نطاق واسع بشأن نوايا إدارة بوش. وليس هناك اعتقاد كبير بأن دعم أميركا للديمقراطية نابع من أنها تضع المصالح للعرب نصب عينيها. ويتّهم كل جانب، عن حقّ، الآخر بمحاولة تغيير الموضوع: المسؤولون الأميركيون يتحدّثون عن حاجة الحكومات العربية إلى الإصلاح أكثر من الحديث عن محنة الفلسطينيين، والقادة العرب يتحدّثون عن أي شيء تقريباً إلا الديمقراطية.

إن الرئيس على حقّ في محاولة تصحيح الانطباع بأن أميركا تقف إلى جانب الحريّة في كل مكان باستثناء البلدان العربية، لأن هناك بعض الحقيقة في ذلك على الأقل. فقد مرّت عقود كانت للإدارات الجمهورية والديمقراطية على السواء أسباب وجيهة لإقامة علاقات سلسة مع القادة العرب المستبدّين. فالبلدان ذات الأهمية الاستراتيجية مثل المملكة العربية السعودية ومصر تقدّر الاستقرار، وكذلك الولايات المتحدة. والعرب ينتجون النفط، والمستهلكون الأميركيون يطلبونه. العرب يريدون التكنولوجيا المتقدّمة، والشركات الأميركية توّاقة إلى بيعها. وفي أثناء الحرب الباردة، كانت الولايات المتحدة بحاجة إلى الدعم العربي في مواجهة الاتحاد السوفياتي. وفي التسعينيات من القرن الماضي، سعت إدارة كلينتون إلى الحصول على دعم العرب لعملية السلام في الشرق الأوسط. وبدت هذه الحكومات العربية، مع أنها لا تخلو من العيوب، مفضّلة على بدائل محتملة. في النهاية كنّا مشغولين تماماً بصدّام حسين في العراق، ومعمّر القذّافي في ليبيا، والنظام الديني في إيران. ومع أن العديد من هذه الاعتبارات ما زالت قائمة، فقد آن الأوان لاتباع نهج جديد. من الحجج الكبرى التي تسوقها القاعدة أن الولايات المتحدة تساند حكومات فاسدة وغير شرعيّة وقمعيّة وفاسقة. ومن الطرق لدحض ذلك احترام مُثلنا ودعم الإصلاحات الديمقراطية في كل بلد يفتقر إلى الحريّة.

لا يعني ذلك محاولة فرض نظامنا على شعب لا يريده. الإسلام يعلّم أتباعه أخذ أفضل ما في الحضارات الأخرى؛ والديمقراطية تشكّل جزءاً كبيراً مما هو أفضل

ما في الغرب. وقد وجدت أعمال المسح أن الشعوب العربية والمسلمة تفضّل على العمـــوم مفاهيم مثل حريّة التعبير، والأنظمة المتعدّدة الأحزاب، والمعاملة المتساوية أمـــام القانون. ويقول الكثيرون إن تحلّي القائد بالديمقراطية أهم من تحلّيه بالقوّة. وربمـــا يكون ذلك هو السبب وراء هجوم الديمقراطية. فإمارة قطر الصغيرة لديها دستور جديد ينصّ على إنشاء مجلس شورى يحمي الحريّة الدينية، وحريّة الصحافة، وحقـــوق المرأة. ومجلس الأمّة الكويتي منح المرأة حقّ التصويت، بعد سنوات من رفض الاقتراح. وفي سنة 2003، أجرى الأردن واليمن انتخابات تشريعية تنافسية جـــزئيّاً وحـــرّة بدرجـــة معقولة، وإن كانت تشوبها الشوائب. وأجرت السلطة الفلـــسطينية انتخابات رئاسية وبرلمانية. ويوجد في معظم البلدان العربية الآن نوعٌ مـــن الهيـــئات التـــشريعية أو الاستشارية، على الرغم من أن سلطاتها متواضعة في الغالب. وثمة شعور في كل أنحاء المنطقة بأن الطرق القديمة أخذت تتغيّر ليحلّ محلّها شيء غير محدّد تماماً، ولكن جديد.

كانـــت قد أملت إدارة بوش في أن يصبح العراق نموذجاً ديمقراطياً يتوق العرب الآخرون إلى تقليده. وربما سيفعلون ذلك في يوم من الأيام. لكن بالنظر إلى المـــشهد اليومـــي للـــتقاتل السياسي والعنف في الشوارع، فسيمضي بعض الوقت قبل أن ينظر معظم العرب إلى العراق ويفكّرون، "أتمنّى أن يكون بلدي مثله". لذا لا يوجد حتى الآن نموذج للديمقراطية يرضي العرب تماماً[1]. وفي سنة 1992، أوضـــح الملك السعودي فهد أن "لا مكان للنظام الانتخابي في العقيدة الإســـلامية الـــتي تدعو إلى حكم يقوم على الشورى وعلى انفتاح الراعي على رعيّته". فتراث الشورى العربي الذي أشار إليه الملك فهد يمكن توسيعه بسهولة ليـــضمّ المـــبادئ الديمقـــراطية إذا توفّرت الإرادة للقيام بذلك. فلا شك في أن الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية لم يكن عائقاً أمام الحريّة السياسية، فنصف العـــالم الإســـلامي يعيش في ظلّ حكومات منتخبة - في أماكن مثل إندونيسيا والهند وبنغلاديش وماليزيا وتركيا.

(1) طـــوّرت مـــصر بـــين الحربين العالميتين نظاماً متعدّد الأحزاب، لكن اختفى ذلك عندما استولى العسكريون على السلطة في سنة 1952.

الإسـلام لـيس عائقاً أمام الحرّية، لكنه ليس غير ذي صلة أيضاً باحتمالات تحقيق التغيير الديمقراطي بالفعل. ففي البلدان التي يفسّر فيها الإسلام بشكل محافظ، ثمة خطر من ألا تلقى الديمقراطية الترحاب كرفيق للإسلام - وبخاصة عندما تروّج لها الولايات المتحدة بطريقة مظفّرة - وإنما يخشى أن تكون بديلاً مقترحاً. ويفاقم المشكلة الالتباس بشأن النيّة من وراء بعض الكلمات. فبعض المسلمين، مثل بعض المسيحيين واليهود، يميلون إلى المساواة بين مصطلح "علماني" و"ملحد"، فلا يقبلون بإمكانـية أن يكون المرء متديّناً وأن يقارب مع ذلك العديد من قضايا الدولة دون الرجوع إلى الدين. يقول أحد الخبراء، "أن تكون علمانياً يعني... ألا ترفض الإيمان الـديني فحسب وإنما أيضاً الأخلاق الملازمة له والتقاليد والقواعد التي تعمل داخل المجتمعات الإسلامية". وقد ازداد هذا التصوّر قوّة دون شك بعد تجربة المسلمين في ظل قادة علمانيين مثل عبد الناصر في مصر والشاه في إيران.

تفـتح هذه القضايا وغيرها نافذة لكي يحاجّ بعض المسلمين بأن الديمقراطية تُطرح بغية إضعاف الإسلام. ورداً على ذلك، ينبغي لدعاة الإصلاح الإيضاح بأن دعـم الديمقراطية لا يعني اختيار حكم البشر على حكم الله. بل على العكس من ذلـك، يعـني حرمان الطغاة من حق اعتبار أنفسهم آلهة على الأرض. الديمقراطية تعطـي صـوتاً لكـلّ مواطن، لا للقلّة ذات الامتيازات. وقد سمعت أحد القادة المـسلمين، وهـو نيجيري، يقول إن الإسلام أكثر الأديان ديمقراطية لهذا السبب فحسب. فالجميع متساوون أمام الله.

يـرى بعض المعلّقين أن ثمة إفراطاً في تقدير أهمية الدين وأن القضايا الوحيدة ذات الأهمية الحقيقية هي اقتصادية - أي عندما يقتنع العرب بأن الديمقراطية ستتيح لهـم العيش بمزيد من البحبوحة، لن يكون هناك أهمية لشيء آخر. ويذكّرني ذلك بفـيلم "المتخرّج" عندما يُطمْأن الشخصية التي يلعبها داستن هوفمان في الفيلم بأن مفـتاح سعادته المستقبلية مهنة في البلاستيك. هناك عقلية معيّنة في الغرب تفترض أن الجمـيع يـريدون العيش مثل الغربيين. ووفقاً لهذا النمط من التفكير، إذا كان العرب والمسلمون الآخرون مستائين فإنما مردّ ذلك أنهم يحسدون الغرب على الغنى المادي ونمط العيش المريح. ولا يُنظر إلى الاحتمال المخالف: إن بعض العرب على

الأقل يعتقدون أن الغرب يحاول استمالتهم إلى حياة سطحيّة منحلّة وبالتالي تركهم ملعـــونين إلى الأبد. المصالح الماديّة مهمة، لكن التاريخ يخبرنا بأن الأفكار التي يتمّ التمـــسك بها بقوّة، سواء أكانت متنوّرة أم غير صائبة، لها أهمية أكبر. وقد كتب أحد العلماء المسلمين البارزين، "إذا سئل أحدهم إذا كان المسلمون يريدون الحريّة، فـــسيكون الجواب نعم حتماً. لكن الغالبية العظمى من المسلمين تضيف أن الحريّة بالنـــسبة إلـــيها لا تعني أولاً الحريّة من الله والدين، وهي ستقبل الحريّات الأخرى شريطة ألا تدمّر دينها وما يعطي معنى لحياتها".

ثمة مدرسة فكريّة أخرى ترى أنه يمكن أن يأتي نصفا الإصلاح الديمقراطي – الاقتـــصادي والسياسي – على التوالي. فوفقاً لهذه النظرية، العرب ليسوا مستعدّين للديمقـــراطية. ويجـــب أن يصبحوا أولاً أفضل تعليماً وأكثر ازدهاراً وأوسع طبقة متوسّـــطة: بعبارة أخرى، أكثر تغريباً. وتلك رؤية متعالية، وهي تتجاهل أيضاً أن الإصـــلاحات الاقتصادية والسياسية تعزّز بعضها بعضاً. فالحكم المطلق عقبة على طريق التنمية في حين أن الديمقراطية تساعد في تمهيد الطريق. مع ذلك، فإن بعض القـــادة العرب منجذبون بقوّة إلى فكرة البدء بالإصلاحات الاقتصادية أولاً، على أمل أن يمكّنهم ذلك من تأخير التغيير السياسي إلى أجل غير محدّد. والرئيس حسني مبارك من الأمثلة الرئيسية على ذلك.

منذ أن تولّى مبارك السلطة في سنة 1981، كان شخصية دوليّة مسؤولة يؤيّد المواقـــف المعـــتدلة في الشؤون العالمية ويقدّم دعماً مهماً لعملية السلام في الشرق الأوسط. كما أنه سياسي ماهر نفّذ بعض التغييرات الاقتصادية الضرورية. ويزعم مبارك أن سياساته قاسية بحكم الضرورة وأنها نجحت إلى حدّ كبير. وفي السنوات الأخيرة وقعت بعض حوادث الإرهاب المحلي. ويرى الرئيس بوش أن "الحريّة حلّ للإرهـــاب"، وأن بروز القاعدة يجب أن يدفع الأنظمة العربية في اتجاه الديمقراطية. وبُعيد 11/9، أكّد رئيس الوزراء المصري عكس ذلك بالضبط – أن الإرهاب يجب أن يدفع الولايات المتحدة باتجاه مصر. فقد قال، "كانت الولايات المتحدة والمملكة المـــتحدة، بما في ذلك مجموعات حقوق الإنسان، تدعو في الماضي إلى منح هؤلاء الإرهابـــيين 'حقوقهم الإنسانية'. يمكنكم أن تمنحوهم كل الحقوق الانسانية التي

يستحقونها إلى أن يقتلوكم. وبعد هذه الجرائم الرهيبة المرتكبة في نيويورك وفيرجينيا، ربما يتعيّن على البلدان الغربية أن تبدأ بالتفكير في حرب مصر على الإرهاب كنموذج جديد لها".

دعا الرئيس بوش مصر إلى "قيادة الطريق" نحو الديمقراطية العربية. واستجاب مبارك بالسماح بمرشّحين معارضين بالترشّح عندما خاض انتخابات الرئاسة في أيلول/سبتمبر 2005. وأنتج ذلك المشهد الذي نراه في الغالب في البلدان الديمقراطية هامشيّاً: انتخابات رئاسيّة بكل زخارف الديمقراطية لكن بقليل من مضمونها. كانت الحملة قصيرة بشكل غير معقول، تسعة عشر يوماً فقط. وكان الحزب الحاكم يسيطر على معظم وسائل الإعلام وأموال الحملة. وعلى المرشّحين أن يفوا بمعايير تستبعد أي معارضة جدية لمبارك الذي فاز بأغلبية كاسحة. على الرغم من أن كل هذا التقليد لم يكن مرضياً، فقد ظهرت بعض النواحي المشجّعة. فلأول مرّة في تاريخ البلد الطويل، دُعي المصريون لرؤية زعيمهم في مهرجانات الحملة الانتخابية طلباً لدعمهم. وأعطي المقترعون تجربة التأشير على أوراق اقتراع تضمّ أكثر من خيار، ووجدت الحشود أنفسها قادرة على ترديد شعارات مناوئة للحكومة دون أن تُضرب بالهراوات، أو ليس في كل مرّة على الأقل.

الشعب المصري محنّك ولديه من التعليم ما يجعله يدعم الأحزاب السياسية من كل لون إيديولوجي. لكن إذا أجريت انتخابات منفتحة بحقّ، فسيشكّل الإخوان المسلمون، وهم جماعة إسلامية أنشئت في سنة 1928، المعارضة الأقوى للحزب الحاكم. اعتنق الإخوان المسلمون العنف ونبذوه بشكل دوري، واستمرّوا على الرغم من العديد من الإجراءات الصارمة المتخذة ضدّهم، وأنشأوا فروعاً في أنحاء البلدان العربية. ومعتقدهم المركزي أن الإسلام السنّي يقدّم الحلّ لكافة المشاكل وأن العودة إلى الدين الحقّ شفاء لكل العلل. وقد تبنّوا في مصر في السنوات الأخيرة لغة الديمقراطية وسعوا إلى التعاون مع مزيد من المجموعات العلمانية الداعية للإصلاح. وعلى الرغم من أن الجماعة محظورة رسمياً، فإن نفوذها لا يزال كبيراً، وسجّل أعضاؤها – ترشّحوا كمستقلّين – مكاسب ملحوظة في الانتخابات البرلمانية التي أجريت في سنة 2005. وقد يتطور الاخوان المسلمون ، إذا سُمح لهم، إلى حزب إسلامي معتدل من النوع

الذي تولّى السلطة في تركيا وإندونيسيا والبوسنة والهرسك، وربما الآن في العراق. غير أن الـــسيناريوهات الأقـــل ورديّة معقولة أيضاً. فالحكومة المصرية تؤكّد أن الإخوان المسلمين يحضّرون لاستخدام العنف، ولذلك لن تسمح للجماعة بالتنافس على السلطة بوسائل غير عنيفة. وذلك هو منطق القمع.

لا شك في أن نيّة مبارك هي رعاية معارضة طيّعة توفّر مظهراً ديمقراطياً دون أن تهـــدّد إمساك حزبه بالسلطة. لكن قد يكون من الصعب السيطرة على الشعب إذا اســـتيقظ. ومن المرجّح أن تكسب فكرة حصول المصريين على بدائل حقيقية لحكـــم الحـــزب الواحد مزيداً من القوّة بين الآن وسنة 2011، موعد الانتخابات الرئاسيّة القادمة. ولتقليل الضغوط من أجل مزيد من التغيير، سيواصل مبارك تذكير صانعي السياسة الأميركية بفائدته في الميادين الأخرى. فبعد خروج قطاع غزّة عن السيطرة الإسرائيليّة، وعودة الميوعة إلى الوضع في الشرق الأوسط، سيحرص على ترتيب الأحداث التي تُظهر قدرته على التأثير على الفلسطينيين ودوره كرجل دولة كبير في أوساط العرب.

بعد خمسة وثلاثين عاماً على خطاب جون كنيدي عن الحريّة، أجرت الجزائر المستقلة أخيراً انتخابات وطنية متعدّدة الأحزاب. كان ذلك في سنة 1991، وكان الحـــزب الفائـــز إسلامياً. خشي صانعو السياسة الغربيين من ألا يفي هذا الحزب بواجـــباته الديمقـــراطية - مـــثل السماح بمعارضة قانونية، وصحافة حرّة، وقضاء مـــستقلّ - مع أنه وصل إلى السلطة عن طريقها. وعندما تدخّل الجيش الجزائري ملغـــياً النتائج، شعرت إدارة بوش الأول بالارتياح. وأوضح ذلك وزير الخارجية الأسبق، جيمس بيكر، بالقول:

> عـــندما كـــنت فـــي وزارة الخارجـــية، انتهجـــنا سياسة استبعاد الأصوليين الـــراديكاليين فـــي الجزائر، حتى مع أننا نقرّ بأن ذلك يتناقض إلى حدّ ما مع دعمـــنا الديمقـــراطية. وعلـــى العموم، عندما تدعم الديمقراطية، ترضى بما تمنحك إياه. فإذا منحتك أصوليين راديكاليين إسلاميين، يفترض بك أن تتعايش مـــع ذلك. لكننا لم نتعايش معهم في الجزائر لأننا شعرنا بأن آراء الأصوليين الراديكاليين معاكسة جداً لما نؤمن به... وللمصالح الوطنية للولايات المتحدة

يبيّن التاريخ أن الانتخابات الديمقراطية لا يفوز بها الديمقراطيون دائماً. وفي معظم المجتمعات العربية، تنتظم أكبر المجموعات الملتصقة بالمجتمع حول الدين. وإذا ما ازدهرت الديمقراطية في الغد، فإن نتائج الانتخابات يحدّدها القادة الإسلاميون أكثر مما تحدّدها مجموعات الأكاديميين ورجال الأعمال والمهنيين الصغيرة وصاحبة الصوت الأعلى في تأييد التغيير الديمقراطي. وهذه هي الحال بالتأكيد في أراضي السلطة الفلسطينية والعراق.

في سنة 2005، شاركت في رئاسة فريق عمل خاص من الحزبين بشأن الديمقراطية العربية في مجلس العلاقات الخارجية. وكان شريكي عضو الكونغرس السابق فن ويبر، الذي يحظى باحترام كبير. خلص فريق العمل إلى أنه إذا تمكّن العرب من التعبير عن شكاويهم بحرّية وسلام، فمن المرجّح ألا ينتقلوا إلى تدابير متطرّفة بل أن يبنوا مجتمعات منفتحة ومزدهرة. وسيفيدهم ذلك ويفيدنا. لكننا رأينا أن التغيير المفاجئ ليس ضرورياً ولا مرغوباً فيه عند تعزيز المؤسسات الديمقراطية. ويجب أن يكون هدفنا تشجيع التطوّر الديمقراطي لا الثورة الديمقراطية. لم يكن هذا التنبيه كافياً لأحد أعضاء فريق العمل، فكتب مخالفاً أن على الولايات المتحدة ألا تركّز إطلاقاً على الانتخابات في العالم العربي. ورأى أن "أكثر الأحزاب العربية الإسلامية اعتدالاً وابتعاداً عن العنف لن تكون مستعدّة للقبول بالنفوذ الذي تمارسه الولايات المتحدة الآن في المنطقة". يفاجئني هذا التحليل، المستند إلى السياسة الواقعية، لأنه لم يعد يتوافق مع الزمن. فالاعتقاد بقدرة أميركا على الاحتفاظ بنفوذها في البلدان الإسلامية بدون دعم الحرّية والانتخابات النزيهة هو اعتقاد بأن بوسعنا إلحاق الهزيمة بالإرهاب بالتصرّف بالطريقة التي توقّعها القادة الإرهابيون. وسيكون ذلك شبيهاً بخوض معركة على أرض تنهار تحت أقدامنا، وليس لذلك معنى من الناحية الاستراتيجية.

يخشى بعض المحلّلين من أن الديمقراطية تسمح للحركات السياسية الإسلامية بتسلّم السلطة في كل أنحاء شمال إفريقيا والشرق الأوسط والخليج، وصولاً إلى جنوب شرق آسيا. وستكون النتيجة كتلة رهيبة من الدول الموحّدة في كرهها لإسرائيل، ومعارضتها لاميركا ، ومقاومتها الضغط الخارجي فيما يتعلّق بالإرهاب

وإنـــتاج الأسلحة النووية. وعلى الرغم من أن الخطر ملازم للديمقراطية، فإن مثل هذه النتيجة مستبعدة. فالإسلام أكثر قدرة من الشيوعية على جمع هذه المجتمعات معـــاً، لكن ما من حركة واحدة تستطيع التوفيق بين الاختلافات الثقافية والدينية ضمن هذا المعتقد.

إن مقـــولة مـــبارك والقـــادة العرب المماثلين له في العقلية هي أن الأحزاب السياسية المنظمة حول الإسلام غير ديمقراطية وميّالة إلى العنف. ذلك هو الافتراض الـــذي اعتمدته الولايات المتحدة في أعقاب الانتخابات الجزائرية في سنة 1991. وهـــو رأي لا يمكن استبعاده ببساطة. وعلينا في الواقع الافتراض بأن الانتخابات الحـــرّة قـــد تؤدّي إلى أنظمة إسلامية متشدّدة في بعض البلدان. لكن لا يمكن منع مـــشاركة الأحزاب السياسية التي تحظى بدعم واسع على أساس افتراض بشأن ما يمكـــن أن يفعله بعضها. ومن السهل جداً على حكومة قمعيّة أن تسمّي كل من يخالـــف سياســـاتها "إرهابـــياً". وقد تكون التسمية ذاتيّة التحقّق: غالباً ما يكون الاضـــطهاد ســـبباً للعنف أكثر مما هو حل له. وإذا أريد للديمقراطية أن تتجذّر في الـــشرق الأوســـط، لا يمكن استبعاد الأحزاب الإسلامية. وعلى مرّ التاريخ، كان للعديـــد مـــن الأحـــزاب السياسية الشرعية أصول خارج إطار القانون، بل يجب تـــشجيع حركات ارتبطت بالإرهاب ذات يوم على نبذ العنف والانتقال إلى التيار السائد.

يمكـــن تقديم النصح لمن يشعر بقلق من الإسلاميين بأن من الأفضل ألا يشغل بالـــه كثيراً في حظر مثل هذه الأحزاب بل في التحدي الذي تفرضه منافستهم في صـــندوق الاقتـــراع. وفي قصّة "ثلج" (Snow)، أوضح الكاتب التركيّ أورهان باموك نجاح الأساليب التي اتّبعها الإسلاميون:

> أمـــا بالنسبة للإسلاميين فإنهم ينتقلون في مجموعات من بيت إلى بيت، للقيام بـــزيارات منـــزلية؛ ويقدّمـــون للنساء قدوراً وآنية، وآلات تعصر البرتقال وصـــناديق صـــابون، وبرغل، ومنظّفات. وهم يركّزون على الأحياء الفقيرة؛ إنهم يتودّدون إلى النساء، ويحضرون صنّارات يخيطون بها بخيط ذهبيّ على أكـــتاف ملابس الأطفال لحمايتهم من الشرور. يقولون، امنحوا اصواتكم الى

حـزب الرفاه، الحزب الذي يتبّع تعاليم الله. لقد وصلنا إلى هذا الإملاق لأننا ابـتعدنا عن طريق الله...". إنهم يفوزون بثقة الغاضبين والمذلولين والعاطلين عـن العمـل؛ يجلسـون مع زوجاتهنّ اللواتي لا يعرفن من أين تأتي الوجبة التالـية، ويقدّمون لهنّ الأمل؛ ويعدون بمزيد من الهدايا... إننا لا نتحدث فقط عن أدنى الجماعات الدنيا. بل إن العاملين - وحتى التجّار - يحترمونهم، لأن هؤلاء الإسلاميين أكثر جدية في العمل، واستقامة، وتواضعاً من سواهم.

إن إشـراك الأحزاب الإسلامية سيمنحها حصّة في العملية الديمقراطية، مثلما يمـنحهم اسـتبعادهم المصلحة في محاولة تدمير تلك العملية. الديمقراطية قيّمة لأنها تقـدّم الوسـيلة لحـل أصعب المشاكل بدون عنف، من خلال الحجّة، والنقاش والتـصويت. إن أصعب المشاكل في العالم العربي اليوم تدور حول القضايا نفسها التي تهمّ الأحزاب الإسلامية بالدرجة الأولى: ما الذي يطلبه الإسلام؟ كيف يعرّف الإرهاب؟ ما الذي يجب أن يتعلّمه الشبّان؟ كيف نوازن بين المطالب الحديثة والقيم التقليدية؟ ومن الأفضل إزالة الالتباس المحيط بهذه القضايا من خلال إجراءات الأخذ والعطـاء الديمقـراطية بـدلاً من محاولة حلّها من خلال دورات العنف والقمع المتكرّرة.

ربمـا تكـون بعض الفئات مصمّمة فعلاً على تحقيق السيادة عن طريق القوة والإرهاب. وإدراكاً لذلك، على كل حزب سياسي التقيّد بقواعد الديمقراطية، بما في ذلـك اللاعنف واحترام الإجراءات الديمقراطية، مثلما تعهّد بذلك العديد من الأحـزاب الإسـلامية بالفعل[1]. لكن الطريقة الأفضل على المدى البعيد لتهميش المتطرّفين العنيفين هي فتح أوسع مجال ممكن لوجهات النظر غير العنيفة. ولن يدفع

(1) وفقـاً لتقريـر "الإسـلامية في شمال إفريقيا 1: ما خلّفه التاريخ" (نيسان/أبريل 2004) (Islamism in North Africa I: The Legacies of History, April 2004)، وهـو تقريـر صـادر عن مجموعة الأزمات الدولية (International Crisis Group)، "لم تعد الحركات الإسـلامية فـي شمال إفريقيا تشجب الديمقراطية باعتبارها غير إسلامية أو تدخل فكرة معاكـسة للدولـة الإسلامية في الدول التي توجد فيها بالفعل. بل إنها في الواقع ترفض صـراحة الأفكار الثيوقراطية وتعلن قبولها المبادئ الديمقراطية والتعددية واحترام قواعد اللعبة كما تحددها الدساتير القائمة.

شـــيء أي حـــركة سياسية نحو المركز بسرعة أكبر من الحاجة إلى إيجاد سياسات لاجـــتذاب الأصـــوات. وقـــد عبّر الرئيس بوش الذي يعرف شيئاً عن الفوز في الانـــتخابات عـــن ذلك على هذا النحو: "ربما يقول... بعضهم، 'صوّت لي، إنني أتطلّـــع إلى تفجـــير أميركـــا'، لكن... أعتقد أن الأشخاص الذين يترشّحون إلى مناصـــب يقولون، 'صوّتوا لي، إنني أتطلّع إلى إصلاح الحفر في الطرقات أو التثبّت مـــن وجـــود خبـــز على موائدكم'". وعبّر تيب أونيل عن النقطة نفسها بطريقة أخرى: "كل السياسة محلية".

علـــى القـــادة العرب أن يعرفوا بأن التقدّم نحو الديمقراطية سيكون له نتائج مؤاتية على علاقاتهم بالولايات المتحدة، وأن العكس صحيح أيضاً. ويجب أن تحظى البلدان التي تتقدّم نحو الديمقراطية بمعاملة خاصة في مسائل مثل التجارة والاستثمار والمعـــونة، وعلـــى واشنطن أن تنأى بنفسها عن الحكومات التي ترفض الاعتراف بحقوق المواطنين.

على الولايات المتحدة أن تدعم الديمقراطية في الشرق الأوسط، مثلما تفعل في ســـواها من المناطق في العالم وللأسباب نفسها. لكن آمل أن تتقدّم في ذلك بشيء مـــن التواضع. الديمقراطية ليست عطيّة من الخالق أو الولايات المتحدة، إنها نظام حكم على كل بلد أن يختار تطويره بالسرعة التي تناسبه وعلى طريقته. في خطاب بـــدء الولاية الثانية، قال الرئيس بوش، "لقد أعلنّا منذ نشأتنا أن لكل رجل وامرأة على هذه الأرض حقوقاً وكرامة وقيمة لا نظير لها". ولم يضف بأن نصف سكان الـــولايات المتحدة الذين لا نظير لقيمتهم لم يكونوا يتمتّعون بحقّ الانتخاب في المئة والثلاثين سنة الأولى، أو أن الملايين كانوا مقيّدين في السلاسل في الخمس والسبعين ســـنة الأولى، أو أنـــه كـــان لا بـــدّ من إزاحة حضارة أخرى قبل بناء الحضارة الأميركية.

علينـــا أن نكـــون واقعـــيين بشأن ما نتوقّعه. الإدارة تعتبر أن تحويل الشرق الأوســـط ضروري للحفاظ على سلامة الأميركيين – وهي ليست مقولة يمكن أن يـــستخدمها المصلح العربي العادي. الديمقراطية العربية، إذا ما تحقّقت، ستأتي بغية تحقيق طموحات العرب. ولن تغيّر بين ليلة وضحاها كيف ينظر العرب إلى العالم،

ولــن تحثّ على الصلح مع إسرائيل، ولن تضمن إحلال الليبرالية الاجتماعية. لكن الانتخابات مع ذلك خطوة في الاتجاه الصحيح إذا أدّت إلى نقاش سياسي حقيقي. وهناك اختلاف كبير بين مجتمع تتوقّف فيه الآراء على "ما يعتقده الجميع" ومجتمع يبدأ الناس فيه بالقول، "دعني أقول لك رأيي".

عندما كنت في الحكومة، غالباً ما كنت أقدّم اقتراحاً يرفضه زملائي في ذلك الوقت ليعودوا ويقبلوه لاحقاً عندما يكون بوسعهم الادّعاء بأنه اقتراحهم. وغالباً ما رفضت أيضاً اقتراح شخص آخر لأقبل به بعد أن تتاح لي فرصة منحه المزيد من لــتفكير. ولا يمكن أن يُتوقّع من القادة العرب أن يوافقوا على الديمقراطية بين ليلة ضـــحاها، أو إذا بدا أنهم مجبرون على ذلك. لكن يمكن أن يأمل العالم بأن يروّج بعضهم على الأقلّ لنظام يشبه الديمقراطية، حتى إذا أطلقوا عليه اسماً آخر. وعندما يــدث ذلـــك، لــن يكون منّة من الغرب. بل سيحدث ذلك لأن القادة العرب علّموا، ربما بالطريقة الصعبة، أن أقوى قوّة في العالم هي رغبة الإنسان في أن يكون حرّاً، كما قال جون كنيدي قبل سنين عديدة.

الفصل السادس عشر

الإسلام في الغرب

بعد أن أصبحت وزيرة الخارجية بوقت قصير، قمت برحلة حول العالم. كانت المحطات الخمس الأولى في أوروبا. ولم تُثَر مسألة الدين إلا في ألمانيا، وكان الدين المعنيّ دين العلم (طائفة أو فرقة دينية تدّعي القدرة على علاج النفس والجسد بمزج العلوم الطبيعية بالطقوس الدينية). فقد زعم الألمان أن دين العلم طائفة تهدف إلى جمع المال ولذلك حظروه. واعتبرته الولايات المتحدة (لأسباب لا تتعلّق بطوم كروز) ديناً مشروعاً. وفي سنة 1997 تحوّل ذلك إلى خلاف ديني.

انتهت تلك الفترة من البراءة. فالهجمات على مركز التجارة العالمي (البرجين التوأمَين)، وتفجير القطارات في مدريد، والانفجارات في مترو الأنفاق بلندن قد أضفت شيئاً من الاكتئاب على تطلّعاتنا المستقبلية. لقد اختلفت هذه الأعمال الإرهابية في حجمها، لكنها تشابهت في المشاعر التي أثارتها وفي الصور التي طبعتها في عقولنا: الدخان، والوجوه الملطّخة بالدم، وعمّال الإغاثة القلقين، والأقارب الباكين، وقداديس على ضوء الشموع وأكوام الزهور المهجورة. وكما يمكن التوقّع، قد قرّبت المآسي بين الأوروبيين والأميركيين، لكن في تضامن أفسده التشاجر. فالقادة متفقون على هدف الحيلولة دون وقوع مزيد من الهجمات، لكن ليس على أفضل السبل لتحقيق ذلك. وفي أسفاري، قد وجدت العديد من الأوروبيين غاضبين بشأن العراق ومقتنعين بأن تناقض مشاعر الرئيس بوش تجاه العملية القانونية وخطابه عن الخير مقابل الشرّ يؤدّي إلى زيادة أعداد الإرهابيين أكثر مما يؤدّي إلى هزيمتهم. فالأوروبيون، الذين عاشوا مدة طويلة تحت تهديد الإرهاب من العديد من المصادر، يشعرون بالحيرة من الزعم الأميركي بأن 9/11 غيّر كل شيء. فقد أوحت إدارة بوش من جانبها بأن بعض الأشخاص على الجانب الآخر للأطلسي لاياخذون التهديد على محمل الجدّ، ويشيرون على وجه

الخصوص إلى انسحاب القوات الإسبانية من العراق بعيد وقع تفجيرات القطارات في مدريـــد – وتلك خطوة سيّئة التوقيت منحت الإرهابيين ما كانوا قد سعوا إليه بالضبط.

ترجع تجربتي الخاصة مع الانفجارات في أوروبا إلى سنواتي الأولى عندما كنت أختبئ في الملاجئ مع عائلتي وجيراننا في أثناء معركة بريطانيا. لم يكن هناك شك في ذلك الوقت من الملوم على الإرهاب. غير أن مسألة المسؤولية نوقشت بحدّة في أعقـــاب الهجمـــات التي وقعت في لندن في تموز/يوليو 2005. بعضهم، بمن فيهم عمـــدة لندن (من اليسار السياسي) والسياسي المحافظ كنيث كلارك (من اليمين)، عـــزوا الهجمات إلى تورّط بريطانيا في العراق، ولام آخرون الخطاب الحاقد لبعض رجـــال الدين المسلمين المقيمين في بريطانيا. وكلا التفسيرين غير مقنع تماماً. لقد سهّل غزو العراق على الأئمّة الراديكاليين التأكيد على أن كل المسلمين يتعرّضون للهجوم، لكن الإحساس بالاضطهاد لا يقدّم تبريراً أخلاقياً لتفجير قطارات الأنفاق في لـــندن. ويجـــب تحميل الخطباء الناريين المسؤولية عن إثارة الحفائظ دون قصد، لكن ذلك لا يعني أن من الذكاء إعطاءهم العصا التي يضربون بها القفير.

تطـــوّر الـــنقاش إلى خلاف مستمر بشأن تعريف القيم الأوروبية، وحدود الخطـــاب الحـــرّ، والمشكلة المتنامية لدمج المهاجرين المسلمين. فمنذ سنة 1975، تـــضاعف عـــدد السكان المسلمين في القارة الأوروبية ثلاث مرّات بسبب ارتفاع معدّلات الولادة وتدفّق العمّال من شمال إفريقيا، والشرق الأوسط وجنوب آسيا. وإذا اســـتمرّت هذه الاتجاهات، فسيشكّل المسلمون نحو 10 بالمئة من السكان في الاتحـــاد الأوروبي بحلـــول سنة 2020. في هذه الأثناء، ينتظر عشرات الملايين من المهاجـــرين المحتملين فرصتهم بضجر في الشوارع المزدحمة بتونس والرباط والجزائر ودمـــشق. لقد حدث تسرّب في السدّ الذي يفصل بين أوروبا المسيحية والشرق المسلم، كما يستطيع أن يشهد كل من أمضى الوقت مؤخّراً في التنقل على أرصفة مدن مثل لندن وباريس وبرلين، ما أدّى إلى تغيّر في ثقافة أوروبا.

إن لقـــدوم المهاجرين في أي مجتمع تأثيراً على إحساس البلد المضيف بنفسه. ففـــي الـــولايات كانت كل موجة متتالية من الهجرة تولّد مخاوف من أن تضعف

الهــويّة الأميركــية أو تُفقــد. وقد أطلق الارتفاع الأخير لعدد الشعوب الآسيوية واللاتينـــية مثل ردّ الفعل المتقلّب هذا، لكن التكيّف أصعب في أوروبا التي لم تعتد بلدانها كثيراً على استيعاب الأجانب. وقد أعطى توسّع الاتحاد الأوروبي إلى الشرق والـــشمال والجنوب نكهة طازجة للسؤال القديم عما يعنيه أن تكون أوروبياً. هل هو مجرّد سؤال عن المكان الذي تنام فيه ليلاً، أم أن الإجابة تتحدّد بالقيم والعادات والمعـــتقدات؟ وكما لاحظ أحد قادة الكنيسة في ألمانيا، "أن لبلدان أوروبا الثقافة الأساســـية نفسها. إننا نعرف كيف نعيش سويّاً مع الكاثوليك والبروتستانت لأن لدينا إيماناً مشتركاً بالمسيح واعتقادات مشتركة. لكن العلاقات مع المسلمين مختلفة تماماً... الولايات المتحدة هي تجمّع لشعب من العديد من الثقافات. لكن للبلدان الأوروبية تقليدياً الشكل نفسه والثقافة نفسها".

كنت في الحادية عشرة عندما وصلت عائلتي إلى الولايات المتحدة. وعلى الرغم مـــن أنـــي فخـــورة بتراثي الأوروبي، فقد كان التكيف مع موطني الجديد طموحي الوحـــيد. كنت متلهّفة لأن ينظر إليّ على أنني مراهقة أميركية حقيقية، لذلك كنت أمـــضغ اللبان، وأقرأ الكتب الهزليّة، وأقلّد طريقة زملاء الصفّ المسايرين للموضة في اللبس والكلام. وكنت أنـــزعج كثيراً عندما يتصرّف والديّ كأجنبيين، حيث كانت والدتي تقرأ الطالع، ووالدي متمسّك بالشكليات بحيث يرتدي معطفاً وربطة عنق حتى عـــندما يـــصطاد السمك. في أوروبا اليوم، نجد الانقطاع بين الأجيال في العديد من العائلات المسلمة معكوساً، حيث قد يكون كبار السنّ أكثر التزاماً بالموالفة من أبنائهم أو أحفـــادهم. إذ يـــشعر الشبّان في بيرمنغهام ومرسيليا وروتردام، مثلما يشعر أولئك المقـــيمون في القاهرة والدار البيضاء، بالدعوة - أو الضغط عليهم من نظرائهم - إلى توكيد هويّتهم الإسلامية بالتعبير عن آرائهم السياسية وارتداء الشارات التي تدلّ على الدين: غطاء الرأس والحجاب واللحية.

يظهـــر تحدّي الاندماج حادّاً على وجه الخصوص في فرنسا، مسرح أعمال الـــشغب الواســـعة الـــتي وقعت في خريف سنة 2005 في أعقاب صعق مراهقين مـــسلمين هاربين من الشرطة بالكهرباء ومقتلهما عرَضاً. فقد قام الشبّان، وكثير مـــنهم عاطلون عن العمل ويعيشون في مشاريع إسكان، بإحراق آلاف السيارات

للاحـــتجاج علـــى التمييـــز، والتنفيس عن الإحباط بشأن الهجمات المتكرّرة التي يتعرّضـــون لهـــا، و"اللهو" كما اعترف بعضهم. ردّت السلطات الفرنسية بإعلان حالة الطوارئ للمرّة الأولى منذ حرب الاستقلال في الجزائر قبل نصف قرن. ولام الـــذين حلّلوا أعمال الاحتجاج الفرنسيين على التصرّف كما لو أن شعار "الحرّيّة والمـــساواة والأخـــوّة" هو الواقع بدلاً من المثال. فالدولة العلمانية الفرنسية لا تقرّ التمييـــز العرقـــي أو الديني، وبالتالي لا يوجد أساس للسياسات التي قد تسعى إلى خفـــض البطالة المرتفعة في أوساط المواطنين من أصول شمال إفريقية. فإجراء مسح علـــى أســـاس اللـــون أو المعـــتقد شيء قد يفعله الأميركيون أو البريطانيون، لا الفرنـــسيون. ويترك ذلك المهاجرين الجدد في مأزق، حيث يبلّغون بأنهم فرنسيون كاملو المواطنية، لكن غالباً ما يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية عندما يتقدّمون إلى وظيفة أو يبحثون عن شقّة أو منـــزل. ولمعالجة ذلك، قد عيّنت الحكومة مجلساً لمكافحة التمييز وقد بدأت التفكير في احتمال تنفيذ نوع من برنامج العمل الإيجابي. وســـيكون ذلك خطوة ثورية بالنسبة إلى فرنسا، وستواجه بالمقاومة حتماً من قبل الجناح اليميني المتشدّد في البلاد.

لقد كان القادة الأوروبيون، حتى قبل أعمال الشغب في فرنسا، قلقين بشكل متزايد من عدم قدرة المهاجرين الجدد على الاندماج في حياة البلدان التي اختاروها أو عدم رغبتهم في ذلك. فالمسألة ليست الإسلام والغرب بالنسبة إلى المسلمين في أوروبـــا، إذ إن حياتهم تعكس معضلة الإسلام وفرصته في الغرب. ولا تزال قدرة أوروبا على ترجمة ذلك إلى شيء إيجابي خاضعة للقياس[1].

أتيحت لي فرصة بحث هذا التحدّي في أيلول/سبتمبر 2005 في مؤتمر استضافه الـــرئيس السابق كلينتون في نيويورك. وكان من بين المشاركين مصطفى سيريتج،

(1) إن قـــضايا الانـــدماج والهويّة التي نعالجها في هذا الفصل ذات صلة بالولايات المتحدة أيـــضاً، ولكـــن بدرجـــة أقلّ. وعلى الرغم من أن أعداد المسلمين للضبط مُضلِّلة، فربما يـــشكّلون ما بين 1 و2 بالمئة من السكان الأميركيين. ثلثهم على الأقل أميركيون أفارقة مولـــودون فـــي الولايات المتحدة. ويعتبر شكل "الإسلام الأميركي" واتجاهه موضوعات حيوية للدراسة والبحث داخل المجتمعات الدينية والأكاديمية.

مفـتي البوسنة الأكبر. رأى سيريتج أن العديد من الأوروبيين تعاملوا بفظاظة مع المـساهمات التي قدّمها المسلمون واليهود إلى التاريخ الأوروبي. فقد عاشت الأسر المـسلمة طـوال قرون في أوروبا الوسطى والبلقان، ويوجد في الغرب ملايين من المهاجـرين مـن الجـيل الثاني والثالث الذين يشكّلون أعضاء كاملي العضويّة في مجتمعاتهم. لكن التدفّق الكبير للوافدين الجدد هو الذي أحدث المزيج المربك. وقال سيريتج إن على المسلمين أن يتقبّلوا عدم توقّع أن تحكم الشريعة الإسلامية في مكان يـشكّلون أقلـية فـيه، لكن على الأوروبيين أن يتقبّلوا حقّ المسلمين في العيش متـساوين مـع الآخرين. واقترح عقداً اجتماعياً يتعهّد فيه المسلمون الأوروبيون الالتـزام الـذي لا لبس فيه بالمبادئ الديمقراطية فيما يؤكّدون أيضاً على حقوقهم الـسياسية والاقتـصادية والدينـية. ورأى سيريتج أن على المسلمين التركيز على مـسؤولياتهم لكـي يكونوا جديرين بالحريّة وأن على الأوروبيين أن يدركوا أن الإسلام ليس غريباً عن ثقافتهم بل جزءاً منها.

تـواجه مهمة سيريتج تعقيداً نتيجة البيئة السياسية القابلة للاشتعال التي تلقى فـيها الاتهامات بالتحيّز عند أقلّ استفزاز من أحد الجانبين ومزاعم الراديكالية من الجانـب الآخـر. ففي أيلول/سبتمبر 2005، طبعت صحيفة دانمركيّة سلسلة من الرسوم الكاريكاتورية تصوّر النبيّ محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) وتربطه بالإرهاب. فـثارت مـوجة من الاحتجاجات، بعضها عنيف، عندما أعيدت طباعة الرسوم المُغضِبة في أمكنة أخرى في أوروبا وعرضت على الإنترنت. وقد صوّرت الهستيريا بطـريقة درامية الانقسام بين أوروبا العلمانية والمسلمين، وتَوق المتطرّفين في كافة الأطراف إلى تحويل الكراهية إلى مصلحتها. فقد كان نشر الرسوم الكاريكاتورية، علـى الـرغم مـن أنـه ممارسة لحريّة التعبير، عملاً ينمّ على التزمُّت. وكانت الاحـتجاجات ممارسـة لحريّة التعبير بشكل مساوٍ، باستثناء تلك التي تحوّلت إلى عـنف. إن هـذا الحدث الحزين بأكمله مؤسف جداً، وهو انتصار للعاطفة على العقل. غير أن المواقف التي أثارته لم تكن جديدة.

في سـنة 1991، شاركت في مسح أجرته صحيفة لوس أنجلس تايمز بعنوان "نـبض أوروبـا". ولم نفاجأ عندما وجدنا تحاملاً على مجموعات الأقلية، لكنني

ذهلت من مقدار الشعور بالحقد والضغينة تجاه المسلمين، وبخاصة الذين هاجروا من شمال إفريقيا. وفي أثناء حرب البوسنة، صدمت (واكتأبت) بموقف بعض زملائي الأوروبيين الذين بدوا أنهم يعتبرون المسلمين البوسنيين أقلّ تحضّراً من معذّبيهم الصرب والكروات. ومن الشائع في السنوات الأخيرة سماع صيحات عالية تنادي بأن "أوروبا للأوروبيين" و"عودوا إلى دياركم أيها الغرباء". ويدعو السياسيون بشكل روتينيّ إلى تشديد القيود على الهجرة في حين يشكو المسلمون من التمييز الممارس ضدّهم وأنهم ضحايا "رُهاب الإسلام". وكانت أزمة الرسوم الكاريكاتورية الأخيرة قد سبقتها أحداث قبيحة أخرى – قتل سياسي هولندي في سنة 2002 انتقد الإسلام، وقتل هولنديّ آخر في تشرين الأول/أكتوبر 2004، وهو سينمائيّ أطلق فيلماً اعتُبر معادياً للمسلمين بشكل حاقد.

في غضون ذلك، تتعرّض ثقافة التسامح، التي طالما كانت مصدر فخر كثير من الأوروبيين، إلى التشكيك في من يقول إن التشديد على "عش ودع غيرك يعيش" يؤدّي إلى فقدان السيطرة. ويشعر الخبراء بالقلق من أن أوروبا يمكن أن تصبح الأرض التالية المولّدة للإرهابيين: مكان يستطيع فيه المتآمرون إخفاء أنفسهم خلف الجدار الواقي للإجراء القانوني الصحيح، والسهولة النسبية للحصول على المزايا الاجتماعية، وتراث حريّة التعبير، وغياب عقوبة الإعدام. ويشعر القادة المسلمون من التيار السائد بالقلق من الشيء نفسه. وقد حاولوا بدأب إبعاد الميكروفون عن الإيديولوجيين الذين تتيح لهم إعلاناتهم الغاضبة احتلال العناوين الرئيسية ولكنها تحرج بل تعرّض للخطر الغالبية الإسلامية الملتزمة بالقانون[1]. غير أن وجود العناصر المتطرّفة لا يمكن دحضه.

---

(1) حفزت تفجيرات لندن القادة المسلمين الأميركيين على تكثيف جهودهم لتجنّب التطرّف العنيف. ووفقاً لسلام المراياتي، المدير التنفيذيّ لمجلس الشؤون الإسلامية في لوس أنجلس: "كان الناس يقولون في السابق، 'ليس لنا علاقة بالإرهاب، فديننا واضح ويجب أن يكون واضحاً للآخرين'. والآن لا يمكننا تحمّل أن نكون متفرّجين بعد اليوم، ويجب أن نعمد إلى التدخّل البنّاء. لذا نقوم بذلك جماعيّاً، نصرّح بصوت واحد ونبلغ أطفالنا بأن عليهم أن يقوموا بما هو صواب، ولا يمكنهم أن يرتبكوا ويصدّقوا أي شخص يأتي إليهم ويقول أن هناك مجالاً للعنف".

في نيسان/أبريل 2004، كشفت الشرطة البريطانية عن مخزون يبلغ وزنه نصف طن من سماد نترات الأمونيوم، وهو مكوّن متفجّر استُخدم سابقاً في الهجمات الإرهابية في بالي وتركيا. وأدّى هذا الاكتشاف إلى اعتقال ثمانية مسلمين. وفي وقت لاحق من ذلك العام، أوقفت الشرطة الإسبانية مجموعة من الباكستانيين الذين زُعم ارتباطهم بالقاعدة. وفي أوائل سنة 2005، فكّكت الشرطة الألمانية والفرنسية خلايا لتجنيد المتمرّدين في العراق. واعتُقل ناشطون تابعون لمنظمة أبي مصعب الزرقاوي الإرهابية في ستّة بلدان أوروبية. ويقدّر المسؤولون البريطانيون أن ما بين 10.000 و15.000 مسلم في المملكة المتحدة يدعمون القاعدة وأن 600 منهم تلقّوا تدريباً على يد مجموعات عنيفة في أفغانستان أو سواها.

من المحبط للسلطات أن المشبوهين بالإرهاب لا يتلاءمون بشكل دقيق مع أي تحليل ديموغرافي. فعلى الرغم من أن معظم منفّذي تفجيرات مترو الأنفاق يأتون من عائلات مهاجرة، فإنهم بريطانيو المولد، وأحدهم ميسور الحال، وليس لأحد منهم ماضٍ عنيف. وإذا كان هناك نمط ما، فهو أن المجنّدين يشهدون تحوّلاً حادّاً في موقفهم من الدين. فالمسلم الذي ينساق مع الحياة دون الاكتراث إلا قليلاً بدينه قد يجد فجأة هويّة جديدة من خلال التديّن والتشدّد. وأبلغني رئيس الوزراء البريطاني، طوني بلير، "ثمة جزء من الطائفة الإسلامية غير مندمج في المجتمع. اليهود والهندوس والصينيون وغالبية المسلمين قد اندمجوا فيه، لكنْ هناك جيوب من المسلمين مكرّسون للتطرّف". ونظراً لعدم وجود سلطة مركزية في الإسلام السنّي، فلا موجب لأن يكون المرء عالماً دينياً لكي يعظ. ويقول بلير، "في هذه الأحياء ينهض أحدهم ويعلن، 'إنني إمام وهذه هي الفتوى'". لذلك يمكن أن يكون الأئمّة الراديكاليون خطرين جداً. فهم لا يعلّمون الإسلام الحقيقي ولكنْ إسلاماً شوّهته السياسة ونوعاً من الاستشهادات القرآنية المنزوعة من سياقها التي يفضّلها بن لادن. ويمكن أن ينخدع الشبّان المسلمون الباحثون عن شيء ذي مغزى يهتمّون به فيظنّون أنهم وجدوه في الدعوة إلى الجهاد، فيولدون ثانية كإرهابيين.

ومما يزيد الطين بلّة أن السجون في أوروبا مليئة بالمسلمين على نحو غير متناسب. فهم في فرنسا يشكّلون غالبية المساجين. ويخشى الخبراء في مكافحة

الإرهـــاب أن يكون المجرمون المجال الرئيسي لنوع التجنيد الذي تمارسه القاعدة[1]. فقلّـــة هـــي السجون الغربية المجهّزة لتقديم توجيه أخلاقي لعدد كبير من النـــزلاء المسلمين. وتنبّهت الحكومات الأوروبية إلى المشكلة لكنها لم تحسم أمرها بشأن كيفـــية الاســـتجابة لذلك. قد حاول بعضها تفريق المسجونين المسلمين، ورأت أخـــرى أن ذلك ينشر الخطر فقط. والحيّز محدود في السجون على أي حال. ومن التحدّيات الأخرى إيجاد طريقة لتجنّب تحوّل الأحياء الإثنية إلى معازل (غيتوات). والأخـــيرة مـــوطن نوع من السكان المحرومين اقتصادياً والمفكّكين اجتماعياً الذين كانـــوا ينجذبون قبل قرن من الزمن إلى الوعد الطوباوي للماركسية. وقد يشعر الأشخاص الذين غادروا بلداً ليجدوا أن البلد الجديد غير مضياف بأنهم مسلوبون من أي ولاء وطني وتوّاقون للالتزام بقضية أكثر شمولاً.

لا يملـــك القادة الأوروبيون خياراً في وجه كل ذلك سوى إعادة التفكير في مقاربـــتهم للموازنة بين ضرورات الأمن ومبادئ الديمقراطية. والسؤال المطروح في الدوائـــر الدينية والعلمانية على السواء هو هل من الأحكم محاولة استيعاب عادات المهاجرين وقيمهم أم الإصرار على امتثالهم التامّ للقواعد الأوروبية. يرى المتشدّدون أن الحـــوار غـــير مجدٍ لأنه يفشل في الوصول إلى الأشخاص الذين من المرجّح أن يتـــسبّبوا بالمـــشاكل؛ فالإرهابـــيون لا يحضرون المؤتمرات المسكونيّة، ولا تثنيهم المناشدات بالاهتمامات الأخلاقيّة المشتركة. لذا يجب أن يكون الأمن أولاً.

بهذه الروح تبذل جهود في العديد من البلدان لتوسيع سلطة الشرطة للتجسّس علـــى الإرهابـــيين المشتبه بهم وتوقيفهم. وسهّلت العديد من البلدان طرد الخطباء المتطـــرّفين، كما بدأت برامج لتدريب المعتدلين منهم على أمل رعاية تطوّر شكل أوروبي مـــن أشكال الإسلام. وقد بدأت بعض البلدان بتمويل المساجد لكي يقل

---

(1) اعتنق ريتشارد ريد الذي صعد طائرة متوجّهة إلى ميامي في كانون الأول/ديسمبر حاملاً قنـــبلة فـــي حذائـــه الإسلام في سجن بريطاني. وأصبح محمد بوييري، قاتل السينمائي الهولـــندي ثيو فان غوخ، راديكالياً في أثناء حكم بالسجن لمدة سبعة أشهر. وفي أواخر ســـنة 2004، اعـــتقلت الشرطة الإسبانية ثلاثة عشر مهاجراً من شمال إفريقيا للتخطيط لنسف المحكمة الوطنية بمدريد. وكان الرجال مجرمين حكم عليهم فترات قصيرة فالتقوا في السجن وقرّروا تشكيل مجموعتهم الإرهابية الخاصة، شهداء المغرب.

اعتمادها على مصادر تشير بالانفصال بدلاً من الاندماج الاجتماعي. وفي هولندا، يطلب من رجال الدين المسلمين إلقاء الخطب بالهولنديّة بدلاً من العربية. وقد تحرّكت حكومة بلير لحظر الجماعات التي لها سجل في دعم الإرهاب ووضعت لائحة سوداء لمنع المتعاطفين من دخول بريطانيا وترحيل الموجودين فيها بالفعل. كما اتخذت خطوات لتحريم الخطب والمقالات ومواقع الإنترنت التي تحضّ على الإرهاب.

تستند الديمقراطية إلى فرضية تسوية الخلافات السياسية عبر عملية من النقاش المفتوح. والحكومة الديمقراطية التي توقف كل صنوف التعبير تجد نفسها على الفور في أرض غريبة سائرةً على خطى الطغاة. لم يكن الشيوعيون الذين سيطروا على تشيكوسلوفاكيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية يتسامحون مع الانشقاق، ولذلك انتهى الحال بعائلتي في الولايات المتحدة. وقد ملأ الدكتاتوريون لمدة قرون سجونهم بالأشخاص الذين حُكم على أفكارهم بأنها خطيرة، أو مزعجة، أو يمكن أن تحرّض على العنف ضدّ النظام السائد. ومؤخراً استخدم الطغاة في العديد من البلدان التهديد بالإرهاب كعذر لإسكات الخصوم العنيفين وغير العنيفين على السواء. والخطر القائم في أوروبا اليوم (والولايات المتحدة، في هذا الشأن) هو أن الفارق بين الدعوة إلى الإرهاب وانتقاد السياسات سيصبح مشوشاً، ما يحوّل القانون إلى وسيلة لخنق النقاش المشروع.

غير أنه يجب قياس هذا الخطر إزاء مخاطر أخرى، بما فيها احتمال أن تؤدّي الكلمات الملتهبة إلى أفعال مثيرة للفتنة، وهو تسلسل يوجد له سوابق كثيرة. ويقول المثل القديم عن حريّة التعبير إنها لا تصل إلى حدّ الصياح "حريق!" في مسرح مزدحم. إننا في مسرح مزدحم الآن، وأعتقد أن من المنصف حظر الخطب العامة التي تهدف بشكل واضح إلى الحضّ على الإرهاب. كما أجدني متفقة مع تحذير بلير للذين يصلون إلى بريطانيا العظمى من بلدان أخرى، سواء بحثاً عن ملاذ سياسي آمن أو فرصة اقتصادية. فقد قال، "الإقامة هنا تحمل في طيّاتها واجباً. وهذا الواجب هو المشاركة في القيم التي تحافظ على نمط الحياة البريطانية ودعمها. ولا يوجد مكان بيننا للذين يخرقون هذا الواجب ويحاولون التحريض على الكراهية أو ارتكاب العنف ضدّ بلادنا وشعبها". والتحذير نفسه ملائم للولايات المتحدة.

عـــندما أقـــول ذلك، فإنني أضع ثقتي في حيويّة وقوّة المجتمع المدني الأميركي والأوروبي والقضاء المستقل والديمقراطية نفسها للحماية من سوء استعمال السلطة. إن الـــتوازن الـــذي علينا على جانبي الأطلسي السعي إليه لا يعدو أن يكون نتاج الحسّ السليم: توقيف من يريدون تدمير نظامنا، دون أن نقوّض بأنفسنا المبادئ التي تحدّد هذا النظام.

إن النصر الحقيقي على الإرهاب لن يتأتّى من خلال إسكات أحد، وإنما عبر تضخيم الأصوات الأكثر عقلانيّة مثل صوت مصطفى سيريتج. وفي أوروبا، كما في ســـواها، المعـــركة التي يعوّل عليها أشدّ تعويل هي تلك التي تشنّ للفوز بقلب الإسلام وروحه على كافة المستويات، داخل العائلات والأحياء والمجتمعات المحلية والأمم. وفي هذه المعركة يمكن أن يُحدث كل حليف فرقاً، ويجب السعي لكسب كـــل حلـــيف محتمل. لذلك السبب أشعر بالقلق حيال احتمال أن تدير الولايات المـــتحدة وأوروبا ظهرها إلى الشعب التركي وحكومته، وهم أصدقاء الغرب منذ مدّة طويلة وفي موقع فريد يمكّنهم من المساعدة.

دمّـــر النـــصر الـــذي حقّقـــه الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ما تبقّى من الإمـــبراطورية العثمانية؛ وبرز من رمادها شيء غير معهود من قبل: دولة إسلامية علمانـــية. أُنشئت جمهورية تركيا على صورة رئيسها الأول، كمال أتاتورك، وهو رجل ذو همّة عالية عازم على بناء بلد حديث وذي توجّه غربي. ووصف أتاتورك الدين بوقاحة بأنه "خنجر مسموم موجّه إلى قلب شعبي". وفي ردّ على الدراويش والمـــشايخ الحائزين على رضى الجمهور في ذلك الوقت، أعلن، "إنني أرفض بشدّة التـــصديق بـــأن هناك اليوم، في ظل العلم والمعرفة والحضارة المنيرة... وفي المجتمع التركـــي المتحضّر، رجالاً بدائيين جداً لكي ينشدوا حسن الحال المادي والأخلاقي بتوجيه من... شيخ".

حطّـــم أتاتورك أسس المجتمع، فأبطل الخلافة الإسلامية وأكّد سيطرة الدولة على الدين. وبتوجيه منه، أغلقت المدارس الدينية، وأُضفي صِبْغة لاتينية على اللغة التـــركية، واعـــتُمد دســـتور على النمط الغربي، ووضع حدّ لممارسة الفصل بين الجنسين في الصفوف الدراسية وأمكنة العمل. وأعلن، "لن نلحق بالعالم الحديث إذا

حدّثـــنا نصف السكان فقط". وفي العقود التي تلت منذ ذلك الوقت، عمل الجيش التركي بمثابة قيّم على ميراث أتاتورك، محافظاً على الطبيعة العلمانية للحكومة. وفي ســـنة 1960 تقدّمت تركيا التوّاقة إلى تعزيز مكانتها كبلد غربي بطلب العضوية في ســـسوق الأوروبـــية المشتركة، التي أصبحت الاتحاد الأوروبي فيما بعد، ولا تزال ىرع الباب.

الاتحـــاد الأوروبي ينتقي أعضاءه، على غرار كل الأندية الخاصة بعلْية القوم. لا يقابَـــل تـــدخّل وزراء الخارجـــية الأميركيين بالترحاب. ومع ذلك بذلت ما رسعي، عندما كنت أشغل منصبي، لدفع زملائي الأوروبيين في اتجاه قبول تركيا. كانـــت وجهـــة نظري، المنعكسة في السياسة الأميركية، أن ثمة حاجة إلى تركيا لمزدهرة والموالية للغرب لضمان الاستقرار في منطقة حسّاسة. وسررت عندما أعلن الاتحـــاد الأوروبي في سنة 1999 بأن تركيا مرشّح رسمي. ومنذ ذلك الوقت، تقوم تـــركيا بالتدقيق في لائحة طويلة من التغيّرات المطلوبة لكي تفي بالمعايير الأوروبية. فقـــد أبطلـــت عقوبة الإعدام، وأصلحت القضاء، واعتمدت قانوناً جزائيّاً (قانون عقوبات) جديداً، وغيّرت القوانين المصرفية وطبّقت مجموعة أقوى من تدابير حماية حقـــوق الإنـــسان. وقد نُفّذت معظم الإصلاحات بقيادة حزب السلام والتنمية الإســـلامي، وهـــو الحزب الذي خالف الصورة النمطية الإسلامية بقبول نموذج أتاتورك العلماني، والانتقال إلى الوسط السياسي، واحترام حقوق المرأة والأقليات على العموم.

لتـــركيا أهمية فريدة لأنها العضو الوحيد في حلف شمال الأطلسي المنضمّ إلى مـــنظمة المؤتمر الإسلامي، وهي منظمة تمثّل كل الدول الإسلامية في العالم؛ وهي أيضاً من البلدان الإسلامية القليلة التي تقيم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل. ووفقاً لتعـــبير وزيـــر الخارجـــية التركيّ، عبد الله غول، "فيما يتحدّث الناس عن صدام الحضارات، فإن تركيا تشكّل جسراً طبيعياً للحضارات. وكل ما نحاول عمله هو اســـتخدام موقعنا للتقريب أكثر بين الإسلام والغرب". وردّد يوشكا فيشر، وزير الخارجـــية الألماني في ذلك الوقت، الفكرة نفسها، "إن تحديث بلد إسلامي استناداً إلى القيم المشتركة لأوروبا سيكون يوماً مشهوداً لأوروبا في حربها على الإرهاب".

لذا فإن قرار الاتحاد الأوروبي في كانون الأول/ديسمبر 2004 باتخاذ الخطوة التالية بالإعلان عن أن تركيا كانت قد حقّقت ما يكفي من التقدّم لتبرير بدء مفاوضات رسمية بدا بمثابة اختراق. والسؤال هو ما إذا ستؤدّي هذه المفاوضات إلى تقبّل الأوروبيين الأتراك المسلمين أو إلى الإعراض عنهم دبلوماسياً؟

عندما رفض المقترعون الفرنسيون والهولنديّون في حزيران/يونيو 2005 دستوراً جديداً مقترحاً للاتحاد الأوروبي، ألقي الكثير من اللوم في ذلك على المشاعر المعادية للأتراك. وعلى الرغم من أن معظم القادة الأوروبيين عبّروا عن دعمهم طلب تركيا، فإن غالبية الناخبين لا يزالون غير مقتنعين. فعملية توسيع الاتحاد الأوروبي تستند إلى رؤية القارة بأنها دينامية وتتطلّع نحو الخارج، لكن كثيراً من الأوروبيين يفضّلون الحفاظ على موقعهم بعناد - في وجه العولمة. فقد مكّن التوسيع بالفعل الملايين من العمّال الجدد من المنافسة على الوظائف. ويتردّد الأوروبيون في فتح حدودهم وأسواقهم أمام تركيا، وهي بلد كبير (يضم 70 مليون نسمة) وفقير (يبلغ الدخل الفردي فيه نصف الدخل الفردي في بولندا) في آن معاً.

غير أن المصاعب تتجاوز الدولار واليورو إلى مسألة جوهريّة أكثر: هل تتوافق الثقافة التركيّة مع ثقافة أوروبا؟ لقد كان احتقار المسلمين الذي لقيته في أثناء النزاع البوسنّي موجّهاً إلى تركيا أيضاً. ويعكس ذلك الوقائع بأن كل أوروبا قد شنّت حرباً على الأتراك في وقت ما وأن اليونانيين قد تصادموا تكراراً مع تركيا بشأن قبرص وبعض الجزر في بحر إيجه، وأن المسيحيين لم ينسوا المجازر التي ارتكبها الأتراك بحقّ الأرمن في أثناء الحرب العالمية الأولى. وقد غرس هذا التاريخ، البعيد في بعض جوانبه، تحاملاً دائماً. لذا فقد فاخر رئيس الوزراء الإيطاليّ سيلفيو بيرلوسكوني "بتفوّق" الحضارة الأوروبية مقارنة بحضارة "البلدان الإسلامية". وقد أعلن فاليري جيسكار ديستان، وهو رئيس أسبق لفرنسا، أن "تركيا ليست بلداً أوروبياً"، وقال إن قبولها يعني "نهاية الاتحاد الأوروبي". وقبل أن يصبح الكاردينال جوزيف راتزينغر البابا بندكتوس السادس عشر، عبّر عن معارضته طلب انضمام تركيا بالقول، "إن تركيا ممثّلة دائماً في قارة مختلفة تتباين مع أوروبا".

لقد كان فشل حصول الدستور الأوروبي على قبول المقترعين نكسة مؤلمة لدعاة الاتحاد الأوروبي الموسّع. وهناك كثير ممن يودّون الآن نسيان مسألة عضويّة تركيا. لكن يجب ألا يحدث ذلك. فإبعاد تركيا سيكون خطأً فادحاً. كما سيكون هديّة أخرى للذين يسعون إلى إثارة المشاكل بين المسلمين والغرب.

ثمة عدّة مبادئ يجب عدم إغفالها إذا افترضنا أن المفاوضات ستتقدّم. أولاً، لقد توصّل الاتحاد الأوروبي وتركيا إلى تفاهم. وإذا واصلت تركيا تقدّمها السريع نحو المعايير الأوروبية، يحقّ لها أن تتوقّع تصديق القادة الأوروبيين على عضويّتها. وذلك هو المبرّر المنطقيّ من وراء عملية التفاوض.

ثانياً، يجب عدم التشكيك في هويّة تركيا الأوروبية. فعلى الرغم من أن الإمبراطورية العثمانية كانت، في بعض الأوقات، أكثر من قوّة أوروبية، فإنها لم تكن قطّ أقل من قوّة أوروبية. فما زالت تركيا تضمّ مناطق تتطلّع إلى الداخل، و لم تتغيّر فيها الحياة اليومية سوى قليلٍ في مئات السنين. لكن منذ مجيء أتاتورك، لا يمكن التشكيك في أن التركيز التركي يتمحور حول الغرب.

ثالثاً، يجب ألا تكون هويّة تركيا الدينية مهمة في طلبها الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. ويبدو هذا المبدأ أساسياً لكنه غير مفهوم بوضوح. فالحكومات في أوروبا وتركيا على السواء علمانية. وأوروبا، على غرار الولايات المتحدة، قد تطوّرت إلى مجتمع متعدّد الطوائف. ولا يقلّ عن ذلك أهمية أن الاتحاد الأوروبي منظّم وفقاً للمعايير الديمقراطية الغربية، وتأتي حريّة المعتقد في جوهرها. وسيكون استبعاد بلد على أسس دينية خيانة للقيم الأوروبية.

أخيراً، من غير المقنع القول، كما يفعل بعضهم، أن عضوية تركيا ستمزّق الانسجام الثقافي في أوروبا. ربما كان هذا النمط من التفكير معقولاً في أيام السوق المشتركة التي ضمّت ستة أعضاء فقط، لكن الاتحاد الأوروبي اليوم، بأعضائه الخمسة والعشرين، متعدّد الثقافات. ولن تغيّر إضافة تركيا من الأمر شيئاً.

في أثناء التسعينيات من القرن الماضي، كان احتمال الانضمام إلى حلف شمال الأطلسي يقدّم حافزاً قوياً للإصلاح الديمقراطي داخل بلدان أوروبا الوسطى والشرقية المتحرّرة حديثاً. وبدلاً من استئناف العداوات التاريخية، ركّزت هذه

الـــبلدان على الأهداف الديمقراطية، مثل احترام حكم القانون، وحقوق الإنسان، وروح المبادرة الحرّة، والسيطرة المدنية على المؤسسة العسكرية. ووفّر حلف شمال الأطلـــسي مغنطيـــساً جاذباً للتغيّر الإيجابي، ومكاناً يستطيع فيه الأعداء السابقون العمل معاً لمصلحة السلام. والاتحاد الأوروبي يقوم بوظيفة مماثلة، لكنها لن تستمرّ إلا إذا تـــرك بابه مفتوحاً على الطلبات الجديدة وعقله منفتحاً في الحكم على هذه الطلبات. ويقول طوني بلير، "لا شك في أن القليل جداً من البلدان ستصوّت بنعم إذا أجـــري استفتاء بشأن عضوية تركيا اليوم. لذا يجب علينا العمل من أجل تغيير هذه المفاهيم. لقد قطعت تركيا شوطاً طويلاً لتتأهّل، وسيكون من الخطأ الآن أن ندفعها في الاتجاه الآخر".

إن علـــى الولايات المتحدة واجبات تقوم بها. فقرار إدارة بوش غزو العراق صـــدم الأتراك، حيث يرى 40 بالمئة منهم الآن أن أميركا عدوّهم الأكبر - وفقاً لمسح أجري في سنة 2005. وتتوقّع إحدى الروايات التركية الأكثر مبيعاً، "عاصفة معدنـــية"، غـــزواً أميركياً لتركيا، ما يحفز تفجير قنبلة نووية قرب البيت الأبيض انتقاماً من ذلك.

لقد زرت تركيا عدّة مرّات في السنوات الأخيرة. وأعرف أن الغزو الأميركي للعراق - جار تركيا - دون أخذ وجهة النظر التركية في الحسبان لن يُنسى قريباً. وتتأثّـــر وجهـــة النظر هذه بشدّة بعلاقة الأتراك المعقّدة والشائنة بالأكراد. فتركيا تشعر بالقلق من أن الاستقلال الذاتي لكردستان داخل العراق سيشجّع الطموحات الوطنـــية لدى أقليتها الكردية؛ وهي منـــزعجة من أن الإرهابيين الأكراد احتفظوا بموطـــئ قدم داخل شمال العراق؛ كما أنها قلقة من أن أكراد العراق سيتغلّبون على الأقلـــية التركمانية العراقية في سعيهم للسيطرة على مدينة كركوك الغنيّة بالنفط. لـــيس من الضروري أن تتوافق السياسة الأميركية المستقبلية مع السياسة التركية في هذه القضايا، لكن من الحكمة تخفيف الوطء والتعاون حيث أمكن، والإصرار في الوقت نفسه على احترام حقوق الأكراد.

عـــند النظر إلى المستقبل بعد عشر سنوات، يبدو من المرجّح أن تكون إيران، المـــتحالفة مـــع الغالبية الشيعية في العراق، القوّة المهيمنة في الخليج. وسيكون من

الصعب المبالغة في أهمية تركيا في تلك المرحلة، كعضو في حلف شمال الأطلسي، وزعيمة داخل منظمة المؤتمر الإسلامي، وصديقة لإسرائيل، وربما قوّة موحّدة في أوروبا والشرق الأدنى. ولذلك سيكون من الصعب أيضاً المبالغة في قيمة التعامل مع المصالح التركية بالنسبة إلى الولايات المتحدة وأوروبا. فإذا لم يحترم الغرب بلداً مسلماً مثل تركيا مستجيباً جداً لمصالحنا، فسيكون من الصعب إقناع أي بلد إسلامي آخر بأن الصداقة مجزية.

يمكن أن تحدث الإيماءات الصغيرة فرقاً كبيراً أحياناً. وأبديت هذه الملاحظة إلى المسؤولين الأتراك الذين لم يوافقوا ولم يرفضوا، بل انتظروا أن يتغيّر الموضوع فحسب. وكان ذلك الموضوع وضعيّة كلية حلقي للاهوت الأرثوذكسي في جزيرة هيبيليادا، على بعد نحو ساعة بالقارب من إسطنبول. بدأت كلية اللاهوت أعمالها في سنة 1844 وقد وُصفت بأنها "قطعة رائعة من فنّ عمارة القرن التاسع عشر – حسنة التهوئة، وسقوف مرتفعة، وتطل على المدينة في كل اتجاه". أغلق هذا المرفق في سنة 1971 لا لأنه مرتبط بشيء هدّام بل لأن وجوده اعتُبر إهانة للقواعد العلمانية في الدولة التركيّة. فإذا لم يكن مسموحاً للمؤسسات الإسلامية بالعمل خارج الإشراف الحكومي، فلماذا يسمح بذلك لكلية لاهوت مسيحي؟ – أو هكذا كانت المحاجّة. إن هذه السياسة تدخل في فئة ما يشير إليه الأوروبيون بأنه "انسجام أحمق".

تحدّثت كصديقة وكمسؤولة أميركية أيضاً، فضغطت على الأتراك بشكل متكرّر ليعيدوا فتح كلية اللاهوت كإيماءة على حسن النيّة تجاه 250 مليون مسيحي أرثوذكسي – وهي خطوة تزيد من مغزاها حقيقة تاريخية غريبة: إن مركز المسيحية الأرثوذكسية ليس بلداً مسيحياً بل تركيا. فلم يؤدِّ حتى الفتح العثماني للقسطنطينيّة في سنة 1453 إلى إزاحة البطريركيّة – وهي المكافئ الأرثوذكسيّ للفاتيكان – عن عاصمتها التاريخية.

كانت لي، إلى جانب السيدة والرئيس كلينتون، فرصة لقاء البطريرك المسكوني بارثولوميو في مقرّه بوسط مدينة إسطمبول القديمة. وهذه المدينة جميلة، لكنها مزدحمة وكثيرة الضوضاء. بالمقابل، كانت البطريركيّة هادئة،

وروحانيّة، ومتواضعة. والبطريرك نفسه تركي وخرّيج كلية حلقي وعضو سابق في احتياطــي الجـيش التركــي. وهو يبدو، كما تتوقّع أن يكون عليه مظهر البطريــرك، ذا لحية طويلة بيضاء، مرتدياً ميداليات، وصليباً معلّقاً حول عنقه، وعباءة سوداء رائعة.

منذ أن تسلّم بارثولوميو منصبه في سنة 1991، حاز على الثناء لنشاطه البيئي وجهوده للتوفيق بين الأديان. وهو رجل مثقّف يتحدّث سبع لغات وعميق الفكر، لكنه بدا محتاراً حقاً عند التحدّث عن كلية حلقي للاهوت. لم يكن يفهم من الذي اســتفاد مــن إخــلاء المؤسسة، أو كيف يمكن أن تعتبر كلية اللاهوت أو الأقلية المــسيحية الصغيرة في تركيا تهديداً لأحد. بل على العكس، إذ إن إعادة فتح كلية اللاهــوت ســيعزّز احتمالات تركيا بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وهو هدف يدعمه البطريرك تماماً. الحكومة تقول إنها تريد إيجاد حلّ، لكن بعد خمس وثلاثين ســنة، يجــب استكمال ذلك البحث. ربما لا يبدو مصير مركز تعليم واحد مهماً كــثيراً في العلاقــة بين حضارتين، لكن في عالم كعالمنا، يجب ألا نبخس تقدير ما يمكن إنجازه من خلال أعمال متحضّرة.

الفصل السابع عشر

إفريقيا: تسابق على الأنفُس

قال أحد الزعماء المسلمين في أوغندا، "إننا ماضون – كما ترين – نحو الصدام". فالولايات المتحدة "لن توقف قتالكم حتى تتخلّوا عن دينكم". وقال أوغندي آخر، وهو قسّ مسيحي، "هناك سباق. الإسلام أيضاً يسابق للفوز بنفوس الأفارقة وعقولهم". ما من مكان يظهر فيه الانبعاث الديني العالمي أكثر مما يظهر في إفريقيا، حيث يتقدّم تيّاران متعارضان وتنقل ثورة المعلومات عظات الكهنة المسيحيين ورجال الدين المسلمين إلى غرف المعيشة والقاعات العامة. وتقدّم البلدان الإسلامية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (لا سيما المملكة العربية السعودية وليبيا) المال لتعليم الشبّان الأفارقة وتلقينهم. وتتكاثر المساجد والمدارس الدينية، ويتزايد التعليم بالعربية. وقد أخذ الإسلام يجد له موطئ قدم كبير حتى في بلدان مسيحية تقليدياً مثل زامبيا ورواندا وأوغندا.

في غضون ذلك، تزايد عدد الأفارقة الذين يسمّون أنفسهم مسيحيين إنجيليين في ثلاثة عقود فقط من 17 مليوناً إلى 125 مليوناً. بالإجمال، يوجد حالياً أكثر من 350 مليون مسيحي إفريقي. والمنطقة مليئة بالكنائس المطلة على الشوارع، وخيم الإحياء الديني، وملصقات مصدّات السيارات التي تقول "المسيح منقذ". وقد تُرجم الكتاب المقدّس والنصوص ذات الصلة إلى مئات اللغات واللهجات المحلية. ومن المتوقّع خلال عشرين عاماً أن يفوق عدد المسيحيين في إفريقيا عددهم في أوروبا وأميركا الشمالية مجتمعين، حيث يساعد المبشّرون من جنسيات متعددة في هذا التوسّع وتموّله الكنائس المنتسبة في الغرب.

كثير مما تقدّم جيّد. فالإيمان يقدّم الأمل للناس الذين قد تدفعهم أعباء المشاقّ اليومية إلى القنوط. ويمكن أن تبني المساهمات المالية – سواء أكانت من الشرق الأوسط أم من وسط أميركا – المدارس والعيادات ومراكز المجتمع التي يوجد حاجة

ماسّــة إليها. ويمكن أن تعمّق الصلة المقامة بين الأفارقة والكنائس الأميركية تفهم وجهة النظر الأميركية بشأن الديمقراطية والإرهاب وتدعمها، في حين ترفع الوعي بشأن إساءات مثل العنف المنــزلي والجَدْع التناسلي الأنثوي.

غير أن التوسّع المتزامن للنشاط الإسلامي والمسيحي يطرح المخاطر أيضاً. فقد نــشأت عداوات حادّة في البلدان التي يتقسم فيها السكان مناصفة. أما في البلدان التي يهيمن فيها أحد المعتقدين، فغالباً ما تشعر الأقلية بأنها تتعرّض للترهيب. تشكّل إفــريقيا الــيوم ساحة حرب دينية، مثلما كانت ساحة حرب إيديولوجية في أثناء الحــرب الــباردة. وكان لتلك المنافسة أيضاً جانب إيجابي. فقد موّلت الولايات المــتحدة وأوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي والصين التنمية في إفريقيا، وكان كل مــنهم توّاقاً إلى تعليم الجيل الصاعد من النخبة الإفريقية واستدراجه إلى معسكره. غــير أن الأرواح التي فقدت عند تصاعد العداوات المحلية إلى حروب بالوكالة في لائحــة طــويلة من البلدان، من بينها تشاد والسودان وإثيوبيا والصومال وأنغولا وموزمبــيق وزائير، رجحت (فاقت أهمية) على تلك المكاسب. وفيما كان وكلاء الــشيوعية والعــالم الحــرّ يتناطحون، تدفّقت الأسلحة على المنطقة، وقُدّم الدعم للحكومات المُطاوِعة والأوتوقراطية، فيما أهملت المهمات الأساسية لبناء الأمّة مثل غرس الإحساس بالمواطنية وإنشاء مؤسسات الدولة القوية.

من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، لا تزال الحاجة القصوى في إفريقيا على ما قد كانت عليه قبل عقود: بناء مجتمع متماسك ذي حكومات صالحة قادرة على حفز التنمية. وتزداد صعوبة هذه المهمة في كل حالة تقريباً بالتنوّع الإثني واللغوي الــذي يميّز إفريقيا. كما أنها تزداد تعقيداً عندما يشعر الأفراد أو المجموعات بأنهم مدعوّون إلى تقديم هويّتهم الدينية على ولائهم الوطني.

لا تطلب الديانات الإفريقية التقليدية مثل هذا المطلب. فالمعتقدات الأرواحية شــاملة وتستند إلى قناعة بأن الله موجود في كل الكائنات والأجسام، وأن أرواح الأســلاف موجــودة في العــالم أيضاً. وخلافاً للمعتقدات الجديدة، فإن طقوس المعــتقدات الأرواحية تمتزج بالحياة اليومية، وليس هناك فصل قسري، كأن يذهب المــسيحيون إلى الكنائس، أو يوقف المسلمون أنشطتهم للصلاة، وليس هناك أيضاً

مواجهات رمزية بين الإنجيل والقرآن، والصليب والهلال، والعربية واللغات المحلية.

إن الحكـومة الـتي تحاول تنظيم جيش أو بناء نظام أفضل للمدارس الرسمية ستجد نفسها في موقف حرج إذا كانت كل خطوة ستحلّل من حيث تأثيرها على المنافـسة بين المسيحيين والمسلمين. ويمكن أن تصبح هذه المنافسة مريرة لا سيما عـندما ينتقل المبشّرون أو الدعاة من الاحتفاء بمعتقدهم إلى تشويه المعتقد الآخر. ربما يُنكر المسلمون على أتباع المسيح إشراكهم لأنهم يعبدون ثلاثة آلهة بدلاً من إله واحد. وقد يصف المسيحيون محمّداً (صلّى الله عليه وسلّم) بأنه شخصية غير مثيرة للاهتمام كيسوع الذي اجترح المعجزات. وعلى الرغم من أن إظهار التفوّق يمارس منذ أن زار التجّار المسلمون السواحل الإفريقية في القرن السابع، فإن التهجّم ازداد حدّة في السنوات الأخيرة.

يمكـن أن يفـاقم تدخّل الأجانب - معظمهم بنية حسنة بخلاف بعضهم - الـذين لهـم مصلحة في القتال الداخلي بإفريقيا العلاقات المضطربة بين المسلمين والمـسيحيين. وثمّـة مخاطر من احتمال أن يستغلّ الأفارقة "الشطّار" هذا الاهتمام الخارجـي لاجـتذاب الدعم المالي والسياسي لقضايا "أخلاقية" في الظاهر، لكنها خـلاف ذلـك في الواقـع. ولن تكون هذه المرّة الأولى. فغالباً ما تحوّل الأموال المجمـوعة للجمعـيات الخيرية الإسلامية لجني مكاسب سياسية أو شخصية، وفي الثمانينـيات من القرن الماضي، دعم اليمين المسيحي الأميركي مجموعات متمرّدة موزمبيقية وأنغولية مجرمة ادّعت مظاهر دينية لكنها أضمرت مصالح أنانية.

يعدّ العنف بين المسيحيين والمسلمين مشكلة في أنحاء متعدّدة من إفريقيا، لكنه قد أحدث فوضى على وجه الخصوص في السودان، أكبر بلد في القارّة، ونيجيريا، أكثـرها سكاناً. يوجد في كلا البلدين الكثير الذي يُقاتل عليه، بما في ذلك النفط. وكلاهما نافذ – السودان في شمال إفريقيا وشرقها، ونيجيريا في الغرب — وقد شغَل كل منهما الاهتمام الأميركي.

علـى الـرغم مـن توجيه الانتقاد في الغالب إلى صنّاع السياسة الأميركية لتجاهلهم إفريقيا، فإنني زرت القارّة سبع مرّات عندما كنت في الحكومة، وتوقّفت في اثـني عـشر بلداً تقريباً، بما فيها السودان في ربيع 1994. كنت قلقة لأنها أوّل

مهمـــة دبلوماســـية لي إلى حكومة نعتبرها معادية. مع ذلك، استقبلنا الرئيس عمر البـــشير بشكل حسن، وهو ضابط عسكري سابق وصل إلى السلطة بانقلاب قبل عدّة سنوات.

البـــشير في أوائل الخمسينيات من العمر، ولديه شاربٌ ولحية قصيرة ومهذّبة جـــيّداً. كان صارم الهيئة يستخدم عصاً خشبية وكان وقوراً لكل من حوله. لكن قـــبل بـــدء العمل، قدّم إليّ كوباً طويلاً مليئاً بسائل زهريّ اللون له قوام الشامبو. غالباً ما كنت أمزح بأن عملي كسفيرة هو الأكل والشرب نيابة عن بلدي، لكن بـــدا ذلـــك خارج نداء الواجب. لاحظت أيضاً أن البشير لا يشرب أي شيء، وكـــذلك كل السودانيين الآخرين. لماذا؟ خطر ببالي أنهم ربما يحاولون تسميمي. وفـــيما كان البشير يراقبني، رشفت ما أملت أن يكون رشفة مقنعة من المشروب، لكـــنني لم أكـــد أبـــتلع شـــيئاً. كان المذاق حلواً، شبيهاً بمذاق ببتو - بسمول. وانفرجت أساريري لأنني لم أنقلب رأساً على عقب.

لم يكن فحوى اجتماعي بالبشير مرضياً أكثر من المشروبات. فقد كنت أريد توجـــيه تحذيـــر بشأن دور السودان كملاذ آمن للإرهابيين. لم يلقَ التحذير آذاناً صـــاغية. وفي الـــسنة التالـــية تورّطت الحكومة في محاولة فاشلة لاغتيال الرئيس المـــصري. في ذلك الوقت كانت السلطات السودانية تسعى إلى تحويل بلدها إلى طلـــيعة إقليمية للثورة الإسلامية. ومن بين الإرهابيين الذين استضافتهم أسامة بن لادن، حيث كانت شركة الإنشاءات التي يمتلكها تبني طرقاً سريعة تساعد الجيش السوداني في حربه ضدّ الانفصاليين الجنوبيين.

تبلغ مساحة السودان ربع مساحة الولايات المتحدة، إذ يمتدّ من شواطئ البحر الأحمر إلى مركز القارّة الاستوائي. النصف الشمالي فقير، تسكنه غالبية من العرب المسلمين. والجنوب أكثر فقراً، وهو موطن للأفارقة السود الأرواحيين والمسيحيين، فضلاً عن بعض المسلمين. ويمكن أن تُطعم أرضه الخصبة السودان وغيره بسهولة، لكـــن تنتـــشر فيه الألغام بدلاً من ذلك. منذ نيل الاستقلال في سنة 1956، شهد السودان حرباً أهلية شبه متواصلة. فقد سعى الزعماء في الخرطوم، عاصمة البلاد، لمـــدة عقـــود إلى تعزيز سيطرتهم السياسية على الجنوب، ومردّ ذلك جزئياً وجود

النفط فيه. وفي الثمانينيات من القرن الماضي سعوا إلى السيطرة الدينية أيضاً، عبر فرض الشريعة الإسلامية. وقد قاتلت حركات التمرّد الجنوبية، على الرغم من انقسامها، من أجل الاستقلال أو الحصول على الحكم الذاتي. وأدّى ذلك إلى أزمات إنسانية دائمة، زادها سوءاً العواصف الرملية ومواسم الجفاف، وتميّزت بالقتال الوحشي الذي حصد أرواح مليونيْ نسمة. وعلى الرغم من أن كل الأطراف مذنبة في قتل المدنيين، فإن حكومة البشير كانت المسيء الرئيسي، بمنع وصول المؤن الغذائية، ومهاجمة القرى، ودفع أعداد كبيرة من النازحين إلى مناطق لا يمكنهم البقاء على قيد الحياة فيها.

وفي مسعى لتقديم المساعدة، التقيت مرتين، في إفريقيا وواشنطن بشهود على مجزرة الحرب. وأثارت غضبي قصصهم عن المجاعة والرقّ والاضطهاد الديني والتعذيب ومهاجمة المدنيين. وتأثّرت بفتى سوداني قدّم إليّ منحوتة لمسيح أسود ومجموعة من أطفال المدارس الأميركية الذين قدموا للصلاة. وأفاد أسقف كاثوليكي يعمل في جبال النوبة Nuba Mountains عن موت أكثر من اثني عشر طالباً في الصفّ الابتدائي كانت قد قُصفت مدرستهم عمداً. وكان قد ردّ ناطق باسم الحكومة على المأساة بطريقة فظيعة قائلاً إن المدرسة هدف عسكري مشروع. وطلب الأسقف مساعدتي في التأكيد على عدم تكرار مثل هذه الأعمال العدائية. كنت جالسة هناك وخلفي كل قوّة الولايات المتحدة، لكن كان عليّ أن أقول إنني لا أعرف على وجه التحديد ماذا يمكننا أن نفعل أكثر. فقد مضت مدّة طويلة منذ أن فرضنا على السودان عقوبات اقتصادية وعسكرية. كما كنّا قد أوضحنا للسودان أيضاً بأنه إذا كان يريد إقامة علاقات طبيعية معنا، فإن عليه أن يضع حدّاً لانتهاكات حقوق الإنسان. وعلاوة على ذلك، كنّا قد قدّمنا أكثر من مليار دولار من الإغاثة الإنسانية لضحايا القتال، وأوفدنا مبعوثاً خاصاً للمساعدة في المفاوضات بين الحكومة والجنوب.

قاد المتمرّدين الجنوبيين جون غارانغ، وكان في الثانية والخمسين عندما التقيت به أول مرّة في أوغندا. وهو رجل ممتلئ الجسم حاسر الرأس تعلو وجهه لحية يخالط بياض الشعر فيها سواده. تعلّم غارانغ في الولايات المتحدة، ولديه سمعة طيّبة

بالقـدرة على استمالة الجميع من المنظّرين الشيوعيين إلى الناشطين المسيحيين، و لم أتفاجأ عندما أخبرني بما كنت أريد سماعه بالضبط: أنه دعم السلام، واحترم حقوق الإنسـان، وكـان راغبـاً في تقاسم السلطة، وأمل بأن يتطوّر السودان إلى بلد ديمقراطي. كنّا نعرف أن سجل غارانغ أبعد من أن يكون خالياً من الشوائب، و لم نكـن نريد توريط الولايات المتحدة في الحرب الأهلية الدائرة في السودان. غير أننا رأيـنا فـيه الـشخص الوحيد القادر على توحيد الجنوب، وبالتالي الضغط على الحكومة لإصلاح أساليبها. وكان لدى غارانغ، وهو مقاتل منذ سنة 1983، ذكاء القائـد الحقيقـي وحضوره، كما أنه كان واسع الاطلاع في الشؤون الاقتصادية والعـسكرية على السواء. وكانت صوره تزيّن اللافتات وقمصان التي شيرت T-shirts في كل أنحاء الجنوب.

ربما لم تغيّر هجمات 9/11 كل شيء، لكنها أخافت فعلاً الحكومة السودانية ودفعـتها إلى تحـسين علاقاتها مع واشنطن. فجأة بدأ البشير يقدّم المساعدة بشأن الإرهاب والتفاوض بشكل مثمر مع غارانغ، وإن يكن من دون استعجال. وقد قام المبعوث الأميركي، جون دانفورث، وهو قسّ أسقفي بروتستانتي وسناتور سابق، بحثّ الشمال والجنوب على العمل دون هوادة. وأخيراً، توصّل الطرفان إلى تسوية في سـنة 2005، تعهّـدا فـيها بدمج الجيشين وتشارُك السلطة السياسية والعوائد النفطـية. وقـوبل الاتفـاق بالتهليل. ويقدّر بأن نحو مليون شخص احتشدوا في الساحة المركزية في الخرطوم للهتاف للعدوّين اللدودين – البشير وغارانغ – عندما رفعا يديهما المتشابكتين كشريكين في حكومة جديدة. وعمّ الرقص الشوارع.

أجري الاحتفال في 9 تموز/يوليو وتزامن مع تعيين غارانغ نائباً للرئيس. كانت تلك النقطة الحاسمة. فبعد ثلاثة أسابيع، قُتل غارانغ في حادث سقوط مروحية. وقد قارنـه الـذين رثوه بموسى، وهو القائد الذي وافاه الأجل بعد أن ظهرت ملامح الأرض الموعـودة أو تكـاد. أخفى نائب غارانغ، سالفا كير مايارديت، صدمته وصافح البشير متعهّداً باحترام ميراث قائده المتوفّى عن طريق تنفيذ السلام.

إنـني أشـعر بوجـود أمل لكني لست متفائلة. فهناك شخصيات في الجيش الـسوداني اسـتفادت من الترتيبات السابقة وليس لديها مصلحة في التشارك مع

الجنوب. ويمكن التعويل عليها في تأليب الفئات المختلفة في المنطقة بعضها ضدّ بعض، وتلك مهمة ستكون أسهل نظراً لأن غارانغ لم يَعُد على مَقْرَبة لإطفاء القتال. وسيكون على المتمرّدين السابقين مداواة انقساماتهم وفي الوقت نفسه تطوير المهارات الإدارية المطلوبة لتقديم الخدمات العامة. ستساعد الأمم المتحدة، وكذلك عودة كثير من المتعلّمين السودانيين من المنفى، لكن لا حدود لما تحتاج إليه تنمية البلاد. وسيبقى الانقسام الديني عائقاً أمام الوحدة فيما يسعى الناشطون الإسلاميون إلى توسيع نفوذهم في وجه المقاومة التي يبديها المسيحيون والأرواحيون. بل إن الأخطر من ذلك أن اتفاق السلام لا ينصّ على السلام في كل أنحاء السودان. فهو لا يشمل منطقة دارفور في غرب السودان، حيث تسعى ميليشيات مجرمة بدعم من الحكومة إلى تطهير المنطقة من غير العرب على حساب مئات الآلاف من الأرواح. كما واصلت الحكومة توفير الملاذ الآمن لجيش الرب الأوغندي المقيت. وعلى الرغم من جهود البشير لإعادة تأهيل نفسه على المستوى الدولي، فإن عليه الإجابة عن كثير من الأسئلة.

من المقرّر بموجب اتفاق السلام إجراء انتخابات وطنية في سنة 2009. وبعد ذلك بسنتين، يحقّ للجنوب إجراء استفتاء بشأن الانفصال أو عدمه. وعلى الرغم من أن غارانغ كان ملتزماً بإبقاء البلاد موحّدة، فإن احتمال الانفصال يغري العدد من أتباعه. وعلى الولايات المتحدة أن تبذل ما بوسعها للمساعدة في تماسك التسوية السلمية وتشجيع حلّ دبلوماسي أوسع يضع حدّاً في النهاية للإبادة في دارفور والعنف الرهيب في شمال أوغندا. وإقراراً منّا بعدم إمكانية تجاهل الدين، علينا أن نوضح بشكل مستمر أن سياساتنا تهدف إلى مساعدة كل السودانيين. ويجب أن نعمل ما في وُسعنا لمنع القوى التقسيمية الخارجية، سواء أكانت مسيحية أم مسلمة، من مفاقمة الأوضاع سوءاً بتدخّلها. وبدلاً من محاولة فعل كل شيء بأنفسنا، علينا العمل بالشراكة مع البلدان الأخرى ودعم مساعي مجموعات الوساطة القائمة على الدين لتوثيق عرى الوحدة في السودان عبر الخطوط الجغرافية والعرقية والدينية الفاصلة.

تخبرنا التجربة بأن نصف البلدان الخارجة من حرب أهلية قادرة على تحقيق استقرار دائم، وأن النصف الآخر ينغمس في العنف ثانية خلال خمس سنوات. لقد

استغرق الوصول إلى سلام بين الشمال والجنوب في السودان أكثر من عقدين، والمحافظة على ذلك السلام – وتجنّب دورة جديدة من المعاناة – تتطلّب جهداً لا يقل عن ذلك كثافة ومدّة.

لا يتوجّه وزراء الخارجية الأميركيون عادة إلى أقدم مدينة في غرب إفريقيا – كانو بنيجيريا – ولذلك ذهبت إليها. كان العالم يشهد تغيّراً، وعلى الدبلوماسية الأميركية أن تبني صلات جديدة. لبثت كانو – وهي مدينة تضمّ نصف مليون نسمة الآن – حوالى ألف سنة مركزاً للإسلام. وأصبحت منذ سنة 1804 مقرّاً لخلافة أنشئت بعد سلسلة من الحروب الدينية. وتسلّم الخليفة الثالث عشر، الأمير آدو بايرو، منصبه منذ سنة 1963. وكان مضيفي في سنة 1999.

اجتمعت به في قصره. وبعد تبادل التحيّات، توجّهنا إلى قاعة بديعة الزخرفة. دعاني إلى الجلوس على يمينه، وتلك إيماءة احترام، قبل أن يجلس على مقعد مغطّى بجلد حمل. كانت عمامة الأمير المتقنة، ذات الألوان التي تمثّل قريته وعائلته، تطوّق عنقه لتُعقد على رأسه. وقد أدلى أمام المراسلين بملاحظات ترحيبية باللغة المحلية (الهاوسا)، ثم تحدّثت بالإنكليزية. وخرجنا إلى الباحة تحت مظلّتين من الريش ومشينا بين الجموع التي احتشدت، وكانت تنفرق أمامنا كبحر أحمر من البشر. كان الجميع يغنّون، لكن لم يكن لديّ أي فكرة عما كانوا يقولونه. ولوّح الشيوخ بالبنادق عالياً، فيما لوّح آخرون بالحراب. لوّحت بيدي، فيما رفع الأمير قبضته، وعرفت أيضاً أن ذلك علامة على الاحترام. ارتقينا منصّة حيث دعيت إلى مشاهدة عرض فريد يسمّى دوربار: احتفال بذكرى الجهاد المظفّر قبل قرنين يظهر فيه المزيج الغنيّ للثقافة الإفريقية والإسلامية.

بدأ الحدث باقتراب الحكّام المحليين وإظهار الاحترام للأمير، مصحوبين بالمغنّين والراقصين والمتلاعبين بالكرات والمشاة على الطوّالات. ثم امتطت مجموعات من الرجال الجياد محيين وحاملين لافتات تشير إلى القرى التي كانوا قد قدموا منها. وأطلق المحاربون نيران البنادق القديمة في الهواء. ولوّح الأطبّاء العرّافون بالخناجر ملامسين عيونهم وشفاههم وآذانهم في عرض روتيني يجعلهم رمزياً حصينين من الأذى. وقد بدا الفخر على الأمير وهو يعرّف بأن عدداً من الفرسان الذين يرتدون

أزيـــاء مزركـــشة جداً هم بعض أبنائه البالغ عددهم سبعة عشر ولداً. وفي ذروة الاحـــتفال، نظّم المحاربون صفوفهم وهاجموا منصّة العرض. ومن حسن الحظّ أنني أبلغت بتوقّع ذلك، وقيل لي أيضاً إن الجياد ستتوقّف في الوقت المناسب. وقد فعلوا ذلـــك بالضبط. تأثّرت بذلك ونهضت لإبداء تقديري لهم، وبدأت أصفّق قبل أن أتذكّر بأن عليّ رفع قبضتي المشدودة.

تعكـــس احتفاليات دوربار وغيرها من التقاليد المرتبطة بالخلافة الفخر الثقافي والديني للمجتمع الإسلامي. ويشكّل الأمير تجسيداً لذلك الفخر وشخصاً يتسامى فـــوق الانقـــسام في آن معاً. فهو موضع احترام المسلمين والمسيحيين على السواء داخـــل منطقـــته وفي كل أنحاء نيجيريا. ويجب رعاية مثل هذه الشخصيات لأن ســـكان نـــيجيريا البالغ عددهم 128 مليون نسمة ينقسمون بالتساوي تقريباً بين المعتقدين. وكما في السودان، يهيمن المسلمون على القسم الشمالي من البلاد، فيما يهيمن المسيحيون على الجنوب. وتعتبر قدرة الطرفين على العيش بانسجام ضرورية لمستقبل بلدهما.

لكن أعراض الاضطراب ظهرت للأسف بُعيد زيارتي. فقد انتخب النيجيريون أولوسيغون أوباسينغو، وهو سياسي سجّل عليه بعض النيجيريون الشماليون ثلاثة مآخـــذ. أولاً، أن أوباسينغو جنوبي؛ ثانياً، أنه مسيحي؛ ثالثاً أنه كان قد تعهّد في أثـــناء حملة الانتخابات بتطهير الجيش النيجيري من الفساد، ومعظم ضبّاطه الكبار مـــن المسلمين الشماليين. لهذه الأسباب أثار انتصار أوباسينغو الخوف في الولايات النـــيجيرية الشمالية وأدّى إلى ردّ فعل فوري. ففي إحدى الولايات، اعتقد مرشّح لمنـــصب الحاكم أن من الملائم التعهّد بحماية المصالح الإسلامية إذا انتُخب بتطبيق الشريعة الإسلامية. وكانت المناورة ناجحة، وسرعان ما طبّق الوعد. وحذا الحكّام الآخرون حذوه، وخلال أسابيع تمّ تطبيق الشريعة في اثنتي عشرة ولاية، بما في ذلك كانو.

في الـــسابق، كان يُسمح للمسلمين بتسوية أحوالهم الشخصية (مثل الطلاق) في محاكمهم الخاصة، في حين كانت السلطات المدنية تتولّى المسائل الجنائية. وكان التطبيق العام للشريعة الإسلامية يعني أن تعمّم أحكامها على نطاق أوسع. وقد برّر

القادة المسلمون هذا الإجراء بأنه ضروري لمنع الفساد، ووضع حدّ للفجور، والحدّ من الجريمة. غير أن المسيحيين شعروا بأنهم مهدّدون. فاعترضوا على مطالب دراسة القـــرآن وتعليم اللغة العربية في المدارس. وعارضوا العقوبات الصارمة التي تفرضها الشريعة (على الرغم من أنها نادراً ما تنفّذ) وفرض منع الرقص والكحول. وأشاروا دون جـــدوى إلى الدستور النيجيري الذي يمنع أي ولاية أو حكومة محلية من تبنّي دين رسمي.

مـــنذ ذلـــك الـــوقت، تفاقمـــت الحساسيات، وشارك الغوغاء المسلمون والمسيحيون في ارتكاب أعمال العنف. وفي كانون نفسها، أضرمت النار في منـــزل قـــس مسيحي متّهم بردّ مسلمين عن دينهم، فقُتلت عائلته بأكملها. ونشب قتال واسع النطاق في سنة 2002 عندما كتب أحد الصحافيين بحماسة تفتقر إلى الحكمة أن إحـــدى المشتركات في مسابقة للجمال تستحقّ الزواج من النبيّ محمد. فوقعت مئات حوادث العنف الموجّهة ضدّ الكنائس والمساجد، وغالباً ما تسبّبت بها مزاعم بـــأن أتـــباع هذه الديانة لا يحترمون الأخرى. ويقدّر بأن ما يُقرب من 10.000 شخص قد قُتلوا، وقد نـــزح آلاف آخرون. ومع أن الحكومة الفدرالية تحاول منع التحـــريض الـــديني إلا أنهـــا تفتقر إلى كل من الوسائل والسلطة الأخلاقية لتنفيذ إرادتها. وواصل القادة المسيحيون اتّهام المسلمين بالرغبة في إبعادهم تماماً عن شمال نـــيجيريا، واســـتمر اســـتياء المسلمين من جهود المسيحيين التبشيرية في أوساط طائفتهم.

إن جـــذور النـــــزاع الـــديني في نيجيريا ليست دينية بأكملها بالطبع. فقد أنـــشأت القوى الغربية نيجيريا، على غرار العديد من البلدان الإفريقية (بما في ذلك السودان، وكما في العراق أيضاً)، بضمّ عدد من المجموعات الإثنية معاً. ومنذ اليوم الأول للاستقلال، بذلت الحكومة الفدرالية النيجيرية جهوداً كبيرة لتوكيد سيطرتها علـــى المناطق المكوّنة لها. وأساء الحكّام الديكتاتوريون إدارة اقتصاد نيجيريا ونهبوا عائدات النفط، تاركين السكان أكثر فقراً وسخرية. وحيث يوجد أعداد كبيرة من المعوزين والعاطلين عن العمل، فإن أي شرارة يمكن أن تشعل حريقاً كبيراً. كما أن الـــرعاة المـــسلمين شـــبه الرحّل في نجود نيجيريا الوسطى يتقاتلون مع المزارعين

المسيحيين على حقوق الرعي والماء لمواشيهم (تسبّب تنافس مماثل على الموارد في سفك الدماء على حدود أميركا طوال قسم كبير من القرن التاسع عشر). وقد تفاقمت المشاكل سوءاً بتجمّع قلّة المطر وارتفاع معدّل المواليد، ما جعل مزيداً من الأشخاص يكافحون للبقاء على قطع صغيرة من الأرض المنتجة. وفي حين قد تكون المصاعب الاقتصادية المصدر الأساسي للعنف، فإن الخلافات الدينية تسهّل الادّعاء بأن أعمال القتل تُرتكب لغاية أسمى من حقّ رعي الماشية أو زراعة الذرة.

في السودان ونيجيريا وسواهما من بلدان إفريقيا، سيستمر وجود خطر أكثر شمولاً: المسلمون الذين يشعرون بالاغتراب يوفّرون أرضاً خصبة جداً للتجنيد في صفوف مجموعات مثل القاعدة. وتقدّم الحكومات الضعيفة والحدود التي يسهل اختراقها والحروب الأهلية فرصاً مناسبة للمنظّمات الإجرامية. لقد كان الإسلام تقليدياً الدين الأكثر تسامحاً في إفريقيا، لكن الضغوط المتطرّفة تأتي من الخارج حيث يقدّم الراديكاليون الأموال لإدارة المساجد والمراكز الاجتماعية التي تتعهّد الفقراء بالرعاية وتستميلهم إليها. ويفتقر القادة المسلمون التقليديون إلى الموارد التي تمكّنهم من المنافسة، كما أن رسالتهم على أي حال أقلّ تشويقاً بالنسبة للذين ينشدون الإثارة. وقد تمّ بالفعل العثور على عدد كبير من الأفارقة في صفوف المتمرّدين المناهضين للحكومة في العراق. وردّت الولايات المتحدة بنشر قوات في جيبوتي كجزء من فريق العمل الخاص بمكافحة الإرهاب في القرن الإفريقي. كما أنها تقوم بتدريب العديد من الجهات العسكرية في المنطقة على أساليب مكافحة الإرهاب. ثمّة أهمية كبيرة لهذه المساعي، لكنها تنطوي على كثير من المخاطر أيضاً. علينا أن نضمن أن تكون استراتيجيتنا شاملة وانتقائية على حدّ سواء. ففي أثناء الحرب الباردة، قدّمنا الدعم أحياناً إلى حكومات مناهضة للشيوعية لكنها في أمور أخرى سيّئة السمعة ورديئة أمام شعوبها. وإذا قدّمنا المعونة إلى القوى العسكرية المتعاونة معنا في قتال القاعدة والمكروهة أيضاً على نطاق واسع، فإننا سنقوّي دعوة القاعدة وجاذبيّتها.

إذا كنّا ننشد مساعدة الأفارقة في محاربة الإرهاب الذي تمارسه القاعدة، فعلينا أن نساعدهم في محاربة القوى التي ترهبهم أشدّ الإرهاب – بما في ذلك المرض،

والافـــتقار إلى المياه النظيفة، والتعليم غير الملائم، والخراب البيئي. وإذا أردنا تقديم الـــتدريب العسكري، يجب أن يكون هدفه مساعدة قوى الأمن الإفريقية في منع الحــــرب الأهلية والإبادة، بالإضافة إلى محاربة الإرهاب. كما أن علينا تطوير نهجنا في مقاربـــة المسائل الدينية. لقد كتبت سابقاً عن الحاجة إلى دبلوماسيين أميركيين متـــضلّعين في المعتقدات والممارسات الدينية للبلدان التي يعيّنون فيها. وفي الماضي، أبـــدى المسؤولون في الخارجية الذين يتقنون العربية ويعرفون الإسلام أولوية كبيرة لتعيينهم في العواصم العربية، وإعراضاً عن العواصم الإفريقية. لكن لا شك في أننا نحتاج إلى دبلوماسيين على قدر عالٍ من الكفاءة في كلا المكانين.

افتـــتح الكاتـــب النيجيري بن أوكري كتابه "أغاني السحر"، بالقول، "لم نرَ الفوضـــى فـــيما كانت تكبر، وعندما واجهنا أمواجها المتقدّمة لم نكن مستعدّين لأخـــبارها المحمـــومة وتجلّياتها الهائجة". لكن ليس لدينا عذر اليوم، إذ يمكننا رؤية الفوضى وهي تتعاظم. وكان الله في عوننا إذا نستعدّ لها.

القسم الثالث

تأملات أخيرة

الفصل الثامن عشر

المعطيات الكاملة

قـــال المهاتمـــا غاندي، "العين بالعين تفقد العالم بأكمله البصر". وفي فصول ســـابقة، نظـــرنا في الضرر الذي يسبّبه اتباع مقاربة المباراة ذات المجموع الصفري للـــدين في الشرق الأوسط وإيران والعراق وأفغانستان وأوروبا وأنحاء من إفريقيا. ويمكننا - إذا أردنا الاستطراد كثيراً في الموضوع - استعراض قضايا مماثلة في بلدان مثل إندونيسيا وتايلندا والفيليبين في جنوب شرق آسيا، وفي القوقاز والشيشان في آســـيا الوســـطى. ويمكننا تفحّص التوازن المعقّد المصاحب للسياسة الأميركية في باكـــستان، أو المشهد في لبنان، حيث يسعى المسلمون الشيعة والسنّة والمسيحيون لتحقـــيق الهـــدوء في مـــرجل تقسّمه منذ زمن طويل القضايا السياسية والعقائدية والعشائرية. بل حتى في أميركا الشمالية، حيث الإسلام هو الدين الأسرع نمواً، ثمة أســـئلة مقلقـــة عـــن التقبّل والتمييز الثقافي الذي تعزّزه المخاوف بشأن التطرّف العنيف. فقد يكون الإرهابيون الذين ارتكبوا هجمات 9/11 مولودين في الخارج، لكنهم عاشوا وتدرّبوا في أميركا لمدّة شهور قبل توجيه الضربات.

ربمـــا يستنتج بعض الأشخاص من شمولية هذه النـــزاعات وحِدّتها أن كيفية إدارة الصراع الذي يجري بالفعل هي التحدّي المركزي الذي يواجه العالم اليوم، لا كيفـــية تجنّب صدام الحضارات. وتلك صورة قاتمة جداً. فقد تكون القاعدة ومن يقلّدها راغبين في إحداث ثورة إسلامية عالمية، لكن ذلك لا يعني أنها ستنجح.

الخوف يذكي الإرهاب. ولا تستطيع القاعدة أن تأمل في الحصول على الدعم إلا إذا سُـــمح بانتـــشار الخوف. وقد وجدت الاستطلاعات أن العرب يرون في التعصّب الديني مشكلة داخل مجتمعاتهم وفي الغرب على السواء. وأن المسلمين غير راغـــبين على العموم في توريط أنفسهم في العنف. وإذا كانوا يتّفقون على شيء، فإنمـــا علـــى الطبـــيعة السلمية لدينهم. وحتى عندما كانت حركة طالبان تُمسك

بالسلطة في معظم أفغانستان، لم تكن الحركة تحظى باعتراف دبلوماسي إلا من قبل ثلاثة بلدان من بين ثلاثة وخمسين بلداً ذا أغلبية إسلامية. وقد دفعت الهجمات الإرهابية التي أوقعت قتلى في صفوف المسلمين في المملكة العربية السعودية والأردن ومصر وتركيا وإندونيسيا وبنغلادش بعض المسلمين المتعاطفين مع القاعدة إلى تغيير آرائهم.

إن إدارة بوش من جانبها غير متورّطة في حملة دينية، على الرغم من أخطائها الكبرى في تقدير الأمور. فالرئيس يدرك أن الطريق الأفضل لإلحاق الهزيمة بالقاعدة هي حرمانها من التعاطف والدعم اللذين تمكّنت من استقطابهما في أوساط بعض المسلمين. ويدرك معظم الأميركيين ذلك أيضاً. فقلّة، حتى بين المسيحيين الإنجيليين، يتفقون مع بات روبرتسون بأن مواجهة القاعدة هي في جوهرها "صراع ديني"[1]. والتعددية ترى أن الإسلام لا يحضّ على العنف أكثر من سواه من الأديان.

إنه لأمر جيّد أن تستمر المواقف الصحية نسبيّاً على الرغم من الأحداث المتتالية التي تضافرت معاً لتسميمها. والحقيقة أن معظم المسلمين لديهم مصالح متوافقة مع المصالح الغربية، وأن العرب والأميركيين سيستفيدون على السواء من تحسّن العلاقات فيما بينهم. بل إن الولايات لا تستطيع إلحاق الهزيمة بالإرهاب بدون مساعدة العرب، ولا يستطيع العرب المحافظة على التعافي الاقتصادي بدون الاستثمارات الغربية. فليس هناك أمر محتوم بشأن الحرب المقدّسة.

مع ذلك، ثمّة اختلافات خطيرة في الرأي بشأن ثلاث قضايا مشحونة بالعواطف: الأولى، صياغة تسوية محقّة وعادلة في الشرق الأوسط؛ والثانية، شرعية الوجود الأميركي العسكري في العراق؛ والثالثة، الطبيعة الإجمالية للنوايا الأميركية.

---

(1) تحدّث روبرتسون أمام جمهور من الحاضرين في القدس في سنة 2004 قائلاً: "لا تخطئوا الفهم أيها السيّدات والسادة – العالم كلّه يلفّه الصراع الديني. لا يخاض القتال من أجل المال أو الأرض، وهو ليس صراعاً بين الفقر والثروة، وليس بين العادات القديمة مقابل الحداثة. لا – الصراع يتعلّق بما إذا كان هُبَل، إله مكّة الذي يرمز إلى القمر، والمعروف باسم الله، هو الأسمى أم إله اليهود والمسيحيين يهوى الوارد الكتاب المقدّس".

وعندما تُدرك حقيقة هذه القضايا، فسيكون هناك احتمالات لإحراز تقدّم على كل جبهة.

بعد سنوات من العنف، أصبح لدى الفلسطينيين والإسرائيليين قادة جدد. ومع التغيّر يأتي الاضطراب، وكذلك الفرص. فقد قبل الإسرائيليون بقيادة شارون ما كان يرفضه الكثيرون من قبل - التسوية على الأرض ضرورية للحفاظ على دولة ديمقراطية ويهودية في الغالب. واختار الفلسطينيون محمود عبّاس، وهو ممن يؤمنون بإخلاص بأن المفاوضات، لا محاولات الترهيب، هي الطريق إلى تحقيق احتياجات شعبه وآماله الأساسية. وعلى الرغم من أن حماس في موقع جيّد الآن يمكّنها من عرقلة التقدّم نحو السلام، يبقى هناك اندفاع لدى الجانبين لإيجاد حلّ دائم. وما من شيء أفضل من تسوية سلمية إسرائيلية فلسطينية لوضع العلاقات بين العرب والغرب على أرضية صلبة.

أما بالنسبة إلى العراق، فإن توقّعات العرب منخفضة جداً بحيث يمكن أن تحدث أكثر المكاسب تواضعاً تأثيراً كبيراً. فإذا وافق السنّة العرب في العراق على العملية الديمقراطية، سيكون من الصعب على العرب في أي مكان آخر الاستمرار في التذمّر من السياسات الأميركية. وإذا خبا التمرّد، فسيكون سحب قواتنا سهلاً وآمناً. وإذا تمكّنا من الخروج طوعاً وخلال فترة معقولة، وكانت الحكومة التي نخلّفها وراءنا شرعية والبلد غير مقسّم، يجب أن يتبدّد الغضب والشكوك بشأن دوافعنا يجب أن تصبح أقل حدّة.

تظهر هذه المجموعة من "الإذا" مقدار ما يجب أن يتمّ بصورة صحيحة لكي تتغيّر المفاهيم العربية. فالرأي الحالي السائد في المنطقة، وفقاً لدراسة مشتركة أجرتها مجموعات في الولايات المتحدة ومصر، هي أن "الأميركيين متعجرفون ومتسلطون ومنحطون وغير عادلين وقساة وغير مبالين، وتدفعهم شهوتهم إلى السلطة والثروة". ووجد مسح آخر أن غالبية المسلمين تنظر إلى أميركا على أنها جشعة وغير أخلاقية وعنيفة. ولا يمكن إلقاء تبعة هذه الصور النمطية على الرئيس بوش بمفرده أو حتى أولاً، لكنها تعمّقت بالفعل في أثناء إدارته الأولى. وذلك ليس مصادفة. ففي العراق على وجه التحديد، ضحّى الرئيس عن سابق معرفة بالدعم الدولي لمتابعة هدف

اعتقد أنه محقّ، مهملاً عن قصد آراء العديد من العرب والمسلمين. واستُبعدت الجهود لتمهيد الطريق دبلوماسياً باعتبارها غير ضرورية، ما أدّى إلى شعور وزارة الخارجية، بقيادة كولن باول في ذلك الوقت، بالإحباط. وكان الرئيس يمتلك القوّة والإرادة لفرض أجندته، في السرّاء والضرّاء؛ ومن الضرّاء تنفير الرأي العام العالمي.

عندما تولّت كوندوليزا رايس منصبها في بداية سنة 2005، أعلنت أن "وقت الدبلوماسية حان". وبتوجيه منها أصبحت وزارة الخارجية واضحة أكثر في صياغة السياسة الخارجية مما كانت عليه في أثناء إدارة بوش الأولى، وبدا أن الإدارة مهتمّة جداً في العمل بالتعاون مع الحلفاء والبلدان الأخرى. بل إن الرئيس، الذي يريد على ما يبدو مداواة الجروح التي أحدثها من قبل، كلّف كارن هيوز، وهي من أكثر المساعدين الذين يثق بهم، بمهمة تنسيق الخدمات المقدّمة إلى العالم الإسلامي.

وفي مراسم أداء هيوز اليمين، قال الرئيس إنه يتوقّع منها الحرص "على أن كل هيئة ووزارة تعطي الدبلوماسية العامة مستوى الأولوية نفسه الذي أعطيه لها". وحدّد استراتيجية من ثلاث نقاط تفتقر إلى الحيوية إلى حدّ ما: طلب مساعدة القطاع الخاص، والردّ بسرعة أكبر على الدعاية الإرهابية، وحثّ الأميركيين على "دراسة التاريخ والتقاليد العظيمة للشرق الأوسط". وأضاف بأن كل مواطن "يرحّب بطالب في بيته [ضمن إطار برنامج تبادلي] هو بمثابة سفير لأميركا". المشكلة في هذه العاطفية الوردية هي أن الطلاّب المسلمين الذين كانوا ذات يوم يقفون في صفوف من أجل دخول جامعاتنا يتوجّهون اليوم إلى أماكن أخرى، وهذه فرصة ضائعة للجانبين قد يستغرق التعافي منها أجيالاً كاملة. وربما نساهم مساهمة كبيرة في الدبلوماسية العامة إذا وجدنا توازناً أفضل بين التدابير الأمنية المشروعة والسياسات التي تزيد من سوء التفاهم. فكثير من العرب اليوم لديهم انطباع بأن الولايات المتحدة تعتبرهم جميعاً إرهابيين حقيقيين أو محتملين. بل إن بعضهم مقتنع على سبيل المثال بأن على العرب الذين يسعون إلى الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة القبول أولاً بالتقاط صورة لهم وهم عراة تثبت بأنهم لا يخفون قنبلة.

ربما كنت أهزأ من هذه المخاوف المبالغ فيها لولا تجربة شخص أعرفه سأدعوه أحمد.

طالما شعر أحمد بأنه في وطنه في أميركا. فقد تخرّج من جامعة أميركية، وعمل في غرفة التجارة الأميركية في بلده، وسافر إلى الولايات المتحدة ومنها في عدّة مناسبات. وهو يعرف أميركا ويحبّها، وبذلك فهو حليف في مناهضة الإرهاب. في آب/أغسطس 2005، فيما كان في الطريق من الخارج لحضور مؤتمر كنت أنا من المشاركين فيه، أوقف أحمد في أحد المطارات بشمال الولايات المتحدة. وسئل دون أي استفزاز عن صحة "صديقه" أسامة بن لادن. ثم ترك ينتظر ساعات فيما كان يُستجوب على طريقة الشرطي الطيب/الشرطي السيئ التقليدية، وفتّش حاسوبه المحمول وحقائبه. وفي أثناء هذه المحنة، تسبّبت صورة فوتوغرافية لابنه البالغ من العمر 6 سنوات إلى اتهامه بالولع الجنسي بالأطفال. وأدّى وجود نسخة من كتاب روبرت كسلر "حرب السي آي إيه على الإرهاب"، وهو من الكتب الأكثر مبيعاً، إلى سلسلة من الأسئلة الساخرة عن "اهتمامات أحمد بالإرهاب". وحفز جدول أعمال المؤتمر الذي كان يعتزم حضوره أسئلة عن ارتباطاته بعرب آخرين. وأخيراً، أدّت نسخة عن برنامج قديم للسي إن إن عن القاعدة كان يحملها معه إلى إلغاء تأشيرته، ما لم يترك له أي خيار سوى العودة إلى بلده. ربما كان عملاء الاستخبارات يعتقدون أنهم يجعلون أميركا أكثر أمناً، لكن هذه الحادثة وما يشبهها تزيد صعوبة مهمة كارن هيوز.

قد لا تحقّق الدبلوماسية العامة الكثير ما لم تكن السياسات التي صمّمت لتدعمها قابلة للنجاح والجمهور الذي تتوجّه إليه لإقناعه مستمعاً[1]. وفي كلا الحالين، ستصبح الاحتمالات مشرقة إذا تحقّقت سيناريوهات الحالة الفضلى التي ذكرناها سابقاً في هذا الفصل؛ وإذا لم تتحقّق فإن المشاكل الحالية ستزداد سوءاً.

(1) من الأمثلة الواضحة على الارتباط بين السياسة والشعبية قرار الرئيس بوش بتوجيه الأمر بتنفيذ عملية إغاثة عسكرية ومدنية أميركية واسعة النطاق في أعقاب الأمواج المدية العاتية التي ضربت جنوب شرق آسيا في سنة 2004. فقد تحسّنت التقديرات الإيجابية للولايات المتحدة في الهند وإندونيسيا وبقيت عند مستوى مرتفع نسبياً.

فمــن الــسهل على سبيل المثال أن تحدث جولات جديدة من العنف في الشرق الأوســط. ويمكــن أن يتفكّك العراق أو لا تستقر الحال فيه، ما سيزيد من تجرّؤ المتمــرّدين ويؤدّي إلى انسحاب قوّتنا بشكل فوضوي أو بقائها إلى أجل غير محدّد دون وجــود ما يشير إلى النجاح في النهاية. ويمكن أن تتطوّر العداوات بين السنّة والــشيعة إلى منافــسة قابلة للاشتعال في المنطقة بأكملها. وبشكل عام، يمكن أن تــتفاقم التوتّرات في صفوف المسلمين وبين المسلمين والمسيحيين واليهود، ما يُفقد أتباع الديانات الثلاث رؤية القيم المشتركة.

لاحــظ المستــشار الألماني الأسبق كونراد إديناور ذات يوم أن "التاريخ هو المجموع الإجمالي لأشياء كان يمكن اجتنابها". والمواجهة العامة بين الإسلام والغرب يمكــن اجتنابها بل يجب اجتنابها. يمكن ذلك إذا كان من يمتلك القدرة على صياغة الأحداث والمواقف يقظاً حيالها. وسأقدّم سبعة أفكار التي – إذا لم تكن من أعمدة الحكمة – تنبّه على الأقل إلى الأخطاء السخيفة.

أولاً، انتهاج المحلية لا العالمية. القاعدة تحنّ إلى مسرح عالمي، وعلينا أن نمنعها مــن ادّعاء ذلك. فالمشاكل المحدّدة التي تحرّك القدر في الشيشان ونيجيريا والشرق الأوســط والعراق وغيرها من المناطق التي تنــزع إلى الاضطراب تختلف اختلافاً كبيراً، ويجب التعامل مع كل منها على حدة. فذلك يسهّل حل كل منها، في حين يعيق ميل الإرهابيين إلى تصوير كل جبهة كجزء من كفاح ديني واحد.

ثانــياً، تذكّر من هو عدوّك. هناك صناعة على مستوى ضيّق لمعلّقين غربيين متلهّفين إلى تحديد "الإسلام الراديكالي" بأنه الشيوعية الجديدة. وهناك بعض القادة العرب الذين يستغلّون بطريقة عكسية مخاوف مواطنيهم بقولهم إن الإسلام يتعرّض إلى هجــوم مــن الغرب. وذلك هراء. فلا الغرب ولا الإسلام يتعرّض لهجوم من الآخــر. غير أن القاعدة والمنظّمات التي فرّختها تهدّد الاثنين بالمخاطر. وعلينا أن نبقي شروط المواجهة في أضيق حدودها الممكنة.

ثالــثاً، لا تلعب بالثقاب. فالمناخ السياسي مفرط الحرارة بالفعل. وكل سوء حــساب للكــلام والفعل يدفع الحرارة إلى أعلى. من الناحية النظرية، الاتصالات الحديثة تهدّئ المشاعر بإنشاء أساس من الوقائع المقبولة عموماً. لكن غالباً ما تضخّم

وسائل الإعلام في الواقع العواطف بنشر شائعات مضرّة وصور صادمة (أو رسوم كاريكاتورية مسيئة) على جمهور توّاق للتفاعل معها. ففي ربيع 2005، وقعت أعمال شغب عنيفة ردّاً على تقرير وحيد غير موثّق عن أن الجنود الأميركيين كانوا قد دنّسوا القرآن. ولتجنّب أحداث مماثلة، ينبغي لقادتنا ممارسة انضباط غير عادي فيما يقولونه أو يفعلونه، وطلب توخّي الحذر نفسه من مرؤوسيهم. غير أن ذلك ليس طريقاً باتجاه واحد. يجب التنديد بإصدار إعلان يثير الحساسيات أو إساءة التعامل مع كتاب مقدّس، لكن ذلك لا يوفّر مبرّراً للعنف - ويجب الضغط على القادة المسلمين لكي يوافقوا على ذلك.

ويجب على أي حال بذل كل الجهود لتحسين الاتصالات. على سبيل المثال، إن الموقف المعادي الذي اتخذته إدارة بوش تجاه قناة الجزيرة الإخبارية العربية في غير محلّه. فجمهور الجزيرة هو الذي يحتاج المسؤولون في الولايات المتحدة إلى الوصول إليه. وبدلاً من مهاجمة الجزيرة، يجب أن تهيّئ حكومتنا أفضل الناطقين الرسميين للظهور بانتظام في برامج هذه القناة.

رابعاً، يجب أن نطوّر فهماً مشتركاً لما هو الإرهاب. فالتحكّم بالمعنى المقبول للكلمات قد يكون في السياسة أداة حيوية كالتحكّم بالأراضي المرتفعة في أثناء القتال: ومن ثم يبذل بعض الأشخاص جهوداً حثيثة لوسم فئات معيّنة من الإرهابيين بالمقاتلين من أجل الحرية. وينبغي عدم السماح بنجاح هذا المسعى. قد يكون الأشخاص الذين يستخدمون الإرهاب سعياً للاستقلال الوطني أو لمقاومة الاحتلال مقاتلين من أجل الحرية من وجهة نظرهم، لكن دوافعهم لا تبرّر أساليبهم؛ إنهم إرهابيون ويجب معاملتهم بناء على ذلك. وغالباً ما تناقشت مع قادة عرب بهذا الشأن. فما من أحد منهم يبرّر صراحة العنف تجاه المدنيين، لكن كثيراً منهم يعتبرون الهجمات الإرهابية التي يشنّها الفلسطينيون على الإسرائيليين عناصر مشروعة في الكفاح لاستعادة الأرض. بعض الخليجيين أرسلوا، على سبيل المثال، مبالغ مالية إلى أسر المفجّرين الانتحاريين الفلسطينيين، حتى إنهم أصدروا بيانات صحفية عن ذلك. وعندما احتججت، قالوا إن الأموال تقدّم "لأسباب إنسانية".

وقــد عبّــر عن وجهة النظر هذه مؤخّراً السيّد محمّد الموسوي، رئيس رابطة المــسلمين الــشيعة العالمية في لندن، حيث أكّد على "وجوب التمييز بوضوح بين التفجير الانتحاري الذي يقوم به من يحاول الدفاع عن نفسه أمام المحتل، وهو أمر مخــتلف عمــا يقــوم بــه من يقتل المدنيين، والذي هو جريمة كبيرة". أيّاً تكن الاعتــبارات الــتي يدّعــيها هذا التصريح، فإنها تختفي على ضوء السجل الفعلي للمفجّرين الانتحاريين الفلسطينيين. فكيف يمكن أن يكون دفاعاً عن النفس تفجير حافلة مدرسية أو مطعم للبيتزا أو سوق للخضر؟

إن العــنف المــوجّه بصورة متعمّدة إلى غير المحاربين خطأ قانوني وأخلاقي. وينطــبق هــذا المبدأ على الأشخاص الذين يضعون المتفجّرات في الأماكن العامة، وعلــى كــل الأطــراف في العراق والشرق الأوسط، وعلى الأفراد والميليشيات والقــوات المسلّحة النظامية سواء أكانت في خدمة نظام دكتاتوري أم ديمقراطي. وينطــبق أيــضاً على الواثقين من أن الله أجاز لهم بأن يكونوا مستثنين. إنه مبدأ شامل.

ذلك لا يعني القول إن المقارنة بين استخدامات القوّة المشروعة وغير المشروعة ستكون واضحة على الدوام. فغالباً ما يطلب إيجاد التوازن المؤلم - حتى في القضايا العادلــة - بــين المكاسب العسكرية المتوقّعة والمخاطر المحتملة على المدنيين. وقد يختلف الأشخاص العقلانيّون في بعض الحالات بشأن من هو محارب ومن هو غير محارب. لذا فإن الخطّ الفاصل أيضاً بين الدفاع عن النفس والعدوان يمكن أن يكون مــبهماً عــندما يخــشى كل جانب هجوم الجانب الآخر. وربما تؤدّي المعلومات الخاطئة إلى أخطاء مأساوية أو حوادث. وقد أصاب كلوزوفيتز عندما كتب عن أن الأحــداث في الحــرب قد تأخذ "أبعاداً مبالغ فيها ومظهراً غير طبيعي" مثل "تأثير الضباب أو ضوء القمر".

غير أن بوسعنا أن نكون واضحين على الأقلّ بشأن ما هو واضح. ليس هناك أي مــبرّر للاســتهداف المــتعمّد لغير المتحاربين أو لعدم أخذ المخاطر على غير المتحاربين بالحسبان عندما تضرب الأهداف العسكرية. ولا يحقّ للبلدان وأصحاب القــضايا الذين لا يستطيعون الحصول على القوّة العسكرية التقليدية التعويض عن

ذلك باستخدام وسائل غير تقليدية لنشر الرعب في صفوف المدنيين. وليس للبلدان التي تملك قوّة عسكرية متفوّقة ما يجيز لها أن تتصرّف بحصانة، وتكون آمنة لعلمها أن بوسعها الهروب من المساءلة عن أعمالها. فالقواعد التي تنطبق على واحد تطبّق على الجميع. وإذا تمكّن المسيحيون واليهود والمسلمون من الاتفاق على ذلك، فسيجدون أن من الأسهل الاتفاق على المسائل الأخرى[1].

خامساً، يجب أن نتحدّث عن معاملة المرأة بطريقة تؤدّي إلى تقدّم فعلي. وأنا أدعم تفعيل قدرات المرأة كمسألة تتعلّق بحقوق الإنسان الفردية وكعنصر أساسي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية على السواء. غير أن القضية لا يسعفها انتقاد الإسلام بناء على معلومات مغلوطة أو على الغرور أو التبسيط. فقليل من المجتمعات لديها السبب لتفخر تاريخياً بمعاملتها المرأة. واليوم يسألني بعض المسلمين أليس من الأفضل أن ترى المراهقة مرتدية البرقع بدلاً من أن تريها في ماخور. الإسلام لا يفرض تهميش المرأة ولا يبرّره، لكن لا يمكن أن يتجاهل المسلمون من الجنسين التمييز القرآني القائم، إذ إن القرآن بالنسبة إليهم هو كلام الله. ولا يحقّ لغير المسلمين فرض معاييرهم، ولا حاجة إلى القيام بذلك. ففي العديد من المجتمعات الإسلامية، تستطيع النساء تحقيق التطوّر والازدهار، بل يحقّقنه، على الرغم من أن هناك أخريات يكافحن أحياناً الشوفينية القاسية التي توجد بدرجة معيّنة في كل مجتمع. ومن الخطأ ذمّ الإسلام أو الافتراض بأن كل الحقوق تُفقد بموجب حكم الشريعة، بل من الأفضل الكفاح من أجل الحصول على كل الحقوق التي يجب أن تحصل عليها المرأة بموجب الشريعة والتركيز على حقوق المرأة في كل مكان لتحديد أدوارها.

سادساً، يجب أن يدرك المسيحيون والمسلمون واليهود مقدار ما يوجد بينهم من أمور مشتركة. فقوى العلمنة نفسها التي تثير المخاوف في المجتمعات الإسلامية المحافظة تولّد أيضاً الانزعاج في الغرب. ويستشعر القلق من فقدان دور الله

(1) في أيلول/سبتمبر 2005، درس قادة العالم تعريفاً للإرهاب اقترحه كوفي أنان لكنهم لم يتوافقوا عليه. وكانت المشكلة الرئيسية هل تعتبر الأعمال المرتكبة لمقاومة الاحتلال إرهاباً إذا نتج عنها مقتل غير المتحاربين أو إصابتهم.

كمصدر للقانون ومرشد للناس لدى المتديّن في كانساس وبالقدر نفسه في كراتشي وفي الكيبوتــز اليهودي الأرثوذكسي العادي. وقد حدّد ريك وارن، وهو واعظ إنجيلــي شهير ومؤلّف كتاب "الحياة المدفوعة بالغاية"، التحديث السلمي للإسلام كهــدف دولي أساســي في العقدين القادمين. وأنا أوافقه الرأي، لكن مع رواج الاعــتقاد بالخلق كما ورد في التوراة في العديد من المجتمعات الأميركية، فإنني غير واثقــة مــن هو المؤهّل لتقديم النصح إلى من بشأن الحاجة إلى التحديث. ويعتقد المسلمون المحافظون بأن الإسلام يتعرّض للحرب، ويعتقد المحافظون المسيحيون أيضاً بأنهم تحت الحصار. ولا تريد العائلات العربية في شبه الجزيرة العربية وجنوب آسيا أن تقــول لها واشنطن كيف تربّي أبناءها، وينطبق الأمر على العائلات في فلوريدا وألاســكا ومــا بينهما. ويشعر من يميلون في العديد من المجتمعات إلى وجهة نظر أكثــر علمانــية أو من يؤمنون بمعتقد تدين به الأقلية بأن الآراء الأخلاقية للأغلبية الدينــية ســتُفرض عليهم؛ وفي الولايات المتحدة بدأ يظهر بعض الخوف من انهيار الحاجز الدستوري بين الدين والدولة. وأشد ما يلفت النظر في العلاقة بين الإسلام والغــرب لــيس مقدار اختلافهما بل مقدار التشابه بينهما. لذا يجدر بنا أن نفهم بعضنا بعضاً أكثر.

في محادثــة هاتفية، سألت بيل كلينتون عن ذلك فأجاب بأن السؤال يتلخّص فــيما إذا كــنّا راغبين في الاعتراف بأننا لا نمتلك الحقيقة بأكملها. أي كما قال، "المعطيات بأكملها، أو النظام بأكمله".

وأضــاف قائلاً، "لا بأس في أن تعتقد بأن دينك حقّ، وأنه أصحّ من الأديان الأخــرى، لكــن لا أن تعتقد بأنّك تمتلك مئة في المئة من الحقيقة في هذه الحياة". واستشهد ببولس الرسول عندما تحدّث عن الاختلاف بين الحياة على الأرض وفي الجــنّة: "وما نراه اليوم هو صورة باهتة في مرآة، وأما في ذلك اليومِ فسنرى وجهاً لــوجه. والــيوم أعرف بعض المعرفة، وأما في ذلك اليوم فستكون معرفتي كاملة كمعرفة الله لي".

وفي حــديث لاحق بمنــزله في تشاباكا، نيويورك، أبلغني كلينتون، "إذا تقبّلت أنــك ربما لا تعرف كل شيء، فسيكون من الأصعب عليك أن تشعر بأي نوع من

الفرح في إيذاء الآخرين. وأنا أؤكّد أن الأشخاص الذين يقودون الطائرات ويصدمونها بناطحات السحاب لا يعتقدون بأن ما يرونه صورة باهتة في مرآة، ومن يحرقون المساجد أو يدمّرون الأماكن المقدّسة لا يعتقدون أن لديهم بعض المعرفة، ومن قتل إسحاق رابين لأنه "يهودي سيّئ" كان لديه قناعة مطلقة بأنه يعرف كل شيء. لا يمكنك الادّعاء إذا كان لديك معتقد ما بأن الدين لا يؤثّر في السياسة؛ لكن إذا كنت تعتقد بأنك تعرف كل ما يمكن معرفته، فستعتقد بأن الآخرين أقلّ قداسة وأقلّ قيمة واستحقاقاً للاحترام. لا يعني ذلك عدم وجود حقيقة، بل إننا لا نعرف كل الحقيقة. ومعظم الأديان تعلّم كثيراً من الأشياء نفسها - الاستقامة الروحية الصالحة لكل مجتمع. وسيكون حالنا أفضل بكثير إذا جرى حوار صادق بشأن الخلافات فيما بيننا شريطة أن يعترف الجميع بأنهم لا يعرفون الحقيقة المطلقة".

يوجد في القرآن آيات تثير نقطة مماثلة لما استشهد به كلينتون عن بولس: "فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ". وعند الإشارة إلى مقتل جالوت على يد داوود، يقول القرآن، "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين".

ليس من المبالغة القول بأنه إذا أردنا أن يعمّنا الخير جميعاً في المستقبل، على الناس من مختلف الأديان والثقافات أن ينسجموا بعضهم مع بعض. وللتعليم هنا دور مركزي. علينا أن نستعرض كل الوسائل لتطوير ونقل تفهّم مشترك أكثر اكتمالاً لتاريخ الشرق الأوسط، والعلاقات بين الإسلام والغرب، والنظم الإيمانية للديانات الإبراهيمية الثلاث، وكيفية التمييز بين الحقيقة والدعاية أو الخرافة. وهذه قضايا خلافية إلى حدّ كبير، وتتطلّب مدخلات من العديد من المصادر، وليس لها مجموعة واحدة من الإجابات "الصحيحة". ويتطلّب الإجماع الشامل ابتعاداً كثيراً عن المعتقدات العميقة بحيث تتجاوز حدود الأمل المعقول. مع ذلك فإن المناقشات العاصفة وغير الحاسمة تنشئ أرضية مشتركة عندما يطرح المشاركون المقولات الضعيفة جانباً دعماً للمقولات الحيوية. غير أن الحوار وحده لا يضمن السلام، لكنه أفضل من الوضع الراهن الذي ينشغل فيه مختلف الأطراف بالمحافظة على العقائد القديمة ومعاقبة الذين يقترحون مراجعتها ليس إلا.

سيكون من السذاجة الإيمان كثيراً في المشاريع التي يمكن أن تُجمع معاً تحت عنوان "لماذا لا نستطيع الانسجام معاً جميعاً"؟ في العادة لا يحتاج من يشارك في مثل هذه المشاريع إلى إقناع، ولا يشارك فيها المسؤولون عن المشاكل. ويمكن أن تكون النتيجة نوعاً من غزل البنات الفكري - حلو المذاق يسرّ النظر، لكنه فقير في القيمة الغذائية. لكن فيما يتعلّق بهذه المجموعة من القضايا، وبخاصة في الوقت الحالي، يعدّ تركيـــز الطاقة مهماً على كافة المستويات. ربما لا نتمكّن من تغيير آراء المتطرّفين، لكن يمكننا جعل من في الوسط أكثر نشاطاً وتماسكاً وثقة.

لذا أشعر بالتشجيع لأن المساعي بين الثقافات وبين الأديان أصبحت صناعات نامية في العديد من المؤسسات الاستشارية والجامعات. فأينما نظرت تقريباً، تجد أن المـــسيحيين والمـــسلمين واليهود - وأشخاص من معتقدات أخرى في الغالب - يجتمعون، ويوقّعون البيانات ويضعون الاستراتيجيات. وليس من المفاجئ أن يكون بين من يقود الهجوم المبادرة العالمية التي يديرها بيل كلينتون، وهي تجمع الالتزامات بالعمـــل في أربـــع مجـــالات، بما في ذلك الدين. وتسعى المجموعة العالية المستوى لـــتحالف الحـــضارات الـــتابعة للأمم المتحدة، بإشراف تركيا وإسبانيا، إلى تعزيز التـــسامح بالاستفادة من بعض أكثر العقول براعة في العالم. وتقوم منظّمة تدعى "ميدان" برعاية سلسلة من المباحثات على الإنترنت. ما الأسئلة التي يمكن طرحها على سبيل المثال على والدي فتاة في المملكة العربية السعودية، أو طالبة في كلية في باكـــستان، أو صاحب دكّان سنّي في العراق، أو معلّم مدرسة في إيران؟ ما الذي نريدهم أن يعرفوه عنّا؟

يعـــتمد آخرون بشكل أكبر على قوّة الإيمان. فمبادرة قرطبة، والتي يوجد مقـــرّها في نـــيويورك ويرأسها فيصل عبد الرؤوف، وهو مؤلّف غزير الإنتاج وإمـــام مـــسجد هناك، هي مشروع متعدّد الأديان ومتعدّد القوميّات مخصّص لمعالجـــة العلاقـــات بين المسلمين والولايات المتحدة. وقد سُمّيت باسم المدينة الإسبانية التي عاش فيها المسلمون واليهود والمسيحيون معاً في العصور الوسطى وازدهـــروا. وقـــد انضمّت جامعة يال إلى المركز الوطني للإنجيليين والحكومة المغـــربية في إطـــلاق الحـــوار المسيحي الإسلامي. وقد أنشأ الدكتور إيبو باتل

مؤسسة الشبّان المختلفي الأديان، مقرّها نيويورك، لجمع الشبّان من مختلف الأديان والأمم للعمل من أجل العدالة الاجتماعية. وتتابع مؤسسة بذور السلام منح الشبّان العرب والإسرائيليين الفرصة ليتعرّف بعضهم على بعض في بيئة خالية من التوتّر القائم في بلدانهم.

يُحْضر الأمل الذي يدفع مثل هذه المشاريع قصّة في مسرحية ألمانية من القرن الثامن عشر، "ناتان العادل". وتحكي القصّة عن خاتم خاص يُكسب صاحبه احترام أقرانه على الأرض ومرضاة الله. وقد تمّ تناقل الخاتم من جيل إلى جيل، وكان يذهب إلى أصلح الأبناء (كان ذلك في القرن الثامن عشر، لذا لم تأتِ القصّة على ذكر الفتيات). ظلّ النظام يعمل بشكل جيّد إلى أن جاء جيل فيه ثلاثة أبناء متساوون في الصلاح. وقد حلّ الأب المشكلة بأن طلب من أحد الحرفيين صنع خاتمين مماثلين تماماً للخاتم الأصلي بحيث لا يستطيع أحد التمييز بينها. وفيما تقدّم العمر بالوالد، أعطى كل ولد من أولاده خاتماً ونبّه الثلاثة إلى أن يتصرّفوا كأن الخاتم الذي لديه هو الصحيح، وهو ما قد يكون في الواقع. وسرعان ما دبّ الخلاف بين الأبناء بشأن من هو صاحب الخاتم الأصلي، فرُفعت القضية إلى أحد القضاة. وبتوجيه من القاضي، اتفق الثلاثة على أن الحلّ الوحيد هو أن يؤمن كل ولد بخاتمه وأن يبقى جديراً به في أفعاله الأخلاقية، وأن يعترف في الوقت نفسه بالاحتمالين الآخرين.

بهذه الروح نصل إلى اقتراحي السابع والأخير. إن قادة القاعدة لا يتحدّثون بشكل واقعي، لكنهم لا يتحدّثون بشكل تافه. وهم يُعنون بقضايا التاريخ والهوية والدين السامية. ولكي يُسمع كلامنا، علينا أن نتعامل مع القضايا بعمق مماثل. إن الأديان التوحيدية الثلاثة تقدّم تراثاً غنياً من المبادئ والأخلاق والمعتقدات المتداخلة. ويثمّن كل منها العدالة والرحمة عالياً، ويرشد إلى الطريق المؤدّي إلى أرضية مشتركة، ويقدّم الفرصة للتوبة، كما أنه دين سلام. ويجب ألا يتردّد القادة في الاستفادة من هذه القيم لتحديد ما قد يكون من الأفضل تسميته التراث اليهودي المسيحي الإسلامي والسعي لتحقيق أهداف مشتركة. وربما تشمل هذه الأهداف الهجوم على الفقر العالمي كما تصوّرته أهداف التنمية للألفية التي وضعتها الأمم

المتحدة، أو "سلام الشجعان" الذي كان يرغب فيه إسحاق رابين للشرق الأوسط، أو تحقيق الرغبة التي عبّر عنها الملك عبد الله عاهل الأردن بأن يصبح مسلمو العالم البالغ عددهم 1.2 مليار نسمة "شركاء كاملين في تنمية الحضارة البشرية وفي تقدّم الإنسانية في عصرنا".

في رواية خرافية من روايات إيسوب، يسعى أسد لاصطياد مجموعة من الثيران دون أن ينجح لأنه يجدها مجتمعة دائماً في دائرة. وأياً تكن الطريق التي يقترب منها الأسد، فإنه يواجه بالقرون. وذات يوم، تشاجرت الثيران وتفرّقت غاضبة في مراعٍ منفصلة. فتمكّن الأسد من الاستفراد بكل ثور والتهامه. وعلينا جميعاً أن نعي، بصرف النظر عن أدياننا، أنه لا يوجد في عالم اليوم نقص في الأسود التي تطلب الفرائس.

الفصل التاسع عشر

استدعاء أفضل الملائكة

طالما كنت حذرة ممن يدّعي الثقة بالحقيقة المتعلقة بالأسئلة الكبرى. اليقين بحدّ ذاته ليس ميزة، فذلك يتوقّف على كون ما يثق به المرء حقيقة واقعة. والدين على وجه الخصوص يستعصي على محاولات إثباته. ومما يثير اهتمامي محاولات بعض المسيحيين، على سبيل المثال، استخدام الطريقة العلمية لإثبات أن الدعاء مفيد. وهم يفعلون ذلك بتقسيم لائحة بأشخاص مرضى إلى نصفين، ثمّ الدعاء لأحدهما دون الآخر. ولم تحسم نتائج مثل هذه التجارب حتى اليوم. هل يرجع ذلك إلى أن الله لا يستجيب للدعاء أم أن أفضل المسيحيين يفسدون التجربة بالدعاء سرّاً للمجموعتين؟ وكما لاحظ ك. س. لويس، مؤرّخ أحداث نارنيا[1]، "ما زال المسيحيون وأخصامهم يتوقّعون أن يحوّل اكتشاف جديد ما قضايا الدين إلى قضايا معرفية، أو اختزالها إلى مجرّد سخافات واضحة. لكن ذلك لم يحدث قطّ".

فيما يتقدّم بي العمر، أتذكّر ذلك المسيحي الصالح - صديق أحد أصدقائي - الذي اختار الجملة التالية لتكتب على شاهد قبره، "أتركُ العالم حائراً كما دخلته". لكن السنين لم تحمل لي اليقين بشأن الدين. فأنا مسيحية متفائلة لكن تعوزني الكفاءة أيضاً. إنني أحترم الأديان الأخرى لأنني أعتقد أنها تتوصّل إلى الحقائق نفسها، وإن يكن من زوايا مختلفة. وقد كتب العالم اللاهوتي بول تيليتش، "الشك ليس نقيض الإيمان، بل هو عنصر من عناصره". ويعجبني هذا المعنى.

بعد اعترافي بعدم اليقين، لا يسعني القول إن الأصوليين يجب أن يكونوا على خطأ، لكنني واثقة إلى حدّ كبير بأنهم ليسوا على صواب تام. الإنجيليون

---

(1) "Chronicles of Narnia"، وهي سلسلة من سبعة قصص خيالية وضعها لويس للأطفال - المترجم.

يمنحون الكتاب المقدّس درجة عالية من المرجعية، ويتجاوز الأصوليون ذلك بالتأكيد على أن كل كلمة فيه صحيحة. والإيمان بذلك بالنسبة للكتاب المقدّس أو سواه من الكتب المقدّسة يعني افتراض الكثير بشأن قدرة الرواة البشر على التسامي فوق التأثيرات الذاتية لزمانهم ومكانهم. الكتب المقدّسة مليئة بالسياسة، ولذلك فإن التعاليم الأساسية لا التفاصيل الدقيقة هي التي أهتمّ بها فيما يتعلّق بمضمون الدين. وأشعر بالغضب على وجه الخصوص من الذين يتناولون بعض الاستشهادات ليخلصوا إلى وجوب عدم السماح للمرأة بأن تقود في الكنيسة أو أن الله يكره الجنسية المثلية. ربما أدّى كتاب مثل سفر اللاويين غرضه كمرشد أخلاقي في إسرائيل القديمة بشكل جيّد، لكن النصّ الذي يقبل الرقّ، ويجيز للمرء بيع ابنته، ويحظر تهذيب اللحى، ويحرّم ارتداء الملابس المصنوعة من نوعين من الخيوط ليس سرمدياً أو خالياً من العيوب. ولم يكن يسوع أصولياً أيضاً. لقد أدانه الفريسيون لأنه يعمل في عطلة السبت، ويتقاسم الطعام مع جابي الضرائب، ويساعد الزناة. وقد كسر المحرّمات الثقافية بالتحدّث مع امرأة التقى بها عند بئر وأخذ الأطفال على محمل الجدّ. كما رفض صراحة مذهب "العين بالعين".

إذا كان للربّ خطّة فستُنجز. تلك هي السلطة القانونية للسماء لا سلطتنا. لكن إذا كان المرء يؤمن بأن عملية الخلق قد منحتنا الحياة والإرادة الحرّة على حدّ سواء، يبقى أمامنا أن نتساءل عما نفعله بهاتين الهبتين. ذلك تحدٍّ عملي وأخلاقي، وهو ما يقوم عليه هذا الكتاب.

الدين يُعنى بآمال كل السنين ومخاوفها؛ وولايات الرؤساء الأميركيين ليست مديدة. لذا يجب أن تستند سياسات الحكومات الأميركية على ما تتوقّع أن تحقّقه في فترة محدودة على الأرض، لا على التوقّعات بعد آلاف السنين. في الوقت نفسه، يختلط ما يمكن إنجازه على الأرض بالمفاهيم المختلفة عن الله لدى الناس. عندما أسافر حول العالم، غالباً ما أسأل، "لماذا لا نستطيع إبقاء الدين بعيداً عن السياسة الخارجية"؟ وجوابي هو أننا لا نستطيع ولا ينبغي لنا ذلك. فالدين جزء كبير مما يحفز الناس ويشكّل آراءهم في السلوك العادل والصحيح. ويجب أن يُحسب له

حساب. لا يمكننا أن نتوقّع من قادتنا اتخاذ القرارات بمعزل عن المعتقدات الدينية. وثمـة حدود لمدى القدرة على تصنيف العقل الإنساني. على أي حال، لماذا ينبغي لقـادة العـالم المتديّنين العمل والكلام كما لو أهم غير متديّنين؟ علينا العيش مع معتقداتنا وخلافاتنا أيضاً، فلن يجدي إنكارها نفعاً.

غير أن ذلك لا يعني وجوب تضخيم أهمية هذه الخلافات. فالغريزة الإنسانية تدعـو إلى الانـتظام في مجموعات. وعملية الفرز هذه سلبية إلى حدّ كبير بالنسبة لمعظمـنا. المجمـوعات التي ننتمي إليها جزء من ميراثنا وثقافتنا - وذلك ناتج عن المكـان الذي ولدنا فيه وكيفية تربيتنا. لقد كان تراث عائليّ يهودياً لكنني تربّيت كمسيحية كاثوليكية. ولو أرسلت كطفلة إلى معبد بدلاً من الكنيسة، لوصلت إلى سنّ البلوغ حاملة هوية مجموعة مختلفة. وولدت في أوروبا (خارج الوطن)، ولولا الحرب الباردة لما كان هناك سبب يدعو عائلتي إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة ولما أصبحت أميركية.

لا تتـيح لـنا الطبيعة اختيار آبائنا أو مكان ولادتنا، ما يحدّ منذ البداية من المجمـوعات الـتي نتماهى معها. صحيح أن بعضنا يوازن بين الفلسفات المتنافسة ويـتحوّل من دين إلى آخر بناء على التنوّر الروحاني أو القناعة العاطفية والفكرية. ويجـد بعضنا سبباً لتغيير الولاءات من بلد إلى آخر. لكننا في الأغلب الأعمّ نبقى ضـمن التـصنيفات العامـة نفسها التي وضعتنا فيها أحداث خارجة عن نطاق سيطرتنا. وذلك ليس إنجازاً كبيراً.

لـذا يجب ألا يكون لخلافاتنا أهمية كبيرة من حيث المنطق. وينبغي للناس من مخـتلف الأمم والمعتقدات أن يكونوا قادرين على العيش بانسجام. غير أن الفجوة بين ما يجب أن يكون وما هو قائم بالفعل تشكّل مصدراً متكرّراً للأحداث المثيرة طـوال وجودنا البشري. وقبل عقود، حذّرنا رينولد نيبور من أنه لا يمكن ترويض وحـشية الأمم والجماعات بصرف النظر عن مقدار الجهد الذي نبذله. فقد كتب أن "الـصراع الاجتماعي أمر محتوم في التاريخ البشري، وربما حتى نهايته". وقد أقرّ بـأن الـصالحين والحكماء قد يسعون إلى تجنّب الكارثة، لكنهم لن يستطيعوا أن يجـاروا المخاوف والطموحات التي تدفع الجماعات إلى المواجهة. لقد كان نيبور

حكيماً في التوصل إلى هذا الحكم الكئيب قبل الحرب العالمية الثانية، إذ إنه لم يكن يتفاعل مع الحرب، وإنما يتوقّعها.

إذا كـــان نيبور محقّاً، فإن السعي لتحقيق السلام سيكون شاقّاً على الدوام. ومع ذلك لا يسعني أن أقبل فكرة عدم قدرتنا على فعل شيء لتحسين الحالة الإنسانية لأن شخـــصياتنا معيـــبة. فباستطاعة صنّاع القرار البحث بطريقة مفيدة عن طرق لتقليل النـــــزاعات الاجتماعية الحتمية التي أشار إليها نيبور - لا للعثور على الطوباوية بقدر إنقاذ أنفسنا من دمار أكبر. وعلى الرغم من العيوب المتأصّلة فينا، يمكننا أن نأمل بصنع مستقبل أفضل. ونحن نعلم أن القيادة الصحيحة تستطيع فعل الكثير لتجنّب الحروب، وإعادة بناء المجتمعات المحطّمة وتوسيع الحرية ومساعدة الفقراء.

كتبت في بداية هذا الكتاب أنني أريد تحديد الطرق التي تجمع الناس معاً على دعم السياسات التي تعكس النواحي التوحيدية لا التقسيمية للدين. ولست أهدف إلى إنـــشاء بوتقة روحانية تُختزل فيها الادّعاءات الدينية المتنافسة إلى عجينة طرية، بـــل إنني مهتمّة في حل المشاكل والاستجابة إلى مبدأ سياسي عملي. لقد جعلت التكنولوجـــيا الفظائع مرئية أكثر، والحدود أكثر قابلية للاختراق، والأسلحة أكثر خطورة، والنـــزاعات أكثر تكلفة. وفي غمرة تحقّق أحلامنا، قد قرّب العلماء أيضاً بعـــض الكوابـــيس إلى الحقيقة الواقعة. ومن واجب قادتنا رعاية بيئة دولية يمكننا العيش فيها بأكبر قدر ممكن من الأمن والحرية والعدالة، ويتطلّب ذلك بحكم طبيعته اتصالات وتعاوناً.

يستحقّ الرئيس بوش الثناء لأنه أكّد موقع أميركا في الواجهة الخطابية لتعزيز الديمقـــراطية. ويـــستحقّ المديح للإقرار بالحرية السياسية كمصدر محتمل للوحدة العالمـــية. غـــير أنه قوّض قدرته على القيادة من خلال السهو والخطأ الذي جعل العديـــد مـــن البلدان أقلّ توقاً إلى الوقوف مع أميركا. من الواضح أنه يجب عدم تكرار الرؤية الضيّقة للرئيس في ولايته الأولى ونهجه الأحادي غير المبالي. علينا أن نـــستعيد تحالفاتـــنا، ونأخذ كل منطقة على محمل الجدّ، وندرك بأننا إذا أردنا من الـــبلدان الأخـــرى التعاون معنا بشأن المخاطر التي تهدّدنا، فإن علينا المساعدة في التعامل مع الأخطار التي تهدّدهم.

سيكون من المفيد جداً أن يجتمع الأميركيون من كل أنحاء الطيف السياسي معاً (كما تصوّرت في الفصل السابع) لدفع حكومتنا إلى ممارسة دور القيادة في القضايا الإنسانية وحقوق الإنسان. وسيفيد ذلك كثيراً في استعادة احترام أميركا وإضفاء الشرعية على مواقفنا من القضايا الأمنية الرئيسية المتمثّلة بانتشار الأسلحة والإرهاب.

ولعل السؤال الأكثر أهمية هو كيف نعرّف نحن الأميركيين الدور الدولي لبلدنا. هل نرى أنفسنا خاضعين للقواعد نفسها التي تخضع لها الأمم الأخرى، أم نرى أنه يحقّ لنا التصرّف كما يحلو لنا؟ هل تقع على عاتقنا مسؤولية تقوية المؤسسات والقانون الدوليين، أم واجب البقاء أحراراً من مثل هذه الضوابط "استجابة لدعوة من وراء النجوم"؟ وهل دورنا الصحيح هو القيادة أم الهيمنة؟

لقد سأل ويليام كريستول، وهو كاتب من المحافظين الجدد، "ما الخطأ في الهيمنة لخدمة المبادئ الصحيحة والمثل العليا"؟ وهذا سؤال طرحه الأميركيون قبل قرن من الزمن عندما استولوا على الفيليبين. وقد أجاب عنه الرئيس مكينلي بأن لدينا تفويضاً بفرض إرادتنا، وزعم أنه تلقّى هذه الإجابة من السماء. تلك الإجابة خاطئة اليوم، سواء أكان الردّ صحيحاً أم خاطئاً في ذلك الوقت. فسياسة الهيمنة تتناقض مع الصورة الذاتية للولايات المتحدة وتشكّل طريقة رديئة لحماية مصالحنا. وقد تبيّن أن تطبيقها في خدمة ما اعتقد قادتنا أنها "المبادئ الصحيحة والمُثل العليا" - كما هو الحال في العراق - استنزاف مميت للموارد الأميركية والقوّة العسكرية والهيبة. وليكن ذلك درساً لنا. فالاستثناء الأميركي لا يدين بعمره الطويل إلى قوّة الولايات المتحدة بل إلى الحكمة والانضباط الذي مورست به تلك القوّة في الغالب - بما في ذلك عدم استخدام القدرة العسكرية فحسب بل أيضاً كل المقدّرات التي يمكن أن تساهم في أمننا وسمعتنا الطيّبة.

عند التطلّع إلى الأمام، من المفيد تذكّر شخصية إبراهام لنكولن القيادية في أثناء الحرب. لم يجفل من القتال لأجل قضية عادلة، لكنه لم يدّعِ قطّ احتكار الفضيلة. وتقبّل أن إرادة الله ستتحقّق دون أن يدّعي بأنه يدركها. ورفض اقتراحاً بأن يدعو الله لكي يقف إلى جانب الاتحاد، وصلّى بدلاً من ذلك لكي يكون الاتحاد إلى جانب الله.

لقد قاد لنكولن بلداً منقسماً، وعلينا أن نقود عالماً منقسماً. ولهذه الغاية، علينا أن نمزج الواقعية بالمثالية، وأن نضع الأخلاق قرب مركز سياستنا الخارجية حتى عندما نناقش تصوّرات مختلفة لما تعنيه الأخلاق. وعلينا أن ننظّم أنفسنا بشكل أفضل لندرك عالماً يشكّل فيه الإخلاص الديني قوّة قادرة إيجابية وقوّة هدّامة على نحو مستقطّع في الوقت نفسه، وأن نستجيب بعزم وثقة للمخاطر التي تشكّلها القاعدة وما شاهها. وأن نوضح بشكل جلي ما تقف أميركا ضدّه وما نقف إلى جانبه أيضاً.

قبل نصف قرن من الزمن، رأى والدي، عندما كتب عن الحرب الباردة، أننا سواء كنّا "متفرّدين أميركيين أم عماليين بريطانيين، محافظين أم تقدميين، ديمقراطيين اشتراكيين أم ديمقراطيين اجتماعيين، بيضاً أم سوداً أم صفراً - يمكننا أن نقبل أن الكرامة الإنسانية واحترام الفرد" يجب أن يكون محور كل شيء. وأنا أؤمن بذلك أيضاً.

إن احترام حقوق ورفاه كل فرد هو المكان الذي يرتبط فيه الإيمان الديني والالتزام بالحرية السياسية أوثق ارتباط. والفلسفة القائمة على هذا المبدأ لديها أكبر الإمكانات لنقل الناس من تعارض وجهات النظر وجمعهم معاً لأنها لا تستثني أحداً، ومع ذلك فإنها تتطلّب من الجميع النظر في آراء الآخرين واحتياجاتهم[1].

مع ذلك يثار السؤال التالي: كيف يمكننا أن نأمل بتوحيد الناس حول مبدأ - كاحترام الفرد - يعتبر مفهوماً غربياً فريداً؟ الجواب بالطبع هو أنه ليس غربياً. فالهندوسية تطلب "ألا يعامل أحد الآخر بما ينفر منه هو نفسه". وتعلّمنا التوراة، "أحبّ جارك كما أحب أنا نفسي". ولاحظ زرادشت، "ما أراه خيراً لي يجب أن يكون خيراً للجميع". وقال كونفوشيوس، "لا تعامل الآخرين بما لا تحبّ أن تُعامل به". وعلّمنا بودا أن نعتبر الآخرين كأنفسنا. ورأى الرواقيون في اليونان القديمة أن

---

(1) احترام الفرد ليس نقيض احترام حقوق الجماعات، كما يقول بعض الأشخاص. بل على العكس من ذلك،، الأفراد يحملون معهم الحقوق إلى الجماعات التي ينتمون إليها. وهكذا فإن الحرية من التمييز على أساس العرق أو الجنس أو الدين حق فردي وحق جماعي على السواء.

جميع البشر "سواسية في بلاط الحرية العظيم". ويطلب الإنجيل المسيحي "عامل الآخرين كما تحبّ أن يعاملوك به" وينبّه القرآن إلى أن المؤمن يحب لأخيه ما يحبّ لنفسه. أخيراً، الغاية المعلنة من أوّل قانون معروف في العالم هي "الانتصار للعدالة وضمان ألا يضطهد القويّ الضعيف". هذا هو نوع النظام القانوني الذي يجب أن يطوّره العالم اليوم كهدية لشعب العراق. بل إنه قانون حمورابي، الهبة التي تلقتها الحضارة قبل أربع آلاف سنة من بابل القديمة، التي تعرف اليوم بالعراق.

عندما دوّن بنجامين فرانكلين فكرته عن الدين الحقيقي، رأى أن "صنع الخير للبشر أكثر الأعمال قبولاً عند الله". لا يمكننا باعتقادي التأكّد من ذلك، لكن يمكننا على الأقلّ أن نقدّم تخميناً قائماً على المعرفة بأننا مُنحنا ضميراً لسبب ما.

وفقاً لإحدى قصائد ييتس، يحدث الانهيار عندما يفتقر الأفضل إلى العقيدة ويكون الأسوأ مملوءاً بالقوّة العاطفية، فيعجز المركز عن الصمود وتدبّ الفوضى في العالم.

إننا نعيش في زمن الأسوأ فيه مملوء بالقوّة العاطفية. والسؤال الذي يطرح نفسه، هل يوجد لدى من تبقّى منّا شجاعة معتقداتنا والحكمة لانتقاء الخيارات الصحيحة؟ الحكمة تأتي من التعلّم، والتعلّم من التربية. وجوهر التربية هو البحث عن الحقيقة. لكن هناك أنواع كثيرة من الحقيقة.

في الرياضيات والعلوم، تتراكم المعرفة. فتُبنى النظريات على النظريات والقوانين على القوانين. نكتشف أن الأرض كروية فلا نفكّر ثانية بأنها مسطّحة. ونعرف أن تربيع وتر المثلّث القائم الزاوية حاصل جمع تربيع ضلعيه الآخرين. ومن خلال التجارب والأبحاث، يضيف العلماء باستمرار المزيد إلى مخزوننا المعرفي. ونحن بهذا المعنى أكثر حكمة بكثير من الأجيال السابقة فيما يتعلّق بكيفية عمل العالم.

غير أني لست واثقة من أننا أذكى الآن مما كنّا عليه في الماضي في ميادين فهم السياسة العالمية والتفاهم بين الأديان.

لقد كان القرن العشرون أكثر القرون دموية في التاريخ الإنساني. وعندما جاءت الألفية الجديدة، تعاهدنا على البدء من جديد، لكننا لم نبدأ بشكل جيّد.

إنــي متفائلة وكثيرة القلق. وخلال سبعة عقود من عمري تقريباً، رأيت ما يكفــي من الأمثلة عن الإيثار والتضحية لكي أعيش مدهوشة مما يرغب البشر في عملــه بعضهم لبعض، وما يكفي من الأمثلة عن القسوة لأشعر باليأس مما يستطيع أن يفعله البشر بعضهم ببعض. لا مفرّ من التناقضات ضمن الطبيعة البشرية. الحرية هــي الهــبة التي مُنحناها والعبء الملقى على كواهلنا، حيث نحمل معها مسؤولية الاختيار والمساءلة عن الخيارات التي نتّخذها.

لا يــسعني أن أضــع خاتمة سعيدة لهذا الكتاب. فنحن لا نــزال في خضمّ الكفاح. وكما يذكّرنا بيل كلينتون، لا يستطيع أحد منّا أن يدّعي امتلاك الحقيقة الكاملة. لكن يمكننا أن نأمل بقيادة في الداخل والخارج تلهمنا البحث عن الأفضل في أنفسنا وفي الآخرين. وقد صاغ لنكولن العبارة المثلى مناشداً في عواقب الحرب "أفــضل الملائكة في طبيعتنا" – مستجمعاً قدرتنا على رعاية أحدنا الآخر بطرق لا يمكن تفسيرها بالمصلحة الذاتية أو المنطق أو العلم.

لــذا فــإن المبدأ مهم جداً: لكل فرد قيمة. فإذا ما قبلنا بذلك حقّاً وعملنا بمقتــضاه، نحصل على أساس للوحدة عبر كل الحدود. وتكون لنا اليد الطولى في مواجهة الإرهابيين والدكتاتوريين والطغاة والمتعصّبين. ونستفيد من مساهمات كل الناس، وندافع عن الحرية ونغنيها بدلاً من استنــزافها. وعندما نفعل ذلك، يمكننا الأمل بالتقدّم ببطء مع الزمن لا نحو مدينة متلألئة ومتميّزة على الجبل بل نحو عالم تكون فيه القوّة رفيقةً للحقّ، ويتشارك فيه الجميع الكرامة والحرية.

Harper Collins
مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

هل لأميركا، كما يزعم جورج بوش الابن، رسالة خاصة، مستمدة من الله، لنشر الحرية والديمقراطية في العالم؟ ما هو مدى تأثير «الحق المسيحي» على السياسة الخارجية الأميركية؟ وكيف ينبغي لأميركا والغرب أن يتعاملا مع التطرف الإسلامي العنيف؟

سعى السياسيّون تقليدياً إلى التقليل من أهميّة المعتقدات الدينيّة في الشؤون الدوليّة. وفي هذا الكتاب تقول مادلين أولبرايت، وزيرة الخارجيّة الأميركيّة في عهد كلينتون، إنّ فهم مكانة الدين وقوّته – ومعرفة أفضل السبل للاستجابة لها – ضروريّة إذا إرادت أميركا أن تقود العالم بنجاح. ولذلك تتفحّص الدين والشؤون الخارجيّة من خلال عدسة التاريخ الأميركيّ بالإضافة إلى تجاربها الشخصيّة في الحكومة. وتوجّه انتقاداً حادّاً للسياسة الأميركيّة، وتدين من يستغلّ الحماسة الدينيّة لغايات عنيفة، وتمتدح القادة السياسيّين والثقافيّين والروحيّين الذين يسعون إلى تسخير القيم الدينيّة من أجل الجمع بين الشعوب. وفي تحدّ للحكمة السائدة، ترى أولبرايت أنّ الدين والسياسة ليسا متلازمين فحسب، بل إنّ شراكتهما يمكن أن تكون قوّة للعدل والسلام، إذا استخدمت بالشكل الصحيح.
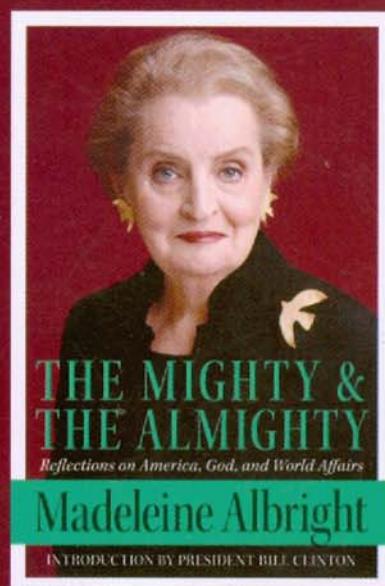
ISBN 9953-87-021-7
9789953870212

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
6 ميدان طلعت حرب – القاهرة
هاتف: 5756421 – فاكس: 5752854
البريد الإلكتروني: info@madboulybooks.com

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb